دار الثقافة

فن الوعظ

دراسة للأساليب التصويرية في الوعظ

سها

بريان شابيل

فن الوعظ

(دراسة للأساليب التصويرية في الوعظ)

بريان شابيل

ترجمة

نكلس نسيم



Using illustrations to Preach with Power
By: Bryan Chapell
This Book was first published by Zondervan
Publishing House
Translated by permission and Published in Arabic in 1997.

طبعة أولى

فن الوعظ
صدر عن دار الثقافة - ص.ب ١٢٩٨- القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم اقتباس أو إعادة نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أي جزء منه بدون إذن الناشر، وللناشر وحده حق إعادة الطبع)
١٠/ ٧٤١ ط١/١-١/٩٧
رقم الإيداع بدار الكتاب: ١٠٤٨٧/ ٩٧
ISBN 977 - 213 - 401-2
جمع وطبع بمطبعة سيوبرس
تصميم الغلاف : سها ناجي

مقدمة الدار

يعتبر الوعظ أحد أركان العبادة، في الكنائس، حيث يستمع العابدون للواعظ بكل اهتمام لكي يحصلوا على قدر وافر من التعزية الروحية، ومن تعليم كلمة الله.

ولهذا كان لابد أن ينال الوعظ أهمية كبيرة عند المهتمين من اللاهوتيين، وأصبح الوعظ علماً يدرس في كليات اللاهوت، كعلم له أصوله ووسائله، وكيف تطور على مر العصور مع الحضارات المختلفة.

وقد رأت دار الثقافة نشر هذا الكتاب باللغة العربية لأنه يشرح مكونات العظة الجيدة والعلاقة بين الواعظ والمستمع، وكيف يتم التفاعل بينهما بأساليب التوضيح المختلفة، وكيفية استخدام الوسائل الحضارية المختلفة في توصيل فكرة العظة.

هذا الكتاب هام جداً لكل خادم لكلمة الله، ولكل مستمع للعظة، لكيَ يعرف كل طرف كيف يستفيد من الآخر، ويخرج المتعبد وهو أكثر ملئاً فكرياً وروحياً، ويشعر الواعظ بثقة في نفسه أنه استطاع بنعمة الله أن يقدم العظة المطلوبة بحسب حاجات الناس.

دار الثقافة

في هذا الكتاب

صفحة

نمط عتيق أم حكيم

كنت ألقى عظة عن التجسد مستشهداً بالأصحاح الثانى من رسالة بولس الرسول إلى أهل فيلبى. وكنت أود أن يدرك شعب الكنيسة المفاهيم العظيمة لتجسد المسيح ووجوده فى الهيئة كإنسان، دون أن يقعوا فى الخطأ القديم بالتقليل من لاهوته. وقد أطلت كثيراً وبكل حرص فى حديثى حول المفهوم الصحيح للآية السابقة؟ والتى على أساسها قالت الترنيمة القديمة عن المسيح "إنه جعل نفسه كلا شىء". بل إنى شعرت ببعض الإثارة بالنسبة للصياغة اللغوية. وضربت بيدى بعنف على منبر الكنيسة لأشدّد على فهمٍ صحيح للكلمة اليونانية "Kenosis" أخلى نفسه.

لكن يبدو أن شعب الكنيسة لم يشاركنى إلا القليل فيما شعرت به من إثارة. وعدت إلى بيتى أتساءل ما إذا كان -وبالرغم من حماسى- عرف أحدهم شيئاً أكثر مما كان يعرفه حين دخل الكنيسة فى يوم الأحد المذكور. ونازعتنى الشكوك فى أن أكثر من واحد كان يتساءل فى طريق العودة إلى البيت ما الذى كان الراعى يثير المشاعر حوله فى هذا الصباح؟

وبعد بضعة أسابيع، استضافت كنيستنا مؤتمراً للإرساليات. وكان (بول وكارولين لندن) هما المتحدثان فيه وهما يخدمان فى السودان. ولقد

اندهشت فى أول يوم أحد للمؤتمر حين أعلن (پول) أن موضوع عظته سيكون نفس الفقرة التى قمت بشرحها منذ وقتٍ قريب. وخشيت أن يُحبط شعب الكنيسة من هذا التكرار، لأنى كنت قد شرحت النص بشكلٍ متقن للغاية، وفى البداية بدت مخاوفى تتأكد. فقد بدأ المرسل عظته بالتأكيد على استمرارية لاهوت المسيح كما قلتُ سابقاً. وركّز تفسيره على الآية السابعة مثلما فعلت تماماً. ومع ذلك، فقد بدأ وعظه يسير فى اتجاه آخر. فبدلاً من أن يركز على الترجمة اليونانية، أخذ يشرح قائلاً:

"فى البقعة التى كنت أخدم فيها أنا وكارولين فى أفريقيا، كان الزعيم أقوى رجل فى القبيلة. ولعلك تظن أن هذا راجع إلى أنه يتوجب عليه أن يلبس غطاء رأس كبير وأرواباً طقسية فضفاضة، لكن الحقيقة هى أنه تُوجد أسباب أخرى، سنعرفها سريعاً.

فالماء نادر للغاية فى البقعة التى يعيش فيها هؤلاء الناس، ولذا كان عليهم أن يحفروا آباراً عميقة. وهى ليست أباراً على النحو الذى نعرفه- لها جدران من آجر، ولها بكرة ذات حبل يُربط دلو فى نهايته. فإنهم يحفرون للبئر ممراً رأسياً ضيقاً يصل إلى مائة قدم تحت الأرض. وبالرغم من أن البئر عميقة، فإن المياه الجوفية فى الأرض الجافة تنز ببطء فى البئر، ولا تضيع منه إطلاقاً نقطة واحدة. ولو كان من السهل الحصول على المياه، لما استعمله الناس باقتصاد شديد، ثم إنه خشية أن يقوم البعض

ليلاً بسرقة مؤونة اليوم التالى. فمن ثم يقوم رجال القبائل بعمل شقوق متبادلة فى جدار البئر تتجه إلى أسفل حتى مستوى الماء. ويتبادل الثقل بين ساق وأخرى، يستطيع أى رجل أن يستخدم هذه الشقوق كدرجات سلم للنزول عبر هذا الممر الرأسى حتى يصل إلى الماء. وليس بمقدور أحد سوى أقوى الرجال أن ينزل إلى البئر بهذه الطريقة الشاقة الانحدار، ثم يصعد ثانية بقربة مليئة بالماء للقبيلة كلها.

وجدت ذات يوم أن رجلاً كان يحمل الماء عبر الممر الرأسى المذكور فسقط إلى قاع البئر وكُسرت ساقه. وقد ظل على حاله هذا، ولم يجرؤ أحد على مساعدته لأنه ليس بينهم من لديه القوة أن يتسلق البئر صاعداً وهو يحمل رجلاً آخر. حينئذ استُدعى الزعيم. ولما رأى محنة الرجل الجريح، نزع غطاء رأسه الضخم وخلع رداءه التقليدى الفضفاض. ثم نزل إلى البئر، وحمل ثقل الرجل المصاب على ظهره، وأخرجه من البئر سالماً. وقد فعل الزعيم ما لم يكن فى استطاعة أحد غيره أن يعمل.

وهذا هو تماماً ما عمله الرب يسوع من أجلنا. فقد نزل ليخلصنا بأن أخذ على نفسه ثقل خطيتنا. وقد نحى جانباً أمجاده السمائية -مثلما خلع الزعيم غطاء رأسه ورداءه- كى يخلصنا. لكن، لتسمحوا لى أن أطرح عليكم سؤالاً أيها الأصدقاء. هل توقف الزعيم عن أن يكون زعيماً؟ حين خلع غطاء رأسه ورداءه، بالطبع لا. وبنفس الطريقة حين "أخلى"

الرب يسوع "نفسه"، وتخلى عن مجده السمائى، لم يتوقف إطلاقاً عن أن يكون إلهاً.

كنت أقف إلى جوار (پول لندن) وهو يصافح الناس أثناء مغادرتهم الكنيسة ذلك الصباح. وعلى وجه التقريب ذكر كل واحد شيئاً عن القصة التى رواها. وأكثر التعليقات شيوعاً كان... "لم أفهم إطلاقاً هذه الآية حتى شرحتها أنت بهذه الطريقة". ولم يكن أحد يحاول الإساءة إلىّ. ولعله لم يكن هناك واحد من بين خمسين شخصاً يتذكر عظتى عن "أخلى نفسه". أما الآن فهُم لا يتذكرون آيات الكتاب المقدس فحسب، بل ويفهمونها أيضاً. فالقصة التى رواها المرسل لم يقتصر دورها على التسلية فقط. فقد أوصلت الحقيقة الكتابية بفاعلية -بأكثر فعالية من افتراضاتى.

لقد هزتنى هذه الخبرة لأنها تحدت بعض افتراضاتى عن الوعظ. وقبل ذلك ببضعة أسابيع فقط كنت أومىء رأسى موافقاً حين استند أستاذ زائر قديم إلى كرسيه، فى الحجرة التى نختلى إليها للقراءة، شرع فى شكوى استمرت عشر دقائق ضد الأخطاء السائدة فى أسلوب الوعظ هذه الأيام، وأهمها استخدام القصص التوضيحية. وقال: "كل ما نعمله هو تسلية الناس، فالوعظ فى حد ذاته ليس بكاف. فعلينا الآن أن نحكى قصصاً ونصبح ممثلين هزليين. وكل هذا بسبب جهاز التليفزيون. فالناس لا يستطيعون الاكتفاء بالجلوس والتفكير. سوف أضمّن عظاتى بعض

القصص، لأنه يتوجب عليّ فعل ذلك، حتى أحمل الناس على الإصغاء، ولو أني أكره ذلك إلى أبعد حد". وكنت قد سمعت التعبير عن هذا الموقف مرات كثيرة. وسلّمت بصحته إلى حد ما، لأن التعبير عنه على هذا النحو كنت أسمعه من أناس موضع احترامي. وقد تبنيت هذا الموقف أيضاً لأنه كان ممكناً أن أشعر بعدم ارتياح هذا المفكر البارز بالنسبة للاستسلام لضعف المستمعين، بغية أن يولوا اهتمامهم لكلمة الله.

ولقد شعرت بأني مخطىء فيما يتعلق باستخدام القصص فى الوعظ وكنت أزدري بأولئك الذين يتكلون عليها، لكن شيئاً مدهشاً حدث لي. فالفكر الذى أقدره قد سرى فى قلوب شعبى، ولم أستطع أن أجد أى تهاون فى قبول الرجل (پول لندن) أو فى الرسالة.

وشرعت الأسئلة تخطر بغزارة على ذهنى، وهى أسئلة لم أتجرأ فى السابق أن أطرحها. فقد توقعت أن ذلك المفكر كان على صواب، ومع ذلك وجدت شعب الكنيسة لا يشاركونه كثيراً فى عدم ارتياحهم للقصص التوضيحية. وبدا أن الكنيسة كانت تعكس مواقف شائعة بين الإنجيليين، حين يصبح الوعظ "مجرد سرد للقصص" وهم لا يشكون من المحتوى القصصى للعظات. والواقع أنه يبدو أن الكنائس تنظر إلى القصص التوضيحية على أنها تشكل أكثر الأجزاء بروزاً وتثقيفاً وإثارة فى كثير من العظات. هل هذا بسبب أن بعض العلمانيين لا يقدّرون الوعظ؟ أم

هذا مرجعه، كما قال ذلك المفكر، أن جهاز التليفزيون يسيطر على توقعات المستمعين ويقلل من قدرات العقل الحديث،؟ أم أن ذلك بسبب أن القصص التصويرية تحتوى على فعالية مستترة من الحق المُعاش الذى يأسر الانتباه، الفهم بطريقة لا يمكن أن تضاهيها أية وسيلة وعظية أخرى؟ وكانت المشكلة التى تواجهنى: هل ينبغى علىّ أن أصدّق زميلى، أم اختبارى مع (آل لندن)؟

وكلما تأملت فى التباين بين خبرتى وتقدير ذلك المفكر، زادت الأسئلة التى تزاحم ذهنى. فاستخدام القصص كوسائل إيضاح استمر معمولاً به ما يقرب من ألفى سنة من الوعظ فى الغرب، وما زال صندوق البريد الخاص بى يمتلىء أسبوعياً بإعلانات خاصة بالدوريات وكتالوجات البطاقات، وخدمات الحاسب الآلى التى تسوّق القصص التوضيحية الخاصة بالعظات. ويبدو أن شهية الوعاظ والعلمانيين تكاد لا تشبع من هذه المادة. فهل ترك كثيرون الوعظ الجاف، أم أنهم يعرفون بالغريزة أن القصص التوضيحية تضفى مزيداً من الفاعلية على وعظهم؟ وباعتبارى واعظاً يقظاً، أدركت أن الوعظ الكتابى، لا يجب أن ينزل إلى مستوى البرجماتية الدنيوية، أو يرفض أداة عتيقة دون أن يقيّم تماماً مدى نفعها. وقد أدى بحثى عن بعض الإجابات الخاصة بقيمة القصص فى الوعظ إلى بعض النتائج غير المتوقعة، والتى هى أساس هذا الكتاب.

وقد اكتشفت أن كنائس اليوم لا تعتمد بالضرورة على القصص بأكثر مما كان عليه الحال بالنسبة للمؤمنين قديماً. وليس ثمة شك فى أن جهاز التليفزيون قد غيّر من توقعاتنا بشأن الخطاب العام، لكن لا يبدو أنه غيّر بشكل جذرى الأسلوب الذى يعمل به الذهن البشرى ويشكل به المعلومات. فالعقل يتلهف إلى الواقع ليثبت به ما هو نظرى.

ومع ذلك، فقولك إن القصص تساعد العقل، لا يعنى أنها مجرد ركيزة معرفية. فالقصص ليست بديلة عن التفسير الجيد، بل هى صيغة ضرورية تصل بها الحقائق الكتابية للعواطف وللإرادة وللعقل أيضاً. فهى لا تُستخدم لمجرد المعرفة العقلية. لأنها تشرح الأسفار الكتابية فى إطار الخبرة الإنسانية لتوجد فهماً كاملاً لكلمة الله. والقصص التوضيحية -إذ تشكل الحقائق الكتابية فى العالم الذى فيه نُوجد ونحيا ونتحرك، فإنها توحد مسئولياتنا، وماضينا، وحاضرنا، وعواطفنا، ومخاوفنا، وإحباطاتنا، وآمالنا، وقلوبنا، وعقولنا، ونفوسنا، لفهم ما هو إلهى. وهى مكملة للوعظ الفعال، ليس لأنها تتيح التطبيقات التى يمكن أن يقوم بها العقل والقلب بل لأنها توسعهما وتعمقهما أيضاً.

إن هدف هذا الكتاب هو توضيح السبب والكيفية التى يمكن أن تُستخدم بها القصص التوضيحية فى الوعظ الكتابى. وهو هدف مزدوج:

(١) أريد المشاركة فى تقدير الطرق التى بواسطتها يمكن للاستعمال الفعال للقصص أن يصل إلى شعب الله بحقائق كلمته.

(٢) أحب حقائق كلمة الله أكثر من القصص. وشكوى زملائى الأكبر لم تكن بدون أساس. فالقصص يمكن استعمالها، بل وكثيراً ما تُستعمل لأسباب خاطئة. وإذا كان بوسع هذا الكتاب أن يقدم رأياً فى استعمال القصص بشكل صحيح وتطويرها فى الوعظ الكتابى، حينئذ، قد يكون بوسعنا أن نتفادى الاستعمالات التى تلحق الضرر برسالتنا ووعظنا، وأن نقدمها فى إطار مضمون أشد وضوحاً، وقصداً أكثر نقاءً.

إن المرة التى تحدث فيها (پول لندن) ليست فى حاجة لأن تكون لحظة سحرية. فالقوة والأمانة التى عبر بها عن كلمة الله يمكن أن تتكرر مراراً. وهذا لا يقلل من التأثير الرائع الذى أحدثته عظته. فهى تعطينا الأمل فى أن عظاتنا قد تكون على نفس القدر من الفاعلية، حينما نفهم الأدوات التوضيحية التى استخدمها على هذا النحو من البراعة.

الجزء الأول

الخلفية والنظرية:
أفكار عن القصص

الفصل الأول

الأسلوب والحجة

أزمة فى الوعظ

إن عدم الرضاء عن الوعظ انتشر فى كنائسنا. وقد بدأ التحرر من الإعجاب به يظهر منذ زمن قريب. فالشباب والكبار على حد سواء اشتكوا من الوعظ الذى يضيع فى أفكار تجريدية أو يتلاشى فى رطانة غير مفهومة، ويتجمد فى صيغ مستهلكة لا تستطيع الرقى بالإنسان، أو صياغة الإجابات التى يحتاج إليها جيل متغير. فالأفكار القليلة القيمة لا تمس حقائق الحياة السريعة، الأمر الذى لم يتعرض له الوعاظ منذ أن انتهى عصر الرقيق وجعل للمنبر هيبة واحتراماً. وبدأ الوعاظ يسألون عن الإجابات وانهمك الخبراء منهم فى الدراسة والفحص والتقييم.

وكان (كلايد ريد) قد قدّم وجهة نظر تُعبّر عن رأى المتخصصين فقال: يميل الوعاظ إلى استخدام لغة معقدة قديمة لا يفهمها الشخص العادى. بل إن معظم العظات تعد فاترة غير مثيرة. ومعظم الوعظ فى أيامنا هذه خارج عن الموضوع. كما أنه يفتقر إلى الحيوية ولا يوصل الرسالة الصحيحة. ولا يؤدى إلى تغيير فى الأشخاص. كما أنه أصبح يغالى فى التأكيد على الحقائق.

وقد تحدث (راؤول هاو) إلى أناس علمانيين، ووضع قائمة بشكاوى مماثلة قائلاً:

كثيراً ما تتضمن العظات أفكاراً معقدة عديدة. أو تحليلات أكثر من اللازم، ولا تحوى سوى إجابات قليلة. وكثيراً ما تصبح شكلية وغير موضوعية أو أنها أصبحت فكراً لاهوتياً مفرطاً فى الرطانة. أو افتراضية للغاية، ولا تحتوى على توضيحات كافية. بل إن الكثير جداً من العظات غير مؤثر، ولا تعطى أية توجيهات فيما يتعلق بالحياة.

وتستمر الأزمة، إن هذه البحوث التى تحتوى على بذور التطور، ودراسات عديدة تالية كان من شأنها أن فجرت سيلاً من الأعمال التى تدافع عن النهج القصصى فى الوعظ. أما الذين يتصرفون كالأطفال، فيبدو أنهم طُرحوا معاً إلى خارج الباب الخلفى فى هذا الاندفاع نحو إيجاد صيغ جديدة. ولسوف يحكم الزمن ما إذا كان للأساليب الجديدة قيمة تجعلها قابلة للبقاء أم لا، لكن ما هو واضح الآن فهو أنه ما من أحد راضٍ. إن رغبة الكثيرين فى إجراء التجارب بالنسبة لعمل روحى هام كهذا، تبين كيف أن الكثيرين يعتبرون وضعهم ميئوساً منه. وكل من رجال المنبر أو المستمعين يرددون قلقهم من ناحية أن الكثير من العظات ليست لها علاقة مباشرة بالحياة اليومية.

وهذا الكتاب يجادل بأن الوعاظ الذين يطورون قصصاً من واقع الحياة على نحوٍ سليم ويستخدمونها فى رسائلهم التفسيرية، فإنهم يمتلكون قوة تصحيحية كبيرة فيما يتعلق بأزمة الوعظ المعاصر. إن هذه القصص

التوضيحية تعيش ما يعيشه الناس. فهم يوصلون المعنى من خلال الخبرة العامة، وبهذا لا يسمحون للحقائق الكتابية أن تحلق فى أجواء بعيدة أو تسكن فى عالم اللاواقع، الخاص، الملىء بالصيغ المستهلكة أو المبادىء المجردة. وتتأتى الاتصالات الحقيقية من خلال هذه الوسيلة، من ثم تمتلىء العظات بالحيوية.

تعريفات

إن الوعاظ الذين يبحثون عن مواد توضيحية سرعان ما يجدون العديد من الخيارات أمامهم. لكن طابور البدائل يمكن بدوره أن يخلق أسئلة هامة عن أنماط المضمون التوضيحى الذى يناسب العظة بأفضل ما يكون، ويرتب التسلسل الآتى هذه المادة بحسب تعقيدها وتأكيدها النسبى على التفاصيل الحية (أى الوصفية):

*** تسلسل "توضيحى"**

- القصة.

- التشبيه المجازى.

- القصة الرمزية.

- التوضيحات.

- الإلماح.

- المثال.

- التشبيه.

- الاستعارة.

إن المواد التوضيحية المذكورة بعد "التوضيحات" فى هذا التسلسل تتسم بإيجازها. فالشخصيات والتشبيهات والأمثلة يمكنها أن تضيف تعبيراً رائعاً للعظة، ولكنها لا تجذب مستمعين بالدرجة التى تجذبهم بها القصص التوضيحية الحقيقية. فيمكن لاقتباس من أحد مؤلفات القديسين القدامى، أو لإحصائية من صحيفة معاصرة، أن تضيف للعظة قدراً من التشويق، لكن أياً منهما لا يوفر للمستمع فهماً ملموساً للرسالة، بشكل فعالٍ مثلما هو الحال بالنسبة للقصة التوضيحية الكاملة. وعلى صعيد آخر فإن نوعيات المادة التوضيحية التى ذُكرت فى الجدول السابق قبل "التوضحيات" عادة ما يكون لها طولاً أكثر مما يناسب العظات، وهى تعكس نوعاً من الكتابة الأدبية المثالية، لا يناسب النمط الخاص بمعظم العظات. أما النوعية التى ذُكرت فى التسلسل والتى تناسب وبشكل نموذجى الوعظ الذى يوصل للسامعين كلمة الله القوية الفعّالة، بشكل له أثره الكبير بالفعل فهو -القصة التوضيحية.

وثمة تعريف موجز للقصة التوضيحية الحقيقية فهى قصص من مواقف حياتية فى عظات تسمح تفاصيلها (سواء ذُكرت صراحة أو استُنبطت بطريق الخيال) للمستمعين التعرف على خبرة توضح، وتنمي، وتفسر المبادىء الكتابية. ومن خلال تفاصيل القصة يكون بمقدور المستمع، عن طريق التصور، أن يدخل اختباراً، يمكن فيه ملاحظة الصدق الذى تتسم به العظة. فالواعظ يتحدث عن ماهية الحدث، وزمنه، ومكانه، وسببه، كي يتيح للسامعين أن يتوصلوا شخصياً لمعرفته. وهو يشجع كل مستمع على أن يرى، ويشعر، ويتذوق، أو ملامح الحدث كما لو أنه كان موجوداً بنفسه حينما تكشفت أمور الحدث بشكل تدريجي. بعدئذ، وإلى جانب هذه التفاصيل، يشير الواعظ إلى العواطف، والأفكار، أو ردود الأفعال التى تمثل اختبار شخص عاش هذا الحدث.

إن هذه الأوصاف الحية تخلق التفاصيل المعاشة التى تميز بين القصة الحقيقية ومجرد التلميح أو المثل. والمتكلم فى كل من التلميح والمثل يشير إلى حدث، بينما نجده فى القصة الحقيقية يدعو المستمع إلى الخبرة. فالتفاصيل المعاشة تكسى القصة التوضيحية بطريقة تمكّن المستمع من دخول العالم الذى تضمنته القصة التوضيحية. وإنها لحقيقة أن المستمعين يمكنهم أن يقدموا تفاصيل من خيالهم ليختبروا مفهوماً يشير إليه الواعظ فى مثل أو تلميح. فالنوعيات لا يمكن وضعها على نحو دقيق. وما نود

قوله هو أنه فى الأمثلة والإلماحات يقدم المستمع بصفة أساسية التفاصيل المعاشة، فى حين أنه فى القصص التوضيحية الحقيقية فالواعظ هو الذى يقدمها.

وعلى ذلك، تأخذ القصص التوضيحية المستمع، ليعيش الأحداث. ففى المثل يقول الواعظ: "لاحظت.." وفى الإلماحة يقول: "هذا يذكرنى بـ..." أما فى القصة التوضيحية فهو يقول: "سوف آخذكم إلى هناك". وأساساً، حين يوضح الواعظ فهو يقول: "سوف تعرفون ما أقصده بالمقارنة بين هذا وبين ذكرى من حياتكم"، أو "عليكم أن تعيشوا معى هذا الاختبار الجديد، حتى تعرفون". وهذا يعني، أن القصص التوضيحية، مهما تم التعبير عنها بإيجاز، فإنها تعكس قصصاً من الحياة.

وسواء كانت الرواية جديدة على المستمع أو تم تخمينها من الذاكرة فإن الواعظ يعيد لفظياً شريحة من الحياة تحدد أفكار العظة.

وجهة نظر تاريخية

لن يكون من الصواب القول إن جيلنا هو أول جيل يكتشف قيمة استخدام القصص التوضيحية فى الوعظ. وما علينا سوى أن نلقى نظرة خاطفة على أفضل وعظ لكل حقبة معينة من تاريخ الكنيسة حتى تتبين لنا قيمة القصص التوضيحية. وباستثناءات نادرة، نجد أن أكثر الوعظ

تقديراً كان وبصفة دائمة يعتمد على الرؤية الروحية.

ولو لم يؤكد الرسول بولس أقواله بصور سلاح الله الكامل، والركض في السباق، ومذبح الإله المجهول، لوجدنا صعوبة فى تذكر تعليمه. ولو لم يعلّق (چوناثان إدواردز) عناكب خاطئة فوق حفرة اللهب ما عرف أحد كتابه "خطاة فى أيدى إله غاضب". ولو لم يصرخ (وليم چنجيز برايان) منتقداً بكل عنف: "لن تصلبوا البشرية على صليب من ذهب"، لنُسيت عظته السياسية فى اليوم التالى. ولو لم يقودنا (مارتن لوثر) من خلال "حلم" إلى "قمة جبل" لكانت المسيرة إلى واشنطون قد أصبحت نزهة طويلة مرهقة سيراً على الأقدام عبر متنزه رائع ولا شىء أكثر من ذلك.

ولقد امتدحت الكتب مناشدات (تشارلز سبرجن) وصور (بيتر مارشال)، وأوصاف (كلوفيس تشابل) والدراما الإنسانية (لهارى إمرسون فوسديك). وما من أحد من هؤلاء الرجال، الذين ينتمون إلى رؤى لاهوتية متباينة جداً، قام بالوعظ فى أوقات كانت تسيطر عليها الإلكيترونيات البصرية، ومع ذلك، زينوا عظاتهم بصور توضيحية قوية كانت لها نتائج قوية. وقبل عصرنا الحاضر الذى يُوصف بأنه "عصر المعرفة البصرية"، كان هؤلاء الوعاظ العمالقة قد وضعوا شيئاً عميقاً وأساسياً فى الفهم البشرى. وقد شرعنا الآن فحسب أن نكتشف فى إطار علمى ما هو هذا الشىء الأساسى؟

تحامل مستتر:

إن الكثير من الدراسات الحديثة تدعم استخدام القصص والصور التوضيحية فى الوعظ، وذلك بالاستشهاد بالتقليد الطويل الخاص باستعمالها. والتأمل المعاصر فى الهيكل القصصى للأسفار المقدسة أفرز فيضاً من الكتب والمقالات التى تساند استخدام القصص فى العظات. وهناك أعمال أخرى تستكشف دور سرد القصص والتوضيحات فى أنماط وعظ متباينة لإثبات أن استعمالها ليس بالأمر الجديد أو الضار. ومما يُؤسف له، أن هذا اللجوء إلى أعمال سابقة يدعم بقوة تحيزاً مستتراً بأن هذه الأساليب تشكل صيغ الوعظ للأميين، وغير المتعلمين، أو للثقافات الشعبية، وعلى هذا فقد أصبحت غير مناسبة لجماهير اليوم من المثقفين!

وكثيراً ما تصف كتب الوعظ التقليدية فى القرن العشرين، القصص التوضيحية بأنها بدائية أو أولية. ويعكس (هنرى جرادى دافيز) هذا الموقف فى كتابه "خطة للوعظ"، وهو أكثر كتب الوعظ المستعملة على نطاق واسع إبان المئة سنة الماضية.

"ويُجادل أيضاً بأن القصة التوضيحية أمر ضرورى لإضفاء عنصر التشويق، ولكى تعطى اللمسة الإنسانية، ولتجعل الرسالة مناسبة لمواقف إنسانية واقعية. والإجابة لا تتغير. ما الذى يلمح إليه هذا فيما يخص

البناء الفكرى قبل القصة وبعدها ؟... وإذا كان لدى الواعظ شيء مناسب ليقوله، وإذا كان نسيج فكره يشكل لحمة لتفاصيل على سداة من التعميمات الواضحة، فلن تحتاج عظته إلى زخرفة متكلفة لكى تكون مشوقة.

ويُقال أيضاً إن هناك حاجة للقصص التوضيحية لإيجاد فترات راحة للمستمعين أثناء العظة. وهذا -فى رأيى- أكثر الادعاءات صحة، ومع ذلك فالقول بأنها ضرورية للعظة المعاصرة، يُعد حجة مشكوك فى صحتها".

لقد كانت القصة التوضيحية، فيما مضى تشكل زخرفة شعبية ولم تكن عنصراً ضرورياً للوعظ الممتاز. والواقع أن تحذيراته واشتراطاته تشجب القصص التوضيحية، وتستبعدها من الوعظ الجيد.

وهناك نصوص تقليدية أخرى تنتمى إلى نفس القرن تجدها أقل من (داڤيز) بغضاً للقصص التوضيحية، ومع ذلك فهى تعكس تحيزه. ويخصص (چون برودوس) ثلاث عشرة صفحة بالتمام للقصص التوضيحية فى كتابه الضخم "إعداد العظات وإلقاؤها"- أما الصفحتان الأخيرتان من الفصل فتضمنتا تحذيرات. لكن الذى له مغزاه بالأكثر، فهو أنه يبدأ مناقشته بهذا المديح:

"وإذا تكلمنا بشكل محدد وقاطع، فلن نقول إن القصص التوضيحية

تشكل عنصراً مميزاً فى العظة يتناسق مع الشرح والحجة، أو مع الإقناع، الأمر الذى سندرسه فى الفصل التالى. فوظيفتها هى وظيفة إضافية فحسب، تساند أحياناً هذا الجزء أو ذاك من العناصر الأساسية".

إن مثل هذه المقدمة من الصعب أن تتولد عنها اعتبارات مهمة للموضوع. فالقصص التوضيحية لا تلقى استحساناً إلى حد ما فى كتاب (إليون.ت. جونز) الذى لايزال يلقى رواجاً وعنوانه "مبادىء الوعظ وممارسته". والفصل الذى كتبه عن وسائل الإيضاح -وهو قصير نسبياً- يبدأ بقوله: "إن القصص التوضيحية ضرورية بسبب الطريقة التى يعمل بها ذهن الإنسان، وهذه البداية الواعدة تجعل السطور التالية أكثر مدعاة لليأس".

"تفتقر الأقوال المجردة عن الحقيقة والتى تجىء بمعزل عن الخبرات العملية إلى القدرة على إقناع ذوى العقول العادية... ويمكن القول إن السواد الأعظم من الناس لا يفكرون -ولا هم مستعدون للتفكير- فى صيغ دقيقة ثم التعبير عنها بعناية".

ولدى (جونز) آراؤه الممتازة بالنسبة لاستخدام القصص التصويرية، لكنه لا يعتبرها "ضرورية" سوى لأن الوعاظ ينبغى أن يتكيفوا مع الناس الذين هم من أصحاب العقول العادية، الذين ليس لديهم استعداد للتفكير، لكن تبقى القصة التوضيحية أمراً غير مقبول.

وما زالت معظم الكتب الحديثة تصف القصص التوضيحية بأنها من الوسائل المساعدة للوعظ، على الرغم من أن البعض -وبصفة استثنائية- يقدمون رأياً قيماً بالنسبة لاستعمالها.

الملوثات

ثمة أسباب قوية للحذر. فعلى الرغم من أن تسويق وسائل الإيضاح أمر قديم يعود تاريخه إلى العصور الوسطى، إلا أنه لم يجد أحد وسيلة للسيطرة على الهوس الذى كثيراً ما كان يصاحبها. فحيثما وجدت الصور التوضيحية وُجد من يروّجون لها، وحيثما وُجد المروّجون وُجد المشعوذون. فعلى سبيل المثال، يسجل (رالف لويس) أراء أحد الوعاظ المعاصرين الذين قفز على المنبر وامتطاه وكأنه جمل سائر فى طريق خيالى يبلغ طوله ثمانمائة ميل فى الكثبان الرملية فى الصحراء، حيث كان يقلد ما فعله أليعازر حين ذهب ليبحث عن عروس لإسحق.

إن مثل هذا السلوك القديم ليس جديداً- ولا يُعد مبالغاً فيه. ولقد سجلت (كاثرين ريجان) حالات، من العصور الوسطى لراهب أحاط منبره، بأجساد متحللة لإحداث تأثير تصويرى، ولراهب آخر كان يخرج من تحت عباءته جمجمة كالساحر. وقد يبدو أنه ليس من الضرورى أن نؤكد على أن سوء الاستخدام لا يجب أن يستبعد استعمالها، لأن مبالغات الماضى

المفرطة، لا يتوجب السخرية منها أو تقليدها كى تعطى قيمة للقصص الإيضاحية فى أيامنا هذه. غير أنه فى الخدمة، حيث تكون أمانة المتكلمين ونقاء الرسالات لها أهمية قصوى، تؤثر فى أخطاء الماضى وفى الفكر الحاضر بشكلٍ كبير.

ومن أجل أفضل الأهداف قد يعمد الوعاظ أن ينأوا بأنفسهم عن أى مظهر يشير إلى تبسيط رسالة ما حتى لا يبدو أنه كان هناك ثمة تهاون فى تقديم الحقيقة، كى يلاقوا قبولاً. وعلى أى حال فقد حث الرسول بولس على أنه لا يجب أن يكون الوعظ "بكلام الحكمة الإنسانية" (١كو ٢: ٤)، أو "كلام تملق" (١تس ٢: ٥)، أو بحكمة "من هذا الدهر" (١كو ٢: ٦). ولا ريب فى أن هذه الوصايا الرسولية قد حرّمت استخدام وسائل الكلام التى نُظر إليها على أنها مجرد تنميق للكلام فحسب. إن الرعاة الأتقياء تراهم مهتمين بألا يفسد الوعظ الكتابى بواسطة حكمة دنيوية. ومما يُؤسف له،أن مثل هذه الاهتمامات كثيراً ما تُؤخذ على أنها تعنى أن أية رسالة تلقى استحساناً من السامعين، أو تُفهم بسهولة، لابد وأن يعتريها خطأ ما. وهذه الموضوعات المتعلقة بالفكر قد تبدو سخيفة لغير الرعاة، ولكنها لابد وأن تؤثر فى كل راعٍ ذى ضمير، يفضل الفشل عن التلاعب.

وفضلاً عن احتمال التلاعب بالسامعين، فإن استخدام أدوات الإيضاح كان من شأنه أحياناً أن يثير الشكوك لميلها إلى الخشونة فى التعامل مع

الحقيقة، فعلى سبيل المثال، أكد مفسرو العصور الوسطى أن مجموعة من المعاني المجازية، تشكل أساساً لكل نص كتابي. لكن التفسير الحرفي، القائم على مفاهيم لغوية وتاريخية، فكان يُنظر إليه على أنه مُبسط جداً. أما السُبل التي كانت تُعد أكثر فائدة فتمثلت في تلك التي حاولت كشف المعاني الروحية المستترة خلف المعنى البسيط لكل قول أو نص كتابي.

إن قصد الكاتب لم يكن على نفس القدر من الأهمية التي للأسلوب المجازي في تحديد ما يعنيه النص. فتراكم التشبيهات أدت إلى تفسيرات متهورة لم تترك للكنيسة سوى مرتكزات قليلة بالنظر إلى أن النص يمكن أن يعني أي شيء يحدده الخيال الخصب. ولقد تمرد المصلحون البروتستانت في القرنين السادس عشر والسابع عشر ضد هذا النهج التفسيري، كما فعل أغسطينوس قبل ذلك بعدة قرون (من الناحية النظرية أكثر مما هو الحال من الناحية العملية) في الكاثوليكية الأولى، وكما فعل الكاثوليك المحدثون ثانية، في القرنين التاسع عشر والعشرين.

إن الجهد الذي تواصل لقرونٍ بغية تخليص الكنيسة من غموض التفسيرات المجازية انتهى إلى شك مستتر بالنسبة لكل التشبيهات المجازية، بما في ذلك القصص التوضيحية. ويتعين على الوعاظ أن يعوا هذه الخلفية لكي يستعملوا القصص التوضيحية بذكاء، وبحسب ما قاله رالف لويس:

"ظل التشبيه المجازى مسعوراً لعدة قرون، وابتليت الكنيسة بمبالغات متهورة. وانزلق التشبيه الكتابى إلى أعماق ضد الفعل حين ترك الوعاظ العنان لخيالهم دونما قيد، أو منطق، أو مسئولية!.....

لقد أدت هذه المبالغات إلى مبدأ التفسير الأساسى الذى ينتهجه المصلحون، والذى يصرّ على أنه ليس لكل فقرة فى الكتاب المقدس سوى معنى واحد. وقد تزعم (چون كالفن) الحملة ضد التشبيهات المجازية. كما قال (لوثر) أيضاً: "إن تشبيهات أوريجان لا تساوى شيئاً".

واستمر الصراع فى الكنيسة.. وإنها لحقيقة أن حرية توسيع المعنى أصبحت رخصة لتشويه الحقيقة بخيال خادع، وأوهام. ومع ذلك توحى النماذج الكتابية أنه يجب أن يكون هناك استخدام صحيح للتشبيه. وفى حين أن سجل الخدمة يؤكد ضرورة الحذر من هذا الأسلوب، فالتشبيه يمكن أن يكون مقوماً آخر للعظات يتسم بالفعالية وقوة التأثير.

اكتشافات الرواد

يمكننا أن نشكر من أجل أن ثلاثة سبل حديثة للوعظ قد شجّعت دعم استخدام القصص التوضيحية بإبراز أهمية الربط بين الفهم والخبرة. وكل جهد بذله أحد الرواد كان يشكل بوضوح دوراً أساسياً للقصص التوضيحية.

الوعظ الاستقرائى:

إن المدرسة الأولى هى مدرسة الوعظ الاستقرائى. والعظة الاستقرائية تركز على مشاكل إنسانية معينة، ومشاكل شخصية، أو اهتمامات عامة، تساعد المستمعين على اكتشاف الحقائق الكتابية. وعلى العكس من العظة الاستنتاجية التى تحاول إثبات مبادىء عقيدية، قبل أن تعمل تطبيقات معينة. وتبدأ الرسائل الاستقرائية بالحاجة الإنسانية. وتحاول العظة وتقسيماتها الرئيسية -بشكل نمطى- أن تؤدى إلى نتائج على مستوى شخصى بدلاً من إثبات مبادىء عامة. وتأخذ التفاصيل الأولوية على الافتراضات، فالمصلحة والعلاقة توجهان الرسالة فيما تتكشف الإجابات العقيدية. وفيما يسود البرهان المنطقى والحجة التفسيرية العظة الاستدلالية (الاستنتاجية) التقليدية، نجد أن الاهتمامات الشخصية، وخبرات واقع الحياة تسود النهج الاستقرائى.

وهناك عملان معروفان يتناولان الوعظ الاستقرائى، أولهما كتاب (فريد كرادوك) "كواحد بدون سلطان"، والثانى كتاب (رالف لويس) وعنوانه "الوعظ الاستقرائى" الذى اشترك فى تأليفه مع (جزريح لويس الابن). وعلى الرغم من أنهما جاءا بمنظورين مختلفين من ناحية الفكر اللاهوتى، إلا أن كلا الكاتبين ينتهى إلى أن الكتاب المقدس يولى اهتماماً بالشخصيات والتفاصيل بأكثر مما يوليه للافتراضات والمبادىء.

وكل من الكاتبين يتساءل ما إذا كان الوعظ الغربى التقليدى يعكس بصفة دائمة هذا النموذج والفكر الكتابى، ويتساءل لويس قائلاً:

"هل ممارستنا الطويلة للنهج الاستدلالى يمكن أن تشكل جزءاً من مشكلتنا من ناحية تواجده فى وعظنا هذه الأيام؟ هل يمكن للاستقراء أن يصبح إسهاماً فى الشعور الذى يحس به الكثيرون من العلمانيين بأن العظات تميل إلى أن تبعد عن الواقع؟ وهل يمكن لإعادة التفكير فى هيكل العظة أن ينجم عنه أى عون أو رجاء؟

... إن الوعظ الاستقرائى بوسعه أن يحقق ذلك، من ثم ما الذى حملنا على أن نتجاهل إمكانية الهيكل الاستقرائى ومنطقه فى عظاتنا؟

ويبدأ الاستقراء بوقائع الخبرة المستمدة من الحياة، ويشير إلى المبادىء والمفاهيم والاستنتاجات. ويمكن أن يأتى من احتياجات السامعين وليس من شكل الواعظ. ويسعى الواعظ إلى أن يقود بدلاً من أن يحفز. وهو يستكشف مع الناس قبل أن يشرح ما يجدون. فالوعظ الاستقرائى هو سعى للاكتشاف. وبمقدوره أن يرضى الناس، ويثير اهتمامهم، ويشركهم فى الاكتشاف. ويفيدهم سيكولوچياً فيما يتعلق بالتعلم عن طريق الممارسة.

وبعبارة أخرى، يربط الوعظ الاستقرائى بين فعالية العظة وما تتضمنه من أمور مرتبطة بواقع الحياة.

لكن الوعظ الاستقرائي يواجه مشكلتين. الأولى هى موضوع السلطة. فبالنظر إلى أن العملية الاستقرائية تؤكد موضوعات ليست مأخوذة بصفة مباشرة من صفحات الكتاب المقدس، فمن ثم تثير شبهات لتلك التى عرضنا لها سابقاً. بل والأسوأ من ذلك أنه فيما تحاول القصص التوضيحية أن تلقى الضوء على التفسير، فإن النهج الاستقرائي ينفى (أو على الأقل يعطل) الاستنتاجات القائمة على الإعلان الإلهى. وهذا ما لا يستقر فى الأوساط الإنجيلية.

أما المشكلة الثانية فتتمثل فى الجمود -أى مقاومة التغيير- وفيما يجادل (لويس) أن أفضل وعظ على مر التاريخ هو الوعظ الاستقرائى، إلا أنه مدفوع بقوة للبحث عن أمثلة، وهو يقدم بصفة رئيسية أمثلة لأولئك الوعاظ الذين يستعملون القصص التوضيحية فى صيغ العظات التقليدية. وكل من (كرادوك) و (لويس) يعترفان أنه من غير المحتمل بصفة عامة أن يتبنى الوعظ الغربى النهج الاستقرائى فى أى وقت قريب. وأفضل ما يمكنهما أن يأملا فيه هو أن يكمل نهجهما، السبل التقليدية. فصيغ الوعظ الأكثر قدماً لا يمكن التغلب عليها بسهولة، وإذا أخذنا فى الاعتبار فائدتها على مدى ألفى سنة، فقد يكون هذا صحيحاً. فمؤيدو الوعظ الاستقرائى، ربما كانوا قد أكسبوا قضيتهم قوة، إذا ما كانوا قد استهدفوا رفع عناصر العظات التقليدية التى تؤثر فى السامعين بدلاً من

خلق نمط مختلف للوعظ.

الوعظ القصصي:

وثمة نهج آخر يستخدم القصة فى الوعظ، ينتفع من البحث المزدهر فى النظرية القصصية. وقد كتب (كرادوك) قائلاً:

"إن ما يُشار إليه فى الوعظ الجيد على أنه قصص، ما هو إلا قصص أو حكايات لا توضح النقطة الأساسية، بل هى النقطة الأساسية. وبتعبير آخر، قد تحمل القصة فى متنها الرسالة كلها، وليس توضيحاً للرسالة التى سبق أن سُردت بطريقة أخرى، لكنها أقل وضوحاً.

وإذا كانت القصص، كما يقول كثيرون الآن، هى حكايات فى شكل تفصيلى، فيمكن لنظرية القصة والحال هذه أن تساعدنا فى تحديد الطريق الذى يصل به المعنى بكل كفاءة وعمق.

فهى تفترض أن أفضل القيم الأساسية لمجتمع ما تُحزن وتُنقل وتُوصل إلى الناس من خلال القصص. ولقد اكتشف الباحثون أن أكثر التعبيرات بساطة لها تقريباً احتمالات تفسيرية كثيرة، تقوم على أساس التحديدات المتباينة والفروق الضئيلة والسياقات، والأهداف التى يمكن أن تتسم بها كل كلمة. ولكى يكون للكلمات معنى بالنسبة لأكثر من شخص، لابد وأن تنشأ من سياقات الخبرات المشتركة. وتوفر القصص مثل هذه

السياقات. والقصص الخاصة بمجتمع ما، هى القواميس التى تحدد الكلمات بواسطة خبرات يعرفها كل شخص. وهكذا، تمكن القصص المشتركة الأشخاص من أن يفكروا ويعملوا فى إطار مشترك.

إن نظرية القصة كثيراً ما تكتشف السبل التى يمكن من خلالها أن تساعدنا القصص الدينية على أن نفسر ونفهم ونشارك فى الحقائق الدينية بشكل أفضل. ومما يُؤسف له، أن قلة من هذه الدراسات تقدم لنا مرشداً واقعياً عن الكيفية التى يمكن من خلالها أن تساعد مبادىء القصة، غير الواضحة، فى توصيل الحقائق الدينية فى أيامنا هذه. ويشعر الإنسان أن أصحاب نظرية القصة لديهم منظور وحيد بالنسبة للوعظ قد يهز الأفكار والنماذج التقليدية، بالنسبة للكيفية التى يتعين أن تتغير بها عظة الأحد. ومع ذلك، إذا ما كان أصحاب هذه النظرية على صواب، فإن التوضيحات التى تتأتى على شكل قصص، تكون لها قوة غير عادية على توصيل الأفكار. إن الاحتياج هو تحديد كيفية استخدامها.

الوعظ على أساس مواقف حياتية:

تجعل القصص العظات مفهومة ومترابطة. وهذا يأتى بنا إلى مدرسة الفكر الثالثة التى تؤكد قيمة القصص، الوعظ القائم على وقائع الحياة. وكان (هارولد و. رووب) قائد هذا الاتجاه فى الثلاثينيات والأربعينيات،

واكتسب شعبية على يد (تشارلز ف. كيمب) فى الخمسينيات والستينيات، ونشط فى الثمانينيات على يد (لويد. م. بيرى) و (تشارلز سيل). ويكافح الوعظ على أساس مواقف الحياة أن يصل إلى جوهر المحنة فى الحياة الشخصية الحديثة.

إن الذين يتبنون العظات القائمة على مواقف حياتية يدركون أنه حين "يُوجه الوعظ إلى أناس فى مواقف ما واحتياجات معينة"، تكون الرسائل أكثر صلة، وقوة، ونفع. وتحديد (روبرت ماك كراكين) للوعظ القائم على مواقف حياتية يوضح التأكيد التالى:

"وإذ كان الهدف تجنب البعد وعدم الصلة باهتمامات المستمعين، ناهيك عن عدم واقعية كثير من التفسير الكتابى، ولذلك يبدأ هذا النهج بالناس بحسب واقعهم، الأمر الذى كان الرب يسوع يعمله مراراً وتكراراً. وتكون نقطة الانطلاق موضوعاً حياتياً. قد يكون شخصياً أو اجتماعياً، وقد يكون فكراً لاهوتياً أو أخلاقياً. وأياً كان الأمر، يعرف الواعظ أن مهمته هى الوصول إلى جوهر المشكلة، وإذا ما تم له ذلك، ينتقل لإيجاد الحل، حيث يكون الإعلان الإلهى الكتابى، وفكر المسيح وروحه، هما المرجعية والتوجيه له".

ويقدم تعريف الوعظ -الذى يستند على مواقف حياتية- مميزات تفيد

أيضاً فى تحديد نمط واحد من القصص التوضيحية. وعلى الرغم من عدم وجود تعريف معيارى عن ماهية "القصة القائمة على موقف حياتى" إلا أن الفلسفة الكامنة وراء هذا النهج توحى ببعض الاحتمالات. فالقصص القائمة على مواقف حياتية قد تكون تلك التى تعكس مشاكل حقيقية، والعواطف المشتركة التى يلمسها الأشخاص العاديون فيما يسعون لتطبيق المبادىء الكتابية على خبراتهم المشتركة أو غير العادية.

وفى سياقات أخرى، قد تُعرف مثل هذه القصص على أنها "روايات عن اهتمامات الإنسان"، وربما يرى الوعاظ قيمتها. إن القصة القائمة على موقف حياتى والتى تتحدث عن أشخاص يطبقون الحقائق الكتابية على ظروف سائدة فى هذه الحياة بالفعل تقوم بعرض هذه الحقائق فى إطار من الواقعية والعلاقية والسهولة. والانتقاد بأنها غير ذات موضوع يبدو غير صحيح. فالحق يُبعد عن العالم غير المادى الخاص بالعقيدة النظرية. وتصبح الأسفار الكتابية واقعية، سهلة الفهم، وذات معنى، لأن رسالتها تتأصل فى حياة واقعية.

والاهتمام الأساسى لهذا النهج هو أنه ضعيف من ناحية شرح الكتاب المقدس. فالعظة تدور حول الموقف الحياتى، ومهما كان ما يُقال عن الكتاب المقدس كثيراً ما يكون خارجاً عن موضوع الرسالة وليس عن جوهرها الأساسى. والنهج الذى تم الدفاع عنه فى هذا الكتاب يرغب في

دمج المواقف الحيايتة بتفسير كلمة الله.

نظرية موحِّدة:

تُصنف هذه المدارس الوعظية الحديثة الثلاث تحت تقليد أكثر قدماً – قصة– ويشير إلى قوة هذه الأداة. فخيوط الفكر المتباينة تنسج نموذجاً متماسكاً، فالفهم يتطلب الخبرة، وهذا قول مأثور سوف نتناوله بدقة أكثر في الفصل الثالث. وهذا الافتراض الجوهرى الذى يشكل أساس هذه المدارس يشير إلى أن القصص التوضيحية قد تكون مفتاح تناول اهتماماتهم، فى الوقت ذاته تتناول عدم فعالية الكثير من الوعظ المعاصر. وبعبارة أخرى، فالقصص التى تتناول مواقف حياتية بوسعها إعادة تنشيط الصيغ التقليدية، دون أن تشكل تحدياً لها، وبهذا، تتجنب العداوة والجمود، الذى واجهته الأساليب الأكثر ثورية.

توضيح ختامى

أخبرنى مرسل إلى أوغندا منذ عهد قريب كيف أنه بدأ يعرف أن ما يُشجب كثيراً لسوءه، لا يجب إنكار فائدته. فقد دُعيت زوجته إلى قرية ريفية للعزف على البيانو أثناء خدمة تعبدية. وفيما كانت مسافرة إلى هذه الكنيسة النائية، هطلت الأمطار الغزيرة على القرية وعلى المكان الذى أقامه الناس هناك لخدمة الصلاة. وغطت المياه البيانو تماماً حتى إنه

لم يعد صالحاً للعزف، وصحح القرويون الوضع بأن كانوا يصاحبون الترانيم أثناء العبادة ببعض آلاتهم التقليدية المصنوعة من عظام ظهر السلحفاة. وبعد انتهاء الخدمة اعتذر أحد شيوخ الكنيسة بشدة لزوجته لاستخدام شعبه آلات قبلية إبان مشاركتهم فى الترانيم. وقد ارتبكت زوجته لخجلها وسألته عن سبب اعتذاره لاستخدام آلات أضافت مسحة رائعة على العبادة الغريبة على شعبه. فقال الشيخ متسائلاً: "ألا تعرفين أن شعبى كانوا يستعملون أدوات مصنوعة من عظام ظهر السلحفاة فى طقوس خاصة بعبادة الشيطان، فرد المرسل وهو يبتسم: "كان يجب عليك أن ترى كيف أن شعبى كانوا أحياناً يستخدمون البيانو".

وإذا تذكرنا ببساطة أن إمكانية أن تُستعمل آلة لأغراض خاطئة لا يجعل الآلة نفسها معيبة، فإن ذلك سيقلل من القلق الخاص باستعمال القصص التوضيحية فى الوعظ الكتابى.

ومازال هناك أمران مشروعان يشكلان موضع قلق وتوتر. الأول مفاده أن المضمون الكتابى للعظة قد يضعف بالتأكيد على مادة غير كتابية يتعمق فيها الوعاظ الذين يستخدمون القصص فى عظاتهم. أما الأمر الثانى فهو أن العظات التى يكون التفسير أهم أولوياتها قد تكون جافة بالنسبة لشعب الكنيسة إذا خلت من مزايا التواصل التى تتمتع بها القصص التوضيحية. فالتخوف الأول هو أن الحق الكتابى لن يُسمع مع

القصص. والأمر الثانى الذى هو موضع قلق هو أن الحق الكتابى لا يمكن أن يُسمع بدون قصص. وقد نشر عديد من المفكرين هذه المناقشة، لكنها لن تتوقف، حتى يقدم أحدهم الدليل المقنع على أن استخدام القصص لا يشوه أو ينتقص من قدر الحق الإلهى، الأمر الذى خُصص هذا الكتاب لمعالجته.

الفصل الثاني

طريق الكتاب المقدس

إن على الوعاظ، أكثر من غيرهم، أن يعرفوا أن الخبرة تعلّم وتحرك وتحفز، بأكثر مما تفعله أقوال التعليم المجردة. وكما سنرى فى هذا الفصل، فتوصيل الروح للحق، ليس ذا بُعد واحد، ولا يجب أن يكون هكذا الوعظ الذى يضفى عليه الروح قوة. إنها لحقيقة أن الإنجيل يتسم بالمنطق، لكنه أيضاً روحى وعميق ومؤثر. وهو يدعو المؤمنين للعبادة من كل القلب والنفس ومن كل الفكر أيضاً (تث ٦:٥، مت ٢٢:٣٧).

التأثير فى القلب:

لا يعتمد أفضل أنواع الوعظ على النواحى الفكرية وحدها، لأن القلب يعلم أننا أكثر من مجرد كائنات تعقل بل يجب أن يؤثر الوعظ فى القلب "لأن منه مخارج الحياة" (أم ٤:٢٣). فالعواطف التى تعمل بمعزل عن الفكر، تُعد خطيرة، لكن العقلانية المجردة من المحبة والتعقل بل وحتى الغضب المقدس، هى أمر مناقض للتقوى. وقد خلق الله فينا العواطف، كى تساعدنا على تفسير حياتنا، وعالمنا وكلمته. ولو كانت القداسة، هى مجرد الذكاء العقلى، لأصبحت الحاسبات الإلكترونية مقدسة.

إن التأثير فى القلب ليس مجرد استغلال ضعفات المستمعين، فتوصيل رسالة الإنجيل بشكل شامل يجب أن تقوم على أساس مفهوم كتابى صحيح لطبيعة البشر. كتب (وين أوتيس) أستاذ السلوك النفسى بكلية

الطب جامعة (لويڤيل) قائلاً:

"إن المفهوم الكتابى للشخصية مفهوم يتجه إلى القداسة. وقد ذكر الرب يسوع الوصية العظمى والأولى: "اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد. فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك". إن الكلمة اليونانية التى تُرجمت "كل" تكررت أربع مرات فى الفقرة. ونهجى فى فهم الشخصية الإنسانية هو تأكيد الوحدة والشمولية، وليس تقسيم الشخصية إلى "ملكات" منفصلة. وحين يحب الشخص بكل فكره، معناه أن كيانه كله منخرط فى ذلك، وليس جزءاً واحداً فقط من الشخصية. وعلى ذلك، حين نعظ عن الاحتياجات العاطفية لمستمعينا، فنحن نخاطبهم ككائنات كاملة وليس كمجرد "مجموعة من المشاعر".

بل إن مفسراً منهجياً مثل (چاى آدمز) يقول:

"إن اختبارك لحدث فى الوعظ، هو أن تدخل إلى ذلك الحدث بشكل كامل حتى يتم الإحساس بالعواطف المناسبة لهذا الحدث، كما لو أن الإنسان كان قد مر بالفعل فى هذا الحدث. وحين يقول الواعظ ما يرويه بطريقة تحفز حاسة أو أكثر من الحواس الخمس، فإنه بهذا يفجر العاطفة، وهنا يمكن القول بأن المستمع قد "اختبر" الحدث. وبهذه الطريقة، يصبح الحدث "حقيقياً" بالنسبة له، وهذا معناه أنه أصبح واقعاً ملموساً أو تم

إضفاء الطابع الشخصى عليه، وأصبح له ذكر، وأصبح مفهوماً، بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

وتخاطب القصص التى تتعامل مع العواطف، الناس بنفس طريقة الكتاب المقدس. فالقصص التى تشرك الشخص كله فى عملية الفهم، فإنها أبعد من أن تكون غير عقلانية أو غير أخلاقية، بل إنها تعمل بطريقة تتمشى مع المفهوم الكتابى عن طبيعتنا المعقدة. أما الأسئلة التى من قبيل: "ماذا يعنى هذا لى -وكيف أكون أنا- وكيف يكون عالمي- أن أتأثر بهذا ؟". فجزء من الإجابة عنها يرتبط بعواطفنا. فمشاعرنا تساعد فى أن توضح لنا (ولأولئك الذين نعبر لهم بها) تأثير ما نواجهه من حقائق وأحداث وأشخاص. والقصص التى تستأثر بهذه المشاعر توصل لنا ما يقوله الكتاب المقدس فى إطار يعكس الحقيقة بأكثر مما يعكس اللاعقلانية.

يخشى الواعظ أحياناً من استخدام القصص بسبب جوانبها الانفعالية. وحين توسع القصص الأبعاد العاطفية للعظة. قد نتساءل ما إذا كان يمكن أن يُحتوى الحق بحرص. ذلك أن الخوف من النزعة العاطفية (أى سيادة العواطف على العقلانية) له أساس منطقى. وكثيرون من المؤمنين يقعون فى الخطية بإطاعة عواطفهم التى لا تتمشى مع مبادىء الكتاب. غير أنه ليس بالضرورة أن تكون العواطف هى النقيض من العقلانية.

والواقع، أنه ليس من المعقول فى ألا نتأثر بموضوعات لها أهمية حيوية بالنسبة لحياتنا ونفوسنا. وليس ثمة معنى فى ألاّ نشعر بشيء فى حالة المحبة، والكراهية، والألم، والحزن، والفرح، والغضب، أو اليأس. فعدم السيطرة على العواطف أمر خاطيء، أما وألا نختبر العواطف فهذا خطأ أيضاً.

وإذا لم تزدد عواطفنا عند قراءة تسبحة العذراء مريم، لا نكون والحال هذه قد أولينا التجسد حق قدره. والقلب الذى لا يتمزق لصراخ المسيح بصوت عظيم: "إلهى إلهى لماذا تركتنى" لا يكون بحق قد فهم الصلب. وينبغى أن يسهم كل من القلب والعقل فى فهمنا المعرفة الصادقة. فالكتاب المقدس يعكس الحقيقة، وهذا ما ينبغى أن تكون عليه العظات. لكن نبذ القصص التوضيحية لأنها تناشد العواطف معناه إهمال طريق للفهم يتبناه الكتاب المقدس نفسه ويتبعه.

استمالة الإرادة

حين تثير القصص التصويرية العواطف، فهى تعمل أكثر من تمرير المعلومات. إذ تثير الاستجابة لاتخاذ القرار، وتؤثر على إرادتنا. ونحن لا نتخذ القرار على أساس ما نعرفه فقط، بل نتخذ قرارنا أيضاً بسبب الكيفية التى نشعر بها بالنسبة لما نعرفه. وتعرف القصص التوضيحية

هذا وتستخدمه. وكثيراً ما تكون التحفيزات التى تُوجه لنا كى نتصرف على أساس كلمة الله، أفضل صياغة لها تلك التى تتم بالأسلوب العلمى والمعرفة التى تتضمنها القصة. وحين نصبح على إدراك عقلى بما تومىء به عواطفنا، فمن الضرورى أن ينجم عن ذلك اتخاذ القرار. وقد نختار أن نتصرف على هدى عواطفنا، أو نتجاهلها، لكن أياً من النهجين ما هو إلا عمل من أعمال الإرادة.

وعلى ذلك، فإن القصص التوضيحية تُعد أبواباً يفتحها الوعاظ، لتتيح للمستمعين اختبار مفهوم ما، وإذ يختبرونه، يفهمونه، ويتفاعلون معه، ويتصرفون على هديه. فالقصص التى تُشرك المستمعين فى اختبارات مواقف حياتية، تعبر عن الحقائق بطريقة نجد معها أن الفهم والعواطف والقرارات قد أُثيرت معاً، وبكل قوة. والوعاظ الذين يؤثرون فى المستمعين بواسطة هذه الوسيلة يقوون من قدرتهم على التوصيل، ويزيدون الفهم، ويدعمون التغيير الروحى.

وبناء على ذلك، فبدلاً من طلب ترك العقل، الأمر الذى اقترحته بعض نظريات الوعظ التى نُوقشت فى الفصل السابق، فإن القصص ذات المضمون العاطفى تجبر الذهن على العمل. وحين يثير الواعظ العواطف من خلال تمكين الشخص من اختيار موقف حياتى من خلال القصة، وفى ذات الوقت، يقدم تعليماً سليماً، هنا تكون العقلانية والتصميم قد اتحدا

كوكلاء أقوياء للتغيير فى المستمعين.

نموذج الكتاب المقدس

إن الربط بين المفاهيم النظرية والخبرة لأمر حيوى، لأنه لا التعليم، ولا توصيل المعرفة يتم فى عزلة عن الآخر. ونحن نعرف شيئاً جديداً عن طريق اكتشاف كيفية صلته بما سبق أن تعلمناه من الخبرة، وكلما كانت العلاقات أوضح، زادت دقة ما نفهمه. والقصص التوضيحية تشكل هذه العلاقات بدعوتنا إلى عقد المقارنات بالنسبة لاختباراتنا، أو إدراك اختبارات الآخرين من خلال قصة.

ولا ريب فى أن هذا هو السبب أن الروح القدس يملأ الكتاب المقدس بأحداث قصصية، وصور شعرية، ورموز. وإذا ما أبعدنا هذه المكونات القصصية فلسوف يتبقى جزء قليل. ويوجز (أليستر ماكجراث) هذه النقطة مؤكداً بقوله: "القصة هى النمط الأدبى الرئيسى فى الكتاب المقدس. بل إن البعض، فى الواقع قالوا إنها الشكل الأدبى الوحيد فى الكتاب المقدس. وهذه مبالغة واضحة، ولو أنها مفهومة. والكتاب المقدس لم يستبعد العبارات الخبرية والافتراضات، لكن نسبتها تُعد جزءاً من الصور والقصص. والروح القدس الذى ألهم بالأسفار المقدسة يردد صدى القول بأن الناس يميلون إلى فهم الصور بسهولة أكثر من فهمهم

للافتراضات، لكنهم إذا فهموا صوراً كافية، يستطيعون فهم الافتراضات بعد ذلك.

وبعبارة أخرى، قدم الرب صوراً مجازية تساعد على الفهم عبر الزمن، والمكان والحضارة. وإذ نرى الله يعمل فى حياة أولئك الذين نستطيع التمثل بهم، وفى عالم بمقدورنا أن نعرفه، فلسوف نفهم طبيعته وما يطلبه منا. وإذا أعطى الله القصص التوضيحية فى الأسفار المقدسة، فإنه لم يوفر لنا الآلية التى يمكن أن نعرفه بها فقط، بل إنه ثبت المعنى أيضاً حتى لا نسىء فهمه. وينبغى على الوعاظ أن يتبعوا هذا النموذج نفسه. وعليهم أن يربطوا بين المشاعر والفكر فى وعظهم، حيث يكمل بعضهما الآخر.

رمز العهد:

يجمع العهد القديم دائماً بين التفسير الافتراضى والقصة التوضيحية. ويبدو أن أسلوب توصيل المعلومة فى كل من موسى والأنبياء يشير إلى أنه لا الصور ولا الأقوال الخبرية يجب أن تأتى وحدها. فالموجز الخاص بالافتراضات، والتفسير مطلوب كى يهذب معنى المادة القصصية. وعلى النقيض من ذلك، فإن الحقائق الافتراضية نادراً ما تُترك عارية دون طابع قصصى.

ويستعمل الله الصور للتفسير حتى بالنسبة للمفاهيم اللاهوتية الأساسية. فشجرة الحياة، وشجرة معرفة الخير والشر تمثلان العهد الذى قُطع مع آدم (تك ٢). وقد أعطى الله عهده لنوح بالعلامة المرئية ممثلة فى قوس قزح (تك٢). وختم العهد مع إبراهيم باحتفال تعاقدى تقليدى (تك ١٥)، وبعلامة رمزية تتضمن سفك دم (تك ١٧). وقد أقام الله العهد الموسوى بعلامات وعجائب رمزية (على سبيل المثال: (العليقة المشتعلة بالنار، العصا التى تحولت إلى حية، الماء الذى تحول إلى دم، وشق البحر الأحمر)، وحافظ عليه فى رموز وطقوس (على سبيل المثال: تابوت العهد، كبش الفداء، خروف الفصح، نظام الهيكل بأكمله، والأعياد المختلفة)، وصوّر حقائقها فى قصص عامرة بالرموز (على سبيل المثال: المن، الحية النحاسية، التيه فى البرية، دخول كنعان- السبت).

القصة التاريخية:

إن أسفار العهد القديم التاريخية (بما فيها قصص موسى التاريخية) هى بالضبط ما يشير إليه تصميمها- فهى تكشف خطة الله للخلاص، وذلك بتصوير عمله فى تاريخ شعب العهد. وهذه القصص- بما فيها من قصص يشوع وجدعون، وشمشون، وصموئيل، وشاول، وداود، وسليمان، وكل ما جاء بعدهم من ملوك وأنبياء- لا تحوى الكثير من المبادىء المعلنة الخاصة باللاهوت النظامى. فالله يعلن حقه فى قصة. وسرد الأحداث

التى أدت إلى إقامة العهد مع داود، وتاريخ إسرائيل اللاحق فيما كانت تستجيب، وتتمرد، وتعود، تنقل وعود العهد، وطبيعة عهد إلهنا. والقصص بكل تفاصيلها وشخصياتها تؤكد الحق الأساسى: "الرب الرب إله رحيم ورؤوف بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء. حافظ الإحسان إلى ألوف. غافر الإثم والمعصية والخطية. ولكنه لن يبرىء إبراء" (خر ٣٤: ٦-٧). ونادراً ما يذكر الكتبة التاريخيون هذا الافتراض، إلاّ أن حقائقه قد شُرحت بكل جلاء، وفُهمت بسهولة، وظلت فى الذاكرة مدة طويلة، وكانت سهلة التطبيق بسبب القصص التى أوضحت جوهرها.

الصورة الشعرية:

كثيراً ما تجد الحقائق الكتابية أعظم تعبير لها فى الأسفار الشعرية، ولكننا نعود للقول إن الأقوال الافتراضية تُوازن بالمادة التصويرية. وأسفار الحكمة هذه لا تتضمن قصصاً تقليدية (سفر أيوب يُعد استثناء معروفاً)، غير أنها بطبيعتها تزخر بالتشبيهات المجازية والأمثلة. ويجعل التركيب المماثل للشعر العبرى من كل عبارة تشابهاً جزئياً. وهذه التشابهات الجزئية تؤكد الكنز الغنى للصور الشعرية التى تبلغنا بالفكر الموحى به. يصف داود رجل الله بأنه "كشجرة مغروسة عند مجارى المياه" (مز ١: ٣). وفى مجال تصويره لحماية الله، قال المرنم: "بخوافيه يظللك وتحت أجنحته تحتمى" (مز ٩١: ٤). تصف المزامير الله بأوصاف مختلفة: كخيمة

الاجتماع، والصخرة، والملجأ، والحصن، والملك، والراعى، إلخ. وحين لا يكون البشر فى شركة مع الله، فإن حالتهم أيضاً تُوصف فى إطار اختبارى. ومن الصعب أن يوصف اليأس الروحى بصورة أروع من القول: "لما سكتُّ بليت عظامى من زفيرى اليوم كله. لأن يدك ثقلت علىّ نهاراً وليلاً. تحوّلت رطوبتى إلى يبوسة القيظ" (مز ٣٢:٣-٤). ونماذج الحقائق التى ذكرت من خلال التشبيهات والصور المجازية فى الأسفار الشعرية عديدة جداً، وذلك بالطبع لأن استعمالها هو نفس طبيعة الشعر. ويكفى أن نذكر هنا أنه فيها تتعانق الصور والافتراضات الكتابية بسلاسة.

مثال نبوى:

على الرغم من تركيز الافتراضات فى الأسفار النبوية، إلا أن القصص التوضيحية تظل بارزة. ومن بين أمثلة عديدة، يأمر الله إرميا أن يطمر منطقة من كتان فى شق صخر، وأن يستردها بعد أيام كثيرة. وحين استرد المنطقة كانت قد فسدت. ويقول الرب: "هكذا أفسد كبرياء يهوذا وكبرياء أورشليم العظيمة" (إر ١٣:٩). وقد جمع حزقيال أشياءه علانية ليحذر شعب إسرائيل أنهم سيضطرون إلى حزم أشيائهم للمنفى ما لم يتوبوا، "لعلهم ينظرون أنهم بيت متمرد" (حز ١٢:٣)، يقول الرب.

وثمة أحداث مماثلة تظهر فى الأنبياء الصغار. فقد طلب الله من هوشع

أن يواصل المغفرة ويقبل امرأته جومر، على الرغم من تحولها إلى الزنا مع آخرين. ويقول الله: "اذهب أيضاً أحبب امرأة حبيبة صاحب وزانية كمحبة الرب لبنى إسرائيل وهم ملتفتون إلى آلهة أخرى..." (هو ٣:١). وعلى النقيض من ذلك، فلقد جعل الله عاموس يرى سلة فاكهة ناضجة وقال: "قد أتت النهاية على شعبى إسرائيل. لا أعود أصفح له بعد" (عا ٨:٢). فالأسفار النبوية، كبقية أسفار العهد القديم، تستخدم الصور المجازية والتشبيهات والاستعارات.

مثال يسوع:

وثمة ترنيمة معروفة تتحدث عن الأسلوب الذى اتّبعه يسوع فى تعليمه وتتساءل ببساطة: "هذا هو الطريق الذى سلكه السيد، ألا يجب على العبد أن يسير أيضاً فيه؟ يقول الكتاب المقدس: "وبدون مثل لم يكن يكلمهم" (مر ٤:٣٤). وكان المسيح بالطبع يرمى إلى أمور عديدة من وراء استخدامه هذا الأسلوب الكرازى، لكنه استخدمه بصفة دائمة. فهو لم يعش فى عصر "المعرفة المرئية" على الأقل من ناحية وسائل الإعلام المرئية الحديثة، ومع هذا، انتشرت القصص التوضيحية فى كرازته وتعليمه. وإذا كانت القصص التوضيحية هامة فى ذلك الحين، فإنها لاتزال فى غاية الأهمية فى أيامنا هذه.

والواقع أن المسيح كان يتبع نظاماً راسخاً من أمد بعيد. وعظاته فى معظمها تعكس صيغة سابقة للمسيحية كان يستخدمها معلمو اليهود، وكانت تُعرف باسم "الهجادا" (أسلوب القصة، على العكس من "هالاكاه"، وهو أسلوب التقارير المنطقى فى الناموس).

والأساليب القصصية التوضيحية، والمبادىء التى تشرح قصة الخلاص تسطع دائماً من صفحات الأناجيل. وطبقاً لما يقول (إيان ماكبيرسون)، فإن عنصر الأمثال فى إنجيل لوقا يصل إلى ٥٢٪ من جملة هذا الإنجيل، فى حين أن مضمون القصص والأمثال فى كل التعاليم التى نُسبت إلى يسوع يبلغ ٧٥٪. وكلمات يسوع هذه، التى تكوّن ٢٠٪ من العهد الجديد (ما يقابل تقريباً اثنتى عشرة عظة، كل منها من ثلاثين دقيقة) تقدم لنا دليلاً ملموساً على أساليب وعظ الرب نفسه وأولوياته. ويتعين علينا ألاّ نتجاهل تعليم العهد الجديد، وممارسة الكنيسة الأولى فى وعظنا عن العهد الجديد. ويتعين علينا فى الوقت ذاته، أن نعرف أن التشديد الحاضر لإيجاد "تجريدات شاملة" و"نبرة وعظية بأمثلة قليلة"، قد تعكس بلاغة بلاد اليونان وروما بأكثر مما تعكس بلاغة أورشليم ويسوع نفسه.

أسلوب بولس الرسول الاستثنائى:

يقول البعض إن بولس الرسول قد تعدى النموذج الكتابى الخاص

بالتنسيق بين التفصيلات الخاصة بالتجربة الشخصية والحجة الافتراضية.
ومما لا شك فيه، أن رسائل العهد الجديد بصفة عامة، ورسائل بولس على وجه الخصوص، تركز على الافتراضات. غير أن الرسائل، لا تضعف استخدام القصص التوضيحية في الوعظ. فالرسالة ليست عظة. والذى يحاول وضع نماذج وعظية على أساس صيغة الرسائل يكون في أفضل حالاته قد وقف على أرض متزعزعة. وحين نرى بولس الرسول يعظ بالفعل في العهد الجديد، فإنه يدرك الحاجة إلى مادة توضيحية في رسائله. ويقول مؤرخ العهد الجديد (دافيد كالهوون) إن الاختلافات الرئيسية بين العظات البولسية الأربع لغير المؤمنين في سفر الأعمال هي الإلماحات التي اختارها بولس الرسول كي يعزوها إلى الحضارات الأربع المختلفة التي كانت ممثلة بمستمعين متباينين.

وأولئك الذين يدّعون استثناء بولسياً لممارسة الكتاب المقدس للإلماحات يتجاهلون بالفعل الكثير من الكتابات البولسية. ذلك أنه حتى في رسائله المفرطة في الحديث عن العقيدة نرى الرسول ينثر هنا وهناك إلماحات عن قصة تاريخ إسرائيل، وميادين التنافس، وحلبات الرياضة، والنواحي العسكرية، والسوق ، والهيكل، والبيت والمدرسة، وأمور أخرى كثيرة. فلم يكن مستعداً أن يستبعد استخدام وسائل التوضيح، كما قد يشير إلى ذلك أي بحث سطحي. فالبحث الدقيق لشهادته قد يكشف عن تبنيه

لأسلوب مماثل.

واستخدام الله المادة القصصية لتوضيح أمر الرسول بولس لم يكن واضحاً جداً شأنه في ذلك استخدام بولس نفسه للمادة القصصية التوضيحية. وعلى أى حال، فإنه لولا القصص الواردة فى سفر أعمال الرسل، فإن الكثير من إشارات بولس وتعليقاته وحججه كانت ستصبح غير واضحة. وإذ تتوافر لنا كتابات بولس عن رحلاته وما تضمنتها من صور مختلفة، أصبح لدينا سياقاً تجريبياً جاهزاً للكثير من الحجج التى عرضها. وبدون الخطة الإلهية التى قدمت لنا سفر أعمال الرسل كمرشد توضيحى، لأضحت افتراضات بولس مستحيلة.

الصورة المتجسدة:

إن الحقائق التى صورها الله بكل حرص كى نفهمها، تؤكد أهمية النمط الكتابى فى التوضيح. وبمعنى حقيقى للغاية، جاءت معرفتنا وإدراكنا لله نتاج التصوير البالغ الوضوح لطبيعته، الذى تمثل فى يسوع المسيح، الكلمة المتجسد. فمجد الله، الذى لا يمكن رؤيته، أُعلن فى الابن الذى خبّر عن الآب (انظر يو ١:١٤و١٨). والكلمة اليونانية المترجمة "خبّر" تعنى "يقول من خلال قصة". وبتعبير آخر، فإن قصص حياة المسيح توضح فى الواقع طبيعة الآب السماوى. فالمسيح هو "الكلمة" عن الله، كما أنه

"الكلمة" من الله. وتوضح حياة المسيح بصفة رئيسية الطبيعة الإلهية فى الأناجيل. وأصبحت القصة الوسيلة الرئيسية التى يستخدمها الله لفهمنا الأمور الروحية. فالأحداث الملموسة، والأشخاص الحقيقيون يتفاعلون معاً فيكشفون ويوضحون الأمور المتعلقة بالله. وطريقة الله فى استعمال التوضيحات الإلهية، إلى جانب الأقوال العقيدية فى الحديث عن حقيقة الفداء العظيم يؤكد على أهمية العنصرين لفهمنا.

ويقدم الرسول يوحنا، شخص المسيح، على أنه النموذج التوضيحى الأصلى لطبيعة الله بكلمات رائعة: "الذى كان من البدء الذى سمعناه الذى رأيناه بعيوننا الذى شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة. فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التى كانت عند الآب وأُظهرت لنا. الذى رأيناه وسمعناه نخبركم به لكى يكون لكم أيضاً شركة معنا. وأما شركتنا نحن فهى مع الآب ومع ابنه يسوع المسيح" (١يو١:٣).

ويساعدنا يوحنا على فهم أعظم حق عجيب تكتنفه الأسرار ورد فى الكتاب المقدس، وذلك بأنه أسس مفهومنا على أقوال تتضمن الحواس. لكنه وإن كان هذا الأسلوب مثقفاً ومنوّراً، إلا أن النتائج كانت أكثر حسماً. فبإعادة هذا الاختيار الحسى لنا، يقول يوحنا إنه بمقدورنا أن يكون لنا معه شركة فى اختباره الروحى. ووصفه هو الباب الذى ندخله لنشاركه

فى الشركة التى كانت له بالفعل مع الآب. ولا يمكن أن تُوجد حجة أفضل من استخدام وسائل الإيضاح لتقديم خبرات من مواقف حياتية تكشف حقائق كتابية وتوضحها. وحين يعمل الوعاظ على هذا المنوال فإنهم، لن يكونوا قد أخبروا سامعيهم على أفضل وجه فقط، بل إنهم يفتحون لهم أيضاً باباً يجب أن يمر فيه هؤلاء المستعمون كى يعرفوا الآب وابنه.

على درب الكتاب المقدس

يريد أفضل الوعاظ إقناع الناس بحقائق الإنجيل لكن خوفهم من أن القصص الإيضاحية قد تؤدى إلى مفاهيم غير كتابية، لأنهم يقدرون وحدة سلطان كلمة الله. وأى مخطط، أو حجة، أو عبارة لم تُؤخذ مباشرة من صفحات الكتاب المقدس، وبحسب ترتيبه، وبنفس طول الأصل الكتابى، فإنها تعتبر إقحاماً بشرياً. ولكن إذا كان لنا أن نعظ عوض أن نقتبس من الكتاب المقدس على نحو من التفصيل، فإن هذا العمل يكون ضرورياً. ولا يجب علينا أن نرفض القصص التوضيحية لا لشىء، سوى أنها تفتقر إلى آية كشاهد. فالقصص التوضيحية تحظى بموافقة استنادها إلى سابقة إلهية، وموافقة الروح القدس الذى ألهم الكلمة.

ولأسباب ستصبح واضحة بشكل متزايد، يعزز الكتاب المقدس الأقوال الافتراضية بمعلومات اختبارية، وصور جديرة بالذكر. والسؤال الآن هو ما

إذا كانت المواعظ التى تتجاهل الكتاب المقدس هى فعلاً على نفس الدرب، مثل مرشدها الملهم به؟ وهل مضمون الكتاب المقدس هو فقط الذى يُعد معيارياً، أو أليست صيغة الكتاب المقدس ذاتها نافعة ومنورة للعقل؟ والذين يتبعون الكتاب المقدس في ممارساتهم كما في قناعاتهم عليهم مراعاة نماذجه وطرق إقناعه. ولسوف تكون النتيجة عظات تعكس احتراماً أعظم لحكمة بناء الكتاب المقدس، وولاء أعظم لصيغته.

فالروح القدس، الذى سبق أن أعطى العالم الساقط كلاماً موحى به، يتكلم الآن من خلال الوعظ للعقول التى هى محتاجة بنفس القدر. وإذا كان روح الله قد وجد القصص التوضيحية مفيدة فى الكلمة التى يجب أن تكرم إلى الأبد، علينا أن نتأمل جيداً كيف يمكننا استعمال هذه الوسيلة فى أيامنا هذه. والروح القدس الذى أوحى بالأسفار المقدسة بوسعه أن يرشد وعظ أولئك الذين استقرت عقولهم عليه حتى لا تصبح قصصهم التوضيحية حواجز فى طريق الحق، بل بالأحرى وسائل توصل إلى الإنجيل.

الفصل الثالث

أفكار من نظريات التعلم وتواصل المعلومات

حين قال (إليون چونز): "القصص التوضيحية ضرورية بالنظر إلى الطريقة التى يعمل بها العقل البشرى"، لم نكن نعرف الكثير عن العقل بالقدر الذى نعرفه الآن. لكن نصف قرن من البحث أكد أنه كان على صواب. "الطريقة التى يعمل بها العقل البشرى" ليجعل ما هو غريب، مألوفاً- ليجعل المجرد، واقعاً- إنما هى عن طريق دمج ما هو عقلانى بما هو تجريبى. ونحن نفهم الحق، حين نلاحظه فى سياق موقف إنسانى. فالوسائل التوضيحية توفر آلية لهذا الفهم من واقع الحياة، ومن ثم أصبحت لا غنى عنها للوعظ الفعال. وقد تأكدت هذه النتيجة بواسطة تحليل للعديد من نظريات التعلم وتبليغ المعلومات.

نظريات التعلم. إلى أين؟

إن فحص كافة النظريات التى تبحث فى الطريقة التى نفهم ونفكر بها، أمر خارج عن نطاق هذا الكتاب. وكثيرون من الباحثين المحدثين يكتبون من وجهات نظر غير كتابية، بل هى بكل تأكيد ضد المسيحية. ومع ذلك، فإن نظرة بسيطة لبعض النظريات الهامة تكون لها قيمتها كخلفية لدراسة كتابية أخرى. ولنلاحظ أنه على الرغم من فلسفاتها المتباينة، إلا أن كل هذه النظريات تربط التعلم بالاختبار.

نظريات المكافأة:

يرى بعض الباحثين أن أصول نظرية التعلم نجدها فى كتاب (إيڤان

بيتروفيتش باڤلوف). وكان أسلوبه يقوم على أساس تكرار إقران حافز غير مشروط (الطعام مثلاً) بحافز مشروط (جرس، على سبيل المثال) حتى يستخلص الحافز المشروط وحده استجابة مشروطة (إفراز اللُعاب مثلاً). وقد عُكست هذه الخطة بعد ذلك إلى نهج "التكييف الفعال" الذى استنبطه (ب.ف. اسكنر) وفيه تتوقف المكافأة على إجابة متوقعة. وكل من المتغيرين يرى التعلم فى تقدم، لأن الخبرات السابقة تم ترويضها، أو استيعابها استجابة لاحتياجات حاضرة.

والنظريات الخاصة بالمكافأة، الإجابة أصبحت فى الغالب "أمراً مفترضاً" فى فلسفات التعلم، لأنها تظهر من نماذج تجريبية عديدة. و "المفترض" يمكن أن يحجبه تنوع وتعقيد تصميمات ونظريات تالية، لكن هذا الثابت، دائماً ما يشير إلى أن التجربة هى عدسات التعلم.

نظريات التنظيم:

يعارض (إدوارد لى ثورندايك) حتمية بعض نظريات المكافأة، لكنه يحاول أيضاً أن يبين أن التجربة والخبرة تفيد أكثر بكثير من الفكر المنطقي المحض. وبعض "قوانين" (ثورندايك) لها أهمية خاصة لاعتبارات أخلاقية:

(الوضع) الثابت: التغيير الذى يطرأ على المتعلم يعتمد على الوضع العقلى الذى طرأ على الوضع التعليمى.

إن الاستجابة بالتناظر (عناصر مطابقة). والاستجابة لوضع ما تماثل الاستجابات لمواقف سابقة مناظرة تم اختبارها. ومقدار التغيير بين المواقف يحدده عدد العناصر المشتركة.

التفوق: الاستجابة إلى ظروف البيئة أمر انتقائى وتحدده العناصر التى نهتم بها. وتلك العناصر الأكثر بروزاً سوف تتم الاستجابة لها بسهولة أكثر.

إن قانون التعلم الوحيد الذى وضعه (إدوين راى جوثرى) يلخص (ثورندايك) ويبلور فكراً مفيداً: "ما عُمل فى وضع معين يعتمد على ما سبق عمله في نفس الوضع. وفيما أن النتيجة غريبة للغاية فيما يتعلق بالتعلم بواسطة الوعظ، بالنظر إلى أنها تتغاضى عن ما عمله الروح القدس قبل ذلك، إلا أنها بالنسبة لأنماط عادية من التعلم، فإنه من المهم أن نفهم أن العقل يدرك، وينظم، ويأمر، بمقارنته الموضوعات الحاضرة بخبرته السابقة.

أما (إدوارد تشيس تولمان)، فلا يوافق على نظريات المكافأة، ويقول بأن أية استجابة مادية أو عقلية هامة تضيف ملامح "للخريطة" الحسية، التى يوجدها العقل، ليكتشف ما تعنيه الأشياء. ونحن نفهم أفكاراً ومفاهيم بالتعرف على موقعها على هذه الخريطة التى أُنشئت على أساس

خبراتنا السابقة. وبمقدورنا أن نربط هذه النتيجة بما اكتشفه (شتينكر) و (بل) بأن الخبرات النيابية أو الفعلية، لها أثرها الفعال فى الأغراض التعلّمية. فاتصال الوعاظ يكون له أكبر قدر من التأثير، حينما تكون خبرتهم المقنعة (الفعلية أو النيابية) مصاحبة لأقوالهم.

نظريات السياق:

إن واضعى نظريات الشكل، فيما يتناقشون بأن التعلم كثيراً ما يحدث بشعور مباغت للفهم -وهذا رأى- إلا أنهم مع ذلك يقولون بأن هذا الرأى يتطلب وجوب رؤية نواح معينة فى علاقتها بعضها ببعض، حتى إنها تظهر كأنها شكل واحد (أى: بناء). فالخبرة يجب أن تمتزج بالحاضر لكى يكون لهذا الفكر معنى. فنظرية (كيرت لوين) "حيز الحياة" من الواضح أنها اختبارية، وهو يجادل بأن كل سلوك، عن وعى أو بدون وعى، يحدده الحافز المؤثر على أهداف الفرد، ودوافعه، ومعوقاته، إلخ، والتى تشكل حيز حياته.

وتحليل (روبرت جانى) لموقف التعلم له أهمية خاصة عند الوعاظ. فهو يقول إن بعض المهارات الحركية يجب أن تنمو مع نمو العقل، قبل أن يصبح فى الإمكان تعلم موقف ما. وقبل أن يكون بوسعنا أن نفهم عقلياً بعض الموضوعات، ينبغى أن نختبر استجابات مادية مناسبة. ويضيف

أنه بسبب محدودية الأقوال الشفاهية، فإن شخصاً ما يجب أن يعرض فى بعض الأحيان موقفاً، قبل أن يستطيع آخر تعلم هذا الموقف. وبعبارة أخرى، فالموقف يتعين أن يجسده شخص ما حتى يمكن فهمه. والقصص التى تصور أشخاصاً يعكسون مواقف تولد فى السامعين أملاً فى أن يكتسبوا هذه المواقف. ولا غرابة فى أن الكتاب المقدس يستخدم الكثير من الروايات الشخصية.

نظريات الحاسب الإليكترونى:

إن تغيير الموقف له أهمية عند معظم الرعاة أكبر بكثير من مجرد إعطاء معلومات، غير أن هذه العملية الأخيرة لها مكانها. فالسلوك المسئول روحياً يجب أن يُعطى له شكل أو جوهر. وعلى الرغم من أنهم يميلون وبشكل مزعج إلى أن يكون الأمر آلياً، إلا أن خبراء معالجة المعلومات يقدمون أفكاراً عن كيفية إدخال الحقائق، التى يمكن استغلالها، إلى عقولنا. وحساباتهم تكشف عن أن قاعدة المعلومات التى تحصل على معلومات جديدة وتفسرها هى الخبرة. وقد كتب (روبرت واير) قائلاً:

"إن كل آلة قادرة على تلقى المعلومات، تعمل طبقاً لقواعد معينة، وتخزّن نتائج هذه العمليات فى الذاكرة، وتغير محتويات مناطق معينة من الذاكرة، لتناسب المعلومات الجديدة، وأخيراً تعطى نتائج هذه العمليات

فى شكل يعينه "للمستعمِل" صراحة أو ضمناً.

ومن الصعب تحديد ما إذا كان (واير) يصف إنساناً أم آلة. ومع ذلك، فإن لنموذج تعليمه تداعيات هامة للوعظ. لكى يعالج شخص معلومات لا يكفى أن تقدم المعلومات ببساطة وحسب. بل يجب إدماج المعلومات فى جدول محفزات كانت موجودة من قبل، وملامح ذاكرة، وإجراءات فعالة يتسم بها "المتلقى". وخلاصة القول: يجب معالجة المعلومات من خلال خلفية اختبارية للشخص. وفى الوضع الوعظى، تستدعى القصص التوضيحية هذه الخلفية الاختبارية إلى ذهن المستمع.

تناغم نظريات التعلم:

لا يمكن أن يكون أصحاب نظريات التعلم أكثر تبايناً من الناحية الفلسفية: (فأتباع باﭭلوف) يحاربون أصحاب مبدأ التكيف الفعال، وأصحاب نظريات التعلم التدريجي والمتعاقب يناقضون أصحاب نظرية التجربة الواحدة، وأصحاب نظرية "السلوكية" المثاليون الذين يوجههم هدف معين، يجب أن يتعايشوا مع معالجى المعلومات الواقعيين. ومع ذلك، فإنه من هذه السيمفونية متنافرة النغمات تبرز نغمة واحدة ثابتة وهى أن عالم الاختبار هو السياق العام، إن لم يكن هو نفس وسيلة فهمنا. فما أختبره من خلال حواسي، وعواطفى، أو ما أتذكره هو الإطار

الذى أقيم عليه فهمى، والذى من خلاله أفسر المعلومات الجديدة. وعلى ذلك فإن تفسير الافتراضات والمبادىء أو المفاهيم بواسطة مواد مرتبطة بخبرات شخصية ليس أمراً ممتعاً فحسب، بل وضرورياً.

تناغم النظريات وتواصل المعلومات

إلى جانب نظريات التعلم، فإن الحاجة إلى أن نقيّم الفهم على أساس التجربة والاختبار تتردد أيضاً فى نظريات تواصل المعلومات فى مجموعة من العبارات المثيرة للاهتمام. ويقول المؤيدون نحن نواصل المعلومات بشكل أفضل حين نصوغ الأفكار فى قصص تثير اهتمام الناس، وفى مواقف حياتية، وقصص تتناول الحياة، ورسائل تركز على الخبرة، ونماذج قصصية، ولقاءات مباشرة، وحياة تتناول ناحية من نواحى الحياة، وخبرة شخصية معاشة، بل وحتى قصة تساهم فى حياة أولئك الذين عاشوا، والذين يعيشون الآن، والذين سيعيشون فى المستقبل. ويعطى تنوع المصطلحات تعبيرات ثرية لقوة التجربة الشخصية. فنحن نفهم ما هو واقعى بالنسبة لنا. وحين تثير مشاعرنا تجربة ما، أو حين نشعر بما قد تحدثه فينا من أثر، هنا، وهنا فقط، يمكننا أن نفهمها تماماً.

والعلاقة بين المعرفة والعمل -والفهم والاختبار- تتقوى بتقدم هذا القرن. ففى أوائل الخمسينيات أوضح (إدجار ديل) أن التعلم يتأتى

بأكثر فاعلية من خلال الاشتراك المباشر الهادف. والمدرسون الذين تلقوا تدريباً فى الستينيات فكروا ملياً فى تداعيات "الهرم التعليمى" والذى بيّن أننا نتعلم ١٠٪ مما نسمعه، ٣٠٪ مما نراه، ولكن ٦٠٪ مما نعمله. وبحلول السبعينيات، استطاع الباحثون أن يصنفوا أنماطاً من الخبرات التى تعلم بأكبر قدر من الفاعلية، وبعلمهم هذا، اكتشفوا أن الناس يتعلمون بنفس القدر من الخبرات "التى تُوصف بالكامل" مثلما يتعلمون من التجارب الفعلية. وهذا الاكتشاف يُبرز أهمية القصة فى جميع صيغ تواصل المعلومات.

إن المستمعين الذين يختبرون المفاهيم- حتى وإن كان ذلك بطريقة نيابية- يعرفون فى الواقع أكثر من الذين يتعين عليهم أن يتأملوا الكلمات والأفكار نظرياً. فما خمنه الوعاظ عبر أجيال كان له أساس علمى وطيد. والفكر الهادف ينمو على أفضل شكل، حينما يتأصل فى موقف مفهوم. وهذا الاكتشاف يكشف عن القيمة المستترة للقصص. والمستمعون بكل بساطة يفهمونه بالأكثر حين تعرض الرسائل حقائق روحية فى قصص تضم خبرات يمكن التعرف عليها.

وفضلاً عن ذلك، فإن تواصل المعلومات على مستوى اختبارى، يمكّن المستمع من التحرك بسرعة من مستوى المعرفة إلى مستوى العمل. والتأمل الشخصى فى أى موضوع يصبح له مغزى حين تتحول من "أنا أعتقد"

إلى "أستطيع أن.."، وقد وُضعت الفكرة فى قرينة. فى إطار خبرة، تجعل المفهوم قابلاً للتطبيق فى حياة المستمع، وفحوى الفكرة يُنبأ به فى سياق فاعليات اختبارية قبل أن يصبح له معنى حقيقياً بالنسبة لذاك الشخص. وإبلاغ المعلومات لا يتم بالفعل، إلا بعد أن يقوم المتكلم والسامع بوضع الكلمات فى سياقات من المجالات المماثلة من الاختبار. الأول يتنبأ بمعنى قائم على مجال اختباره، والثانى يتنبأ بمعنى قائم على مجال اختباره. وأية آلية للقصة، مثل التوضيح، والتى تحدد بسهولة مجالات الخبرة هذه لكلا الطرفين، تجعل توصيل المعنى أمراً ممكناً.

وخلاصة القول، إنه بشكل أساسى من خلال القصة التى تأسر الاهتمام، وتحدد وتصف الخبرة، نخلق المعنى لأنفسنا وللآخرين. ويصرّ (ولتر فيشر) على أن القصة ليست مجرد وسيلة أخرى لتوصيل المعلومات، بل هى بالأحرى "سيدة التشبيه المجازى". وهى تصنف كل نماذج ووسائل الاتصال الأخرى. فالحكايات، ولاسيما التى تُستخدم فى توضيح مواقف حياتية، تمكننا من معرفة من نكون، وما يقوله الآخرون، وما يبلغه لنا الله. وهى تجعل من الممكن بالنسبة لنا كوعاظ أن نغطى الثغرة بين جيلنا الحاضر وعالم الكتاب المقدس، وكذلك الثغرة القائمة بين المنبر والمستمعين.

أصداء فى الحضارة

ومع أنه لا توجد نظرية تعليم أو تفاصيل كهذه، فإن "عصر المعرفة

البصرية" الحاضر، يقترح أيضاً السبب فى أنه يتعين على الوعاظ أن يستمعوا للباحثين المحدثين الذين يبرز عملهم الحاجة إلى قصص توضيحية قوية. فالشخص البالغ العادى الذى يقضى خمسين ساعة فى السنة فى مقاعد الكنيسة، يمضى أيضاً ألفى ساعة فى البيت وهو يشاهد التليفزيون، وطفل المدرسة العادى يمضى ساعات أمام التليفزيون بأكثر مما يقضيه فى حجرة الدراسة. والبعض يقدّر أن الأطفال الأمريكيين العاديين. يقضون وقتاً فى مشاهدة التليفزيون قبل دخول المدرسة أكثر من الوقت الذى يستمعون فيه إلى والديهم طوال حياتهم. أضف إلى هذه المؤثرات، التسليات التى تقدمها دور السينما وأجهزة الڤيديو، والهجوم البصرى الذى تشنه الإعلانات الموجودة فى الطرق العامة، وڤاترينات محلات البقالة، والنقلة التعليمية إلى أجهزة عرض الصور المعلقة (البروچيكتورز) إلى الدراسة عن طريق شرائط الڤيديو، وأجهزة الكمبيوتر، والنتيجة لا مفر منها: "عصرنا بدون منازع، هو عصر وسائل الإيضاح، العصر الذى تعود فيه الناس على تصوير التفكير".

إن كراهية الكلمات البعيدة عن الاختبار، تصوّر حضارتنا كلها. فالمدارس تبتعد شيئاً فشيئاً عن التعليم بالمحاضرات إلى التعليم بالانخراط. وتشير الدراسات إلى أن ٧٠٪ من الطلبة، من جميع الأعمار، ليسوا متعلمين تحليليين. فكل ثمانية أو تسعة من بين عشرة من طلبة المدارس الإعدادية ينشغلون فى حل المسائل دون تفكير تخطيطى. وستة من كل

عشرة من طلبة المدارس الثانوية يتعلمون بشكل أفضل من خلال تعرضهم لخبرات عملية وليس من خلال قيادتهم بواسطة فكر نظرى.

وطريقة التعليم من خلال دراسة الحالة التى دأبت عليها مدارس القانون التقليدية تسود الآن فى الكثير من أشكال التدريب المهنى. ويتوقع رجال الأعمال الآن أن الحلقات الدراسية التى تعقد فى نهاية الأسبوع والتى يحضرونها، سوف تشركهم فى العديد من "دراسات الحالة"، سواء كانوا يتعلمون كيف يسوّقون أسهماً خالية من الضرائب، أو يتفاوضون حول عقد عمل. وحين يعودون لمكاتبهم يوم الاثنين، فإن نفس هؤلاء المهنيين سوف يقيّمون بالغريزة نجاح الحلقة الدراسية على أساس كيفية تقديم عينات المواقف بطريقة واقعية وعملية. والوكالات المفوضة للجامعات والكليات الكبرى، تقدم الآن تمويلاً لتدريب المدرسين المحنكين على كل النظم الكبرى لوسائل التعليم من خلال أسلوب دراسة الحالة. والرسالة واضحة. أشرك الطلبة وإلا فإنهم لن يتعلموا. فالمبادىء دون التفاصيل، لن تُفهم أو يُحتفظ بها.

وهكذا أيضاً، فالشخص العادى الجالس فى مقاعد الكنيسة لا يعتمد ببساطة على الكلمات والافتراضات وحدها بالنسبة لحصوله على المعلومات. وإذا ما دخلت البلاد الحرب، أو كنا نتوقع أخبار الانتخابات، أو نتلهف على معلومات بالنسبة لمأساة ما، فإن الكلمات المطبوعة، وخبراء التحليلات

لن يكونوا المصدر الرئيسى للمعلومات. فالاتجاه الذهنى الحديث يتوق إلى مناظر وأصوات المعركة أكثر من رغبته فى الإطلاع على التحليلات الإحصائية. فالجماهير فى الشوارع والمطارات سوف يحتشدون حول أجهزة التليفزيون، فى انتظار أقل لمحة من مادة إخبارية جديدة، فى حين أن الجرائد اليومية الخاصة بالتحليلات ستكون مكدسة بالأكوام فى أكشاك الصحف المجاورة. ولكن قراءة الصحف لن تُهمل تماماً.

فثمة أشخاص قلائل يعتمدون بصفة أساسية على الصحف أو المجلات الإخبارية، وكثير من المواد المطبوعة للحصول على مزيد من التفاصيل. لكن حتى ناشرو هذه الأخبار المطبوعة يعرفون أن ٤٪ أو ٥٪ فقط من عملائهم لن تتعدى قراءتهم الفقرة الأولى من القصة العادية، وأن نسبة القراءة سترتفع إلى ثلاثة أو أربعة أضعاف بالنسبة للقصة التى تحمل صورة، أما التعليق فهو الذى يحظى بالقراءة أكثر من القصة كلها. فاهتمام الجماهير والطلب على المعلومات يزداد مع الاشتراك الحسى حتى فى هذه الوسيلة (القراءة).

والبعض يعتقد أن هذه النزعات جاءت وليدة الثقافة الحديثة التى أوجدت مدمنى الأجهزة السمعية والبصرية كالمذياع والتليفزيون. فقد أصبح هذان الجهازان مثل ورق الحائط الحساس بالنسبة للحياة اليومية. فالمناظر والأصوات الإليكترونية تصاحب كل فكر، وكل لحظة فى حياتهم.

وشركات برامج (الكمبيوتر) والمعلومات الخاصة به، وكذلك شركات شرائط الكاسيت، تعتمد على احتياجاتنا إلى المدخلات الحساسة، وذلك بتسويق برامج التعلم فى دليل التليفزيون، وعلى المجلات الخاصة برحلات الطيران. وسواء كانت هذه الاتجاهات قد جاءت بالفعل نتيجة التطورات الحضارية الحديثة، أم أنها استغلال لمزيد من عمليات الفكر الإنسانى فهذا يظل سؤالاً يحتاج إلى إجابة. إلا أنه ليس ثمة شك فى أن حضارتنا تدربنا على إعمال العقل والتصرف على أساس التجربة والاختبار.

وينبغى على الوعاظ المعاصرين أن يعترفوا بهذه التحديات الحضارية حتى وإن كانوا غير متأكدين من مدى تأقلمهم معها. وفى الوقت الذى لا يجب أن نتسرع أكثر من اللازم ونتخلى عن تراثنا الوعظى الثرى، إلا أنه يتعين علينا أن نتساءل عن الكيفية التى نستطيع أن نخدم بها احتياجاتنا الراهنة على أفضل وجه. والممارسات الوعظية التى تتجاهل أهمية الاكتشافات والتى تتأتى وليدة الاختبار تشير ببساطة إلى عدم الإحساس بحياة أبناء الكنيسة اليومية وتعلمهم.

تطبيق النظريات

فى مواجهة هذه التغييرات الحضارية، كان من شأن نتائج التعلم والاتصال (إبلاغ المعلومات) التى توصّل إليها واضعو النظريات أن عملت

الكثير لتشير إلى السبب فى أن القصص التوضيحية هامة للغاية. فإلى جانب قدرتها -التى ذُكرت كثيراً- على جذب الانتباه، والتكرار دون إسهاب، ودعم الاهتمام الذى تركز عليه العظة، فإن القصص التوضيحية تخلق فعاليات اختبارية تعمل بالفعل على تعزيز الفهم، ومن ثم تساعد الناس على التغيير وكذلك الإنصات. وواضعو النظريات الحديثة لم يساعدوا الناس إلا على فهم مبادىء كان يتم مراعاتها منذ مدة طويلة، وكان يستخدمها أقدر الناس على تواصل المعلومات. كتب (إليون.ت. چونس) يقول:

"مما لا شك فيه أن يسوع اختار وعن عمد أن يستخدم وسيلة تعليم تجنبت الحاجة لهذا التحديد (الافتراضى) للعبارات، ذلك أنه لم يحدد المصطلحات، أو يحاول أن يثبت الحق بحجج معقدة. بل اختصر الطريق إلى عقول سامعيه. وقد علّم بعبارات واقعية لا نظرية. ومن المؤكد أنه لم يسمع إطلاقاً عن التعبير النفسى الحديث "الإدراك الاستبطانى"، لكنه على الرغم من ذلك فهم العمليات الذهنية التى يصفها هذا التعبير، وهى أن الناس يفسرون ما يسمعونه ويرونه على ضوء ما سبق أن عرفوه. وفى حالة افتقارهم إلى المعرفة التى تمكنهم من تفسير الأفكار الجديدة فلا يمكن أن يستوعبوا أية معلومات خاصة بها.

لقد ذهب (چونس) إلى أبعد من اللازم. فيسوع حدد التعبير بالفعل،

وكان بين آونة وأخرى يعلّم نظرياً. ومع ذلك، فقد أُحسن القول، بأن يسوع ربط تعاليمه بمواد اختبارية فعلية.

الربط بين التعلّم والوعظ:

استعمل (چون كيلنجر) بكل جلاء نظريات التعلم كى يبرر استخدام القصص فى العظات. وبعد أن سرد أسباباً تقليدية عن سبب استخدام الوعاظ للقصص التوضيحية، عاد واستخدم أيضاً اقتباساً قديماً كى يشير إلى اتجاه جديد:

تربط القصص الفكر اللاهوتى بالحياة. وكما يقول (سانجستر)، إنها تجعل من العظة أمراً واقعياً. فهى تأخذها من العالم النظرى وتثبتها بالأحداث اليومية، بالأمور التى يعرفها الناس.. وتكون القصص التوضيحية حين ترتدى العظة لباس العمل وتذهب للعمل فى حياة الناس. وشعب الكنيسة يعرف من القصص ما إذا كانت العظة عملية أم لا، فإذا ما استطاعوا أن يروا المبادىء عاملة فى القصص يعرفون عندئذ أن المبادىء ستعمل من أجلهم.

وكلمات (كيلنجر) تتناغم مع كلمات معلمين آخرين، ممن يحسون بالعلاقة بين تركيز أصحاب النظريات الحديثة على الاختبار والتجربة، وهيكل العظة.

وإذا أدت الخبرة إلى أن يفهم الإنسان عالمه، وكلام الآخرين، هنا تكون وسائل الاتصال التى استعملت فعاليات الاختبار من الأمور التى لا يمكن الاستغناء عنها. وهذه هى الحالات التى تقدم القصص فيها خدمة حيوية للعظات. وبوسعنا معرفة الحق الكتابى بالبديهة أو المنطق، ولكننا نفشل فى فهمه عاطفياً، وسيكولوچياً، أو روحياً، وذلك بمنع أنفسنا من اختبار الحق. ولكن القصص التوضيحية تمنع مثل هذا الفشل. فالمستمعون الذين يدخلون عالم الحكاية فى قصة ما بطريقة نيابية، ينخرطون فى تجربة الحياة التى تساعد على كشف المعنى الكامل للحق.

الدمج بين الفكر والفهم:

إن صياغة أى مفهوم فى عبارات افتراضية لاعتبارات عقلانية لا يعنى ببساطة أن ذلك سيكون سبباً لفهمه بشكل تام. فمبادىء الحق تظل غير واضحة بصفة شخصية ما لم تتطابق مع عالم الشخص المعنى. وما لم تتوافر لى مرجعية مفهوم ما، فلن يكون بوسعى فهمه. وهذا أمر صحيح سواء إذا كنا نتحدث عن بشاعة الاكتئاب، أو التعزية الناجمة عن الثقة فى الله حين نفقد أحد أحبائنا. وكلا المفهومين يمكن شرحهما افتراضياً دون فهمهما تماماً. لأن الفهم الحقيقى يتطلب "معايشة" الأمر بفعالية. والفطرة السليمة تؤكد أن زيادة الاختبار تؤدى إلى مفهوم أوسع، وما يقدمه لنا البحث الحديث يُعد حجة جديدة نسبياً، مفادها أنه دون أن

يختبر الإنسان الأمر بنفسه، فإن الأشياء المطلوب فهمها -حتى الكلمات- لا يمكن فهمها بشكل كامل.

استخدام القدرة على الفهم:

كما أن الأمور النفسية لا يمكن أن تكون بمعزل عن النواحي الفسيولوچة، فإن ما هو عقلانى يكون مرتبطاً بشكل وثيق بالناحية المادية. وفى مقابل التعليم التقليدى الخاص بالفلسفة الثنائية يضع أصحاب النظريات "وجوداً" تقوياً، يعلم عن طريق إشراك الجسد والعقل -أى الشخص بجملته- فى الاختبار. واللقاء الشخصى يوفر "المرآة" التى يجب أن يُرى فيها كلّ شيء يواجهه الإنسان لكى نفهم ما نراه. وهكذا، فإن القدرة على فهم أى شيء تتطلب من الشخص أن يختبر هذه الأمور، ليس لمجرد أن يجمع معلومات حسية فقط (كيف يجد مذاقها، ورائحتها، ومنظرها، إلخ)، بل لتركيز الوعى وتوجيهه، الأمر الذى يجعل الإحساس والفهم، والاستناد إلى القرينة، من الأمور الممكنة.

وإذا كان واضعو النظريات على صواب، فإن الفهم التام لتلك الأمور المتأصلة فى قلب الإنسان يكون مرتبطاً بتجربة معاشة. ولقد جادل الوعاظ منذ أمدٍ بعيد بأن هناك فرقاً جوهرياً بين المعرفة العقلية، والمعرفة القلبية، وبين إبلاغ العقل، وإبلاغ الشخص بكامله. ولعل باحثى اليوم يقدمون لنا

أفكاراً تبين كيف أن هذه الاختلافات كبيرة حقاً. وهذه النتائج تضفى أهمية وحيوية على تقدير (كيلنجر) لفائدة القصص التوضيحية، حيث يقول:

"أعترف أن هذه هى النوعية التى أفضلها. وهى قصص من تجارب رجال ونساء، بل ومن تجارب أطفال، وقد رُويت بواسطة الأشخاص الذين حدثت لهم هذه القصص، وشاركوا فيها الواعظ. وهى تتسم بحرارة تجعل الناس يشغفون بها. وهى بكل أمانة تعطى مسحة للإنجيل لا تتأتى من أى شىء آخر. ذلك أنها تظهر واقعية الإنجيل، وتجسمه بصدق.

فالصور التوضيحية حين ترتبط بالخبرة يمكنهما أن يبينا أن الإنجيل حقيقى، وملموس، وقابل للتفسير. وعلى ذلك، فإن شرح الافتراضات، والمبادىء، أو المفاهيم بواسطة مادة قصصية مرتبطة بخبرة معاشة لن يبدو كلاماً خارجاً عن الموضوع، بل فى صميم الموضوع.

معانٍ لها وقع موسيقى:

إن الفكرة القائلة بأن القصص التوضيحية ما هى إلا إفراط فى التبسيط، وتنازلات لإرضاء التوقعات الشعبية، لا تتعارض فقط مع التعلّم الحديث ونظريات تواصل المعلومات فقط، بل إنها تتنافر مع خبرة معظم الوعاظ. فأى خادم لم يكتشف السهولة التى يمكن أن يُذكر بها حق يُراد تفسيره

بشكل افتراضى، ولكنه فى سبيل ذلك كان يعانى لساعات عديدة وهو يفكر في كيفية تصوير ذلك الحق بطريقة مؤثرة وفى إطار الموضوع؟ واكتشافات واضعى نظريات التعلّم قد تساعد على تفسير السبب فى أن العملية صعبة للغاية. فلكى يروى الواعظ الحقائق من واقع الخبرات، عليه أن يحفر حتى يصل إلى مستوى الوجود، حيث يكون فيه العقل، والنفس، والجسد، والعالم، والروح صادقة غير زائفة. وحتى يفعل هذا - وما لم يكن قد فحص أعماق عواطفه، وعلاقاته، وخبراته، وإلى أن يدمج ما اكتشفه في هذه الأعماق بما يعرفه ذهنياً- فإن فهمه لن يكون كاملاً.

إلا أن السعى وراء مثل هذا الفهم الكامل- أى التخلى عن النظرى، والكشف عما هو واقعى فى حقائق النفس والآخرين والعالم، والتى تتسم بالصعوبة وأحياناً بالغدر، فهذه هى أكثر الأعمال الوعظية صعوبة. فالواعظ عليه أن يسير "ميلاً ثانياً" ذهنياً، ليبدع قصصاً توفى بما هو منتظر منها. واستخدام القصص التوضيحية لا يُعد علامة استسلام ذهنى. بل إن عدم استعمالها قد يشكل علامة على الكسل والاسترخاء من ناحية توصيل المعلومات اللازمة.

فهى تتطلب من الوعاظ أن يفكروا فيما يمكن أن يُسمع، وكذلك فيما يمكن أن يُقال. وعليهم القيام بما يمكن أن يُسمى "تفكير مزدوج". لأنه يتعين عليهم أولاً التفكير فيما تعنيه الفقرة لهم، وعندئذ، عليهم أن

يفكروا فيما يمكن أن يوصل ذلك المعنى للأشخاص الذين جعلهم الله مسئولين عنهم. وبتعبير آخر، عليهم أن يتعمقوا فى حياة الآخرين وتجاربهم، فى الوقت الذى ينبغى عليهم أن يفحصوا فيه نفوسهم أيضاً. إنه عمل صعب ومرهق، ويتطلب تضحية. ولعل هذا هو بالضبط السبب الذى من أجله كثيراً ما يتم تجنب القصص بحجة المعرفة الواسعة.

اكتشاف إبداعات الإنسان:

إن الأشخاص الذين لهم تجارب هامة ومختلفة يجدون صعوبة فى فهم كل منهم للآخر. وهذه الملاحظة البسيطة أدت إلى التفكير فى إسهام هام تمثل فى نظرية اتصال (إبلاغ معلومات) معاصرة. وإذا كان الواعظ والمستمع مشتركين فى الفهم، فذلك مرده أن خبرتهما تتلاقيان بطريقة ما. ووحدات الخبرة التى يتشاركان فيها تترجم الكلمات والمفاهيم لكل منهما. وهكذا، فإن الأحداث المشتقة من الحياة تكون لها احتمالات توصيل قوية. وهى قوة يمكن استخدامها.

وفيما يتعلق بالبحث فى موضوع إبلاغ المعلومات، فإن الحدث الذى يتذكره الإنسان، كى يعرف معنى فكرة ما، هو "إبداع" جاء وليد التجربة. وكما أن عالم الآثار يكتشف إبداعات من الركامات المترسبة كى يفسر حضارة قديمة لمعاصريه، فإن المستمعين يخرجون خبرات من طبقات الوعى

كى يفسروا أفكاراً لكى تفهم فى حينها. وإبداعات الخبرة هذه، يمكن أن تُستخرج من طبقات عميقة فى الوعى الإنسانى، أو قد تكون قد أُودعت منذ عهد قريب، لكن إن كان الإبداع حديثاً أم قديماً فإنه يحتفظ بالقوة اللازمة لإعطاء معنى للكلمات والعبارات الخاصة به.

ولكن، ما هى طبيعة هذا الإبداع الذى يُستعمل فى تفسير المفاهيم المحيطة؟ إنه وحدة من خبرة "تجسم" للمستمع ما يقوله الواعظ. فالخبرة تُؤخذ من وضعها، حيث تجمد عناصرها الضرورية فى شكل ما معترف به، بحيث يمكنها أن تعمل كشىء يحول الكلمات والعبارات والمفاهيم إلى خبرة حاضرة. والخبرة التى تم تشريحها تأخذ شكل حكاية. فالخبرة التى أصبحت مميزة ببداية ونهاية، والتى يتقدم فيها العمل والفكر بين هذه النقاط، والتى يمكن استدعاؤه من الذاكرة إلى الوعى، ما هى إلا قصة. وهذا المفهوم يضع الفكر الذى يكمن وراء الاهتمام الحالى فى شكل القصة. وبالنظر إلى أن الحكايات تقدّم السياقات التى يتطلبها الفهم على مستوى الفرد، ويمكن مشاطرتها بسهولة بين الأشخاص، فإنها تقدم الإمكانات الاختبارية المطلوبة لتواصل المعلومات.

المعرفة والعمل

فيما نجد أن البحث التربوى فى القرن العشرين كثيراً ما ينبع من

منظور روحى، فإنه يوضح بكل جلاء أن الفهم الشامل الذى يؤدى إلى اتخاذ القرار عن وعى، وإلى عمل يتسم بالمسئولية، إنما هو أكثر من مجرد عملية معرفية. ثمة صديق لى، يعمل فى مجال توظيف الأطباء فى المراكز العلاجية، يشرح كيف عرف هذه الحقيقة. لأنه حين تحتاج مستشفى، أو مؤسسة طبية، أو مدينة، إلى طبيب له مواهب مميزة، كان صديقى هذا يحاول أن يجد طبيباً مؤهلاً ثم يشجعه على الالتحاق بالمكان الذى يحتاج إليه. وغالباً ما تكون هناك منافسة قوية للحصول على خدمات مثل هؤلاء الأطباء، وعزوفاً كبيراً من جانبهم لاتخاذ هذه الخطوة، ولذلك، كان صديقى وزملاؤه فى الشركة، يقومون بوظيفة لا تقتصر على الإبلاغ فقط، بل والإقناع أيضاً. ولم تكن هذه بالمهمة الهينة.

فلابد من أن يتعلم الإنسان الكثير عن طبيعة البشر كى ينجح فى هذا العمل الذى يتطلب تحفيز أفضل الأخصائيين كى يتخذوا مثل هذه القرارات البالغة الأهمية. وقال لى صديقى إنه هو وزميل آخر أكثر منه خبرة فى عمليات التوظيف كثيراً ما يبتسم كل منهما للآخر ابتسامة لها مغزاها حين يعبر أحد العاملين الجدد فى مجال التوظيف عن إحباطه نظراً لرفض طبيب معين أن يقبل ما عرضه عليه برغم المزايا الواضحة التى عُرضت.

إن من يعمل فى مجال التوظيف قد يقول عن طبيب ما: "إنى لا أفهم سبب عدم استجابته. فهو يعرف أنه سيحصل على مرتب أفضل. وفرص

الترقى أمامه أفضل. بل إن المدينة التى سيعمل بها أكثر جمالاً. لقد قال لى إنه يعرف أنها فرصة أفضل من وظيفته الحالية، ومع ذلك، رفض العرض الذى قدمته له.

ولكن العامل فى هذا المجال، الأكثر خبرة، يدرك أن القرارات لا تُتخذ فقط على أساس ما يعرفه الإنسان ذهنياً.

وكما قال صديقى الأكثر خبرة:

"لم يستطع الطبيب أن يرى نفسه فى دوره الجديد. فمن الناحية العقلية قد يعرف أن هناك شيئاً أفضل بالنسبة له، لكن لا يشعر بالتزام عاطفى بالنسبة للقرار الذى يجب اتخاذه. وليس بوسعه اتخاذ مثل هذا القرار، ما لم يتحد عقله وقلبه ليتمكن من اختيار ما الذى سيعنيه الوضع الجديد بالنسبة له، ولعائلته على المستويين الاختبارى والعقلى.

وكثيراً ما يقدم أخصائيو التوظيف الجدد البيانات الضرورية لاتخاذ قرار عقلانى، ولكنهم لا يقدمون الدعم اللازم للالتزام العاطفى بهذا القرار، وهم بهذا لا يقومون إلا بنصف العمل. والقيام بنصف العمل فى هذا المجال لا يؤدى إلى إنهاء المهمة. لأنه يجب أن نقدّم الخبرات التى تساعد الطبيب على أن يرى نفسه فى الوظيفة الجديدة، حتى يكون بوسعه أن يحوّل معرفته العقلية إلى التزام شخصى.

وبالنسبة للعاملين فى مجال توظيف الأطباء، فإن تقديم الخبرات اللازمة لمساعدة الطبيب على اتخاذ قرار هام، معناه أن نأخذ الطبيب إلى المدينة المرشح للعمل بها، ونقدمه للناس الذين سيعمل معهم، وأن نتيح له رؤية التسهيلات، ونثبت له أصالة المجتمع الذى سيعيش فيه، فالطبيب لابد وأن يختبر نتائج قراره قبل أن يصبح فى الإمكان تحفيزه على العمل. وهذا درس هام بالنسبة للوعاظ. فالناس لا يتخذون القرارات لمجرد حصولهم على المعلومات الذهنية. وما من أحد يتوافر له فهم صحيح لما يُطلب منه قبل أن تتوافر له المعلومات الاختبارية التى تمكنه من تقييم أهمية التغيير الذى سيطرأ على حياته. وبالنظر إلى أن القصص القائمة على مواقف حياتية، تقدم مثل هذه المعلومات القائمة على الاختبار، وتسمح للناس أن يعيشوا تداعيات خياراتهم الروحية، فإن الوعاظ سيقدمون عظات تعمل على تغيير الحياة.

وخلاصة القول، إن الفهم البشرى بأوسع معناه يتضمن الإرادة والفكر، والقلب والعقل، والعاطفة والمعرفة، والخبرة، و الثقافة الواسعة. فالذين يتخذون القرارات بدون هذا الفهم الكامل، إنما يتصرفون بجهل حتى وإن كانت قراراتهم عقلانية تماماً. والحق الذى يُختبر تماماً هو الحق الذى يمكن أن يُتبع وبأكبر قدر من المسئولية. فالواعظ يجب أن يكون قادراً على أن يخبر الناس بأن يستعدوا، ويتخذوا قرارهم، وأن يذهبوا إلى حيث أمر

الله، لأنه سبق لهم أن كانوا هناك، من خلال القصص التوضيحية التى تضمنتها العظة. والطريق الذى سبق أن عرفوه، هو الطريق الذى يجب أن يتّخذوه.

الفصل الرابع

عبقرية القصص الحياتية

أهمية هذه النوعية:

إن الوعاظ الذين بوسعهم أن يروا ما تعمله القصص للوعظ، يواصلون التمسك بها. لكن مما يُؤسف له، أن هؤلاء المدافعين عن هذه القصص كثيراً ما يصفون ما تعمله، عوض أن يحددوا السبب في أنه ضروري. ومثل هذه الملاحظات الواقعية لا تعمل إلا القليل من ناحية تحرير هؤلاء النقاد من الخطأ الذي يقعون فيه إذ يدّعون أن القصص التوضيحية إنما هي لضعاف العقول، وللوعاظ غير الأكفاء والسؤال: كيف ينبغي على الوعاظ المعاصرين أن يدركوا قيمة هذه القصص؟

الأسباب الخاطئة؟

في أواخر عام ١٩٦٤، ادّعى (إيان ماكفرسون) أنه أدرك أهمية القصة التوضيحية، عن طريق قراءة "جميع" الكتب التي تناولت هذا الموضوع، وكان عددها ستة. ومثل هذا المعيار الهزيل يشير ضمناً إلى موضوع له أهمية وقيمة عظيمة.

أما الأكثر نفعاً، فهو كتاب (و. سانجستر) "براعة القصص التوضيحية في العظات"، ويذكر سبع فوائد لهذه القصص وهي:

(١) تجعل الرسالة واضحة. (٢) تريح الحاضرين. (٣) تجعل الحق مؤثراً. (٤) تضفي على العظة تشويقاً. (٥) تطبع العظة في الذهن.

(٦) تساعد على الإقناع. (٧) تجعل التكرار ممكناً دون ملل.

إن الكتب التى تحدثت عن القصص التوضيحية لاحقاً كررت هذه القائمة المرة تلو الأخرى. ومما يُؤسف له، أن البعض استخدم هذه القائمة بشكل سلبى، ملمحاً إلى أنه يتوجب استخدام القصة لأن الشعب آفاقه محدودة، ومن الواضح أن أعضاء الكنيسة لا يستطيعون الانتباه، أو الاهتمام، أو الاحتفاظ بالمعلومات دون أن يلقنهم عقلياً، واعظ كفؤ.

والحجة القائلة بأنه على الواعظ أن يتملق نقائص الشعب عن طريق القصص التوضيحية تدعم الفكرة القائلة بأن القصص شر لابد منه. ومثل هذا المنطق ربما يساعد على بيع الكتب والأفلام، لكنه سيقنع الرعاة الواعين بأن القصص التوضيحية هى التى تسحر بعض الوعاظ.

الأسباب الصحيحة:

هناك أسباب أفضل لتقدير الصور التوضيحية. فقد لمح (دوسون برايان) فى بداية هذا القرن إلى هذه الأسباب، فيما كان يستكشف أراض لم يسبق أن طرقها أحد. وقد جادل بقوله إن المستمعين، يتخذون قراراتهم بشكل نمطي بالأكثر استناداً إلى "المعرفة البصرية" وليس بالحجة اللفظية. وهذا الادعاء الجرىء يتحدى الأفكار القديمة بأن القصص التوضيحية تجعل العظات أكثر قبولاً، وتشويقاً، وبساطة.

وكان برايان يعتقد أن للقصص قدرات تفسيرية وتحفيزية فريدة. وقد عرف أنها تساعد الحاضرين على الإنصات، لكنه أراد أن يثبت أيضاً أن القصص تغيّر الفكر والأفعال. والأمر المحزن، أنه عند هذه النقطة تعدى حدود فهمه. فدراسات التواصل لم تكن قد تقدمت إلى الحد الذى يسمح له بأن يثبت صحة ادعاءاته.

وقد أكد تحليلنا ما خمّنه (برايان)، فالقصص التوضيحية تفعل أكثر من مجرد عبادة الفكر. فهى تقنع، وتحفز، وتحرك الإرادة، وتلمس القلب، وتفسر، وتدفع إلى اتخاذ القرار. ونحن فى هذا الفصل نستكشف بشىء من التفصيل قيمة استخدام قصص حياتية فى الوعظ، وبهذا نبرر استخدام الواعظ لها، ونبرز كيف استخدم الرب هذه الطريقة ليوصل الحق بشكل رائع. ولسوف يكتشف القراء أن الكتاب المقدس لا يعرفنا أنه استخدم القصص فحسب، بل وإن القصص توفر طرقاً جديدة لفهم حكمة الأسفار المقدسة.

المعنى والقصة

إن عملية كلام الله معنا من خلال الأسفار المقدسة تبرز أهمية القصة بالنسبة للوعظ. وكما ذكرت فى الفصل السابق، إن كانت التعبيرات البشرية الأولية تتطلب خلفية من قصص مشتركة لتوصل المعنى بطريقة

فعالة عبر المسافات، والاختلافات بين الأشخاص، هنا لا يمكن المبالغة في تقدير اعتماد النص الكتابي على القصة. ولكي يتبنى المؤمنون ويعيشون حسب المقاصد الأبدية في أيامنا هذه، لابد وأن يوصل لنا الكتاب المقدس تعبيرات سامية عن الحق الأبدي عبر العصور المختلفة، كي تصل إلى ملايين لا حصر لها "من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة" (رؤ ٧:٩). والقصة تجعل هذه المهمة ممكنة. ومن خلال قصص الكتاب المقدس، تقدم لنا الحكايات نظاماً يستخدم العلامات، كان ضرورياً لكي يبلغنا بالأفكار الكتابية.

ولا تظهر المكونات اللفظية للأقوال الكتابية بشكل واضح نتيجة عوامل الزمن، والمسافة والاختلافات المجتمعية. فالافتراضات وحدها لا تستطيع نقل المعنى عبر الفجوات الفكرية التي يجب على الأسفار الكتابية أن تغطيها. والقصص تساعد الحقائق الأبدية على عبور القرون والحضارات. والشكل القصصي احتاج إلى افتراضات في سياق اختباري يتيح إشارة إلى محتواها اللفظي، حتى فيما توفر الافتراضات مادة فكرية ولغوية تسمح للقصص أن تأخذ شكلها. وبدون الافتراضات تظل القصص بدون هيكل، غير أن الافتراضات لا يكون لها معنى ثابت بدون القصة. واستعمال الكتاب المقدس لكل من الافتراضات والقصص يؤكد حساسيته، ويكشف عن عبقريته. وقد كتب (چون كيلنجر) يقول:

"إن الكتاب المقدس يتوافر فيه هذا التوازن. فهو صورة وقصة، كما سبق لنا القول، لكنه أيضاً شريعة وتاريخ، وأمثال وفلسفة. وهو يتناوب هذه النواحى، ولذلك أُعطيت القصة دائماً محوراً عقلياً، والأقوال دائماً ما تصحبها قصة مجاورة.

ولا يفترض كتبة الأسفار فى أى مكان أن الأقوال الافتراضية وحدها، سوف تربط المجتمعات والأفراد بقيم الكتاب المقدس.

إن أهمية القصة فى توصيل الحقائق الثابتة وفى تغيير الحياة إلى ما بعد آفاق الكتبة الأصليين، أمر واضح جداً. وكل ديانة عالمية كبرى لديها تقريباً مجموعة ثابتة من القصص فى قلبها، وهى ضرورية بالنسبة للنص (شفهياً كان أم تحريرياً) تسجل رؤيتها الروحية. وقد أصبحت القصص، بالغريزة أو عن عمد، أمراً ضرورياً فى نسيج أية ديانة حتى لا يتمزق تصميمها الأساسى. وهكذا، يشير التاريخ بصفة مستمرة إلى أن أولئك الذين يودون تحدى أية ديانة يبدأون بهجوم على القصص الكتابية.

إقامة مجتمع

تعد القصص إشارة قوية تسمح للواعظ والمستمع اكتساب مفهوم مشترك على أساس ناحية من نواحى الخبرة. وحين يُنظر إلى الحقائق الافتراضية من خلال هذه القصص التعليمية، فإن فهم المعانى والقيم

الكتابية يكون مشتركاً من خلال مجتمع إيمانى. وبدون هذه العلامات الخاصة بإيجاد رؤية مستمرة للحقيقة فلسوف تتعرض قيم المجتمع للتغيير، كما أنه سيفقد روابطه الوثيقة. فبناء الكنيسة، واستمرارية الإيمان يتطلبان المشاركة فى القصص التى يتشارك فيها الأفراد بالمشاعر والعواطف والقرارات، وخبرات أولئك الذين يناصرون أو يمثلون المجتمع.

إن خسارة القصة تعنى خسارة المجتمع، لأنه بدون قصة، سيتعين على الكنيسة أن تصيغ سياقات جديدة كى تفهم افتراضاتها فى إطارها ،ونتيجة لذلك تواصل تغيير معانيها . والقصص الثابتة أو على الأقل المشتركة، لا تعوق تطبيقات جديدة لقيم المجتمع، لكنها تعوق بالفعل مجتمعاً بدون قيم.

ويفسر (ستانلى هورووز) ذلك بقوله:

"إن ما نطلبه ليس عدم وجود قصة، بل قصة حقيقية. ومثل هذه القصة هى التى نمد بها المسافر مع تدريبات ونظم مناسبة لفحص الذات. ويعتقد المؤمنون أن الكتاب المقدس يقدم مثل هذه القصة. وهناك نجد روايات كثيرة عن عمل الله مع خليقته. وقصة الله لا تقدم حلاً لمصاعب الحياة، بل تقدم لنا ما هو أفضل، حيث تقدم مغامرة وكفاحاً، لأننا نمتلك الأخبار السارة بأن الله دعى الناس معاً ليعيشوا أمناء لحقيقة أنه رب هذا

العالم وسيده. وقد وُعد الناس أجمعون أنه من خلال كفاح شعبه للعيش في أمانة، فإن الله سوف يستصلح العالم لملكوته. ويتعلم المؤمنون دورهم في هذه القصة، قائلين إن لديهم قصة بوسعها أن توفر بشكل جوهري نفساً مناسبة لصراعات هذا الوجود التي لم تُحل، والتي كثيراً ما تكون مأساوية. فوحدة النفس لا يتم الحصول عليها بالمعرفة العالمية، بل بالعيش في أمانة لقصة لا تتنكر لتنوع وجودنا.

ولكي يشارك الأفراد والمجتمعات القيم رغم تنوعهم، حيث يفصلهم الزمن، والجغرافيا، والظروف، فيجب أن يتم هذا عن طريق قصص تسمح بأن تُعاش من خلالها هذه المبادىء، أو يُعاد اختبارها مرة ثانية.

ولا تشكل الافتراضات وحدها "وسائط" كافية بين القيم السامية وشعوب معينة. ورجال الفكر اللاهوتي والوعاظ يجب وبضمير حي أن يكافحوا لكي يحفظوا أقوالهم وثيقة الصلة بالقصص التي تقر معتقداتهم وتفسرها. ولقد كتب (مايكل جولدبرج) في هذا الخصوص قائلاً:

لا "الحقائق" ولا "خبرتنا" تأتي إلينا غير مترابطة، وفي حُزمٍ مفككة تنتظر ببساطة تطبيق المبدأ الأخلاقي المناسب. بل تكون في حاجة إلى قصة بوسعها أن تربط حقائق اختبارنا معاً في نموذج متماسك، وهكذا وبفضل تلك القصة اكتسبت، قواعدنا ومبادئنا وأفكارنا النظرية، وضوحاً

كاملاً.

ويأتى الحق الكتابى حياً، ذا معنى، ويصل إلينا عبر سياق القصص التى تكون بمثابة "علامة" سامية، تغطى الحضارات والأفراد، حيث تمكن الآخرين من المشاركة فى خبرات ذلك المعنى.

ترسيخ الحقيقة

إن السير وفق علامة إرشادية والذى تقدمه لنا قصص الكتاب المقدس لا يثبّت فحسب القيم الكتابية لأجيال المؤمنين المتعاقبة، بل إنه يشكل حصناً للإيمان ضد هجمات نظرية النسبية التى برزت فى القرن العشرين. والنمط النموذجى لهذه الهجمات نجده فى تلك التى شنها (إرنستو جراسى) فى كتابه "الخطابة كفلسفة: التقليد الإنسانى". فقد كتب يقول: "وليس الاقتراب من النصوص المقدسة الدينية مقصوراً على أفراد قلائل فحسب، بل كذلك الحال أيضاً بالنسبة لاحتمالات الميتافيزيقا، وهى علم يحدثنا عن "جوهر الإنسان". ويؤكد (جراسى) أن الأسفار المقدسة ليس لها معنى حقيقى لأنه لا يمكن إثبات أن لها معنى محدد. وينتهى نصير الفلسفة الإنسانية الحديثة هذا، إلى أن الاقتراب إلى الحق الإلهى أمر مستحيل نتيجة خطين متوازيين من الاعتبارات.

الحق القائم على القناعات الدينية:

يعد الخط الأول هو الأكثر وضوحاً، والأكثر قبولاً من الناحية التقليدية. ويشير (جراسى) إلى أنه بالنظر إلى أن موضوع الديانة وأصولها لا يمكن إثباتهما من الناحية العلمية، فإن النصوص المقدسة لا يمكنها أن تكشف المطلقات بشكل منطقى لكل إنسان. وهذه الملاحظة ليست جديدة، وهى فى الواقع تتضمن افتراضاً أساسياً لمعظم العقائد البروتستانتية (والكاثوليكية الحديثة بعيداً عن اللاهوت المدرسى). والخطوط الأساسية للبروتستانتية الغربية، بحسب ما جاءت فى تعاليم هيدلبرج الشفهية، وفى الاعترافات الإيمانية البلچيكية واعتراف لندن وفيلادلفيا، واعتراف وستمنستر. ففى حين أنها تقدر الأدلة التجريبية لحقائق الإيمان، إلا أنها مع ذلك تؤكد أن النتائج الأساسية الجوهرية تعتمد على القناعات الدينية. وكتب لاهوتيو وستمنستر يقولون: "ومع ذلك، وعلى الرغم من (هذه الأدلة الخاصة بالسلطان الكتابى)، فإن قناعتنا ويقيننا الكاملين عن الحق المعصوم والسلطان الإلهى إنما تأتيان من العمل الداخلى للروح القدس الذى يشهد مع الكلمة فى قلوبنا وبواسطتها (إقرار الإيمان الويستمنسترى).

فالمسيحية القويمة لا تسمح لنفسها بأن تتقيد بالدلائل المادية. وكلمات المناقشة الدينية التى ينسبها (جراسى) إلى اللاعقلانية، هى الحقائق التى

سبق الاعتراف بها فى الأرثوذكسية.

تحدى المذهب الذاتى:

أما خط الجدل الثانى الذى اتّبعه (جراسى) فهو أقل من الناحية النموذجية. فهو يجادل بأنه حتى وإن كان من الممكن إثبات المفاهيم الإيمانية من الناحية العلمية، فإنها ستظل نسبية. وينضم (جراسى) إلى زمرة فلاسفة القرن العشرين الذين بينوا كيف أن العلم الحديث يتعامى عن ذاتيته. فحتى العلماء ليس فى وسعهم أن يروا إلا فى ضوء ما فهموه. فافتراضاتهم تعتمد دائماً على المعرفة والسياقات السائدة، تماماً مثلما تراجعت طبيعيات (نيوتن) أمام نظريات (أينشتاين)، ونظريات النسبية لنظريات الكم. ويظل الفكر العلمى السائد قائماً على أساس الاختبار، حسب التيار التجريبي السائد أو خبرة الذى يقوم بعملية التقييم. وهكذا، فإنه، حتى ولو نجحت الديانة فى اختبار الدليل التجريبى، فسوف يظل الإيمان ذاتياً. وفى النهاية، لا يمكن لشخصين أن يتشاركا فى نفس ظروف المعرفة على وجه الدقة، ومن ثم، فإن فكر كل منهما -على الرغم من عقلانيته- سيكون قاصراً على ذلك الشخص. والديانة التجريبية ستظل ذاتية وغير قابلة للإبلاغ، طبقاً لفكر القرن العشرين.

إن طبيعة أفكار الكتاب المقدس تمكننا من تحدى النتائج التى انتهى

إليها (جراسي) فيما يتعلق بعدم وضوح الرؤيا بالنسبة للإيمان. وحتى وإن كانت الأحاديث الدينية افتراضية، والعقلانية ذاتية، فلا يمكن للإيمان أن يكون أمراً يتعذر الوصول إليه وغير قابل للإبلاغ، إلا إذا كانت افتراضات الديانة زائفة. ولقد أوضح (كيرنيليوس ڤان تيل)- وهو من أعظم المدافعين عن الإيمان فى هذا القرن العلمى، أن مبدأ الفرضية ليس هو النسبية أو الذاتية. فالعمل فى إطار مجموعة محددة من المبادىء أو المستويات المعيارية المتماسكة، والمتناغمة منطقياً، والتى يمكن إبلاغها، لا تكون نسبية إذا ما أنار الروح القدس الذهن، وفتح القلب، ووجّه الإرادة. وعيون الروح -إذا ما استخدمنا عبارة الكتاب المقدس- لابد منها، إذا كان لنا أن نعرف شيئاً عن الله. وهذا لا يعنى أن كل واحد يفهم الأسفار المقدسة، لأن الروح يذهب حيث يشاء (يو ٣:٨). ومع ذلك، فإن هذا لا يعنى أن الكنيسة فى حاجة إلى الاعتذار عن مبدأ الذاتية لا لشىء سوى أن الحقيقة ليست ظاهرة للجميع. فليست الذاتية أو النسبية هى التى تدفع المبصر إلى الهرب من ثور هائج، بكل بساطة لأن الأعمى لا يراه. والهرب دون معرفة سبب الهرب أو ممر الأمان سيكون أمراً نسبياً، غير أنه بالنظر إلى عمل الروح القدس الذى يفتح العيون الروحية، فإن هذه لا تكون حالة المؤمنين أو إيمانهم. فالمسيحية ليست نسبية لأنها غير تجريبية.

مرآة القصة:

ولا يكون المفسر بدون هداية اختبارية فى الطريق الذى يقوده فيه الروح القدس لفهم الكتاب المقدس. فالأحداث التاريخية المسجلة فى الفقرات القصصية تعكس، وتكشف، وتثبت المعانى الخاصة بافتراضات الحق المسيحى التى تصاحبها. وملامحها الحية تقدم سياقاً اختبارياً متناغماً، يمكن أن يوضح ويُفهم. وعلى سبيل المثال، وطبقاً لكاتب سفر العبرانيين، فإن نواحى النظام الموسوى فى العهد القديم ما هى إلا "شبه السماويات وظلها" (عب ٨: ٥). أما تفاصيل هذه الرموز، إلى جانب استعمالها، فقد وُضحت بعناية لأنها كانت هامة جداً للرسالة التى قالها الله من خلالها. وهذا هو سبب التحذير الذى وُجّه لموسى حين كان على وشك أن يبنى خيمة الاجتماع: "انظر أن تصنع كل شىء حسب المثال الذى أُظهر لك فى الجبل" (عب ٨: ٥). ويوضح الرسول بولس سبب التنظيم الدقيق لتوضيحات العهد القديم: "ظل الأمور العتيدة وأما الجسد فللمسيح" (كو ٢: ١٧).

ويصنف كتبة الأسفار المقدسة نظاماً مزدوجاً للعلامات، وضعه الروح القدس من خلال رسائلهم- فرموز العهد القديم وقصصه، ما هى إلا علامات تشير إلى المسيح. ونحن نفهم الأقوال التى تتحدث عنه (أو التى يقولها هو) على نحو أكمل بسبب مجموعة مادة العهد القديم التوضيحية

التى هيأت فهم عصر العهد الجديد له. وفى الوقت ذاته، نجد أن قصص العهد الجديد التى تتناول عمل المسيح الفدائى، تنعكس عل ملامح العهد القديم، حيث توضح معانيه ومقصده بشكل أكمل. وعلامات كل عهد منهما تعكس صور الآخر، حيث تُعكس رسالة كل منهما وتتوضح بالأكثر بالصور التى يتضمنها كل عهد والتى تتعلق بالعهد الآخر.

شرح الأسفار المقدسة

إن المسيح هو الصورة والرسالة الأساسية للمجتمع الكتابى التاريخى. فهو يوضح كل الصور الكتابية السابقة والتالية، غير أنه لا يمكن رؤيته، أو معرفته، أو فهمه دون الصور المحيطة التى تحدده. فقصة حياته يمكن فهمها بفضل القصص التى سبقته وهيأت الوضع لفهمه. ومع ذلك فإن القصص السالفة تزداد فى الوقت ذاته وضوحاً بواسطة قصص حياة المسيح، وتكشف الأناجيل عن المعنى الكامل للأحداث السابقة.

والطرق التى يُرسخ بها المعنى الافتراضى ويُحفظ بواسطة القصة يمكن توضيحها فى إطار السجل الكتابى. وعلى سبيل المثال، فإن مفهوماً رئيسياً لناموس العهد القديم والفكر اللاهوتى للعهد الجديد يتمثل فى الأمر الذى تضمنته الوصايا العشر: "لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً... لا تسجد لهن ولا تعبدهن" (خر ٢٠:٤-٥). والمعنى المفترض يبدو واضحاً

بما فيه الكفاية حيث يجب أن يُعبد الله دون منافس من أعمال أيدى البشر. ومع ذلك، فإن شعب العهد القديم، إذ كانت الحضارات الوثنية تحيط به من كل جانب، ناضل باستمرار للحصول على الرسالة. وهكذا، كرر الله هذا الشرط الذى هو ضمن شروط العهد فى أقوال نبوية إضافية، لكنه لم يعتمد فقط على الأصداء الافتراضية. فإيجاد معنى الوصية وتفسيره كان يتم تدعيمه بسلسلة من القصص التى أعطت تحديداً اختبارياً لمضمونها الافتراضى. فالقصص أوضحت معنى منع الوثنية. وقد سمحت للأفراد فهم ما رمت إليه الوصية بأن كشفت مضمونها الافتراضى فى عبارات اختبارية. وفى ذات الوقت، أكدت القصص الكتابية أن القيم الحضارية قد نُقلت بفاعلية حين تم ربط الافتراضات بالقصص.

مرايا نحاسية:

يعد رمز الحية النحاسية التى رفعها موسى فى البرية (عدد ٢١) من قصص العهد القديم الرائعة التى توضح العناصر التى تقيد الوقت فى قصة تعتمد على نظام العلامات. فقد أخطأ شعب إسرائيل، وعوقبوا بوباء حيات سامة. وقد أمر الله موسى أن يعمل حية نحاسية، ويضعها على راية، وأن يخبر الشعب أن "كل من لُدغ ونظر إليها يحيا". والقصة لم تطبق فى الحال على المحظورات الماضية الخاصة بالعبادة، أو بالاهتمامات المستقبلية الخاصة بها، غير أن مضامين القصة التاريخية أصبحت لها

أهميتها فى تطوير فهم كتابى شامل لما يعنيه أن تُطاع الوصية التى صدرت ضد الوثنية.

ولا نعرف مدى براعة موسى المهنية فى ورشته الصحراوية، لكن بوسعنا أن نخمن أن حيته النحاسية كانت تمثيلاً معقولاً للحيّات التى كانت تؤذى الأسباط. ومع ذلك، فإن ما ابتدعه موسى أصبح أكثر من مجرد رمز لحيّة. فباعتبار أنها تشير إلى حق مفترض، فقد اكتسبت معنى خالداً. فإذ تُستخدم كخريطة لفهم أعمق، فإن الحية النحاسية تُعد علامة خاصة توضح عهداً يُفهم ضمنياً، بين الرب وشعبه. فإلى جانب تمثيلها للحيّات التى على الأرض، كانت الحية النحاسية تشير إلى هذا العهد: إذا ما نظرتم إلى هذا الشىء الذى يمثل الإيمان بالله، فلسوف تختبرون شفاء إلهياً. وهكذا أصبحت الحية النحاسية مؤشراً مضاعفاً مرتين. فعلى المستوى الأدنى فهى ترمز إلى الحيات المميتة، وعلى مستوى أعلى، فهى ترمز إلى العهد.

ومن ناحية العهد وتنمية المجتمع، فإنه من الحيوى أن نلاحظ أنه فى القصة، نجد أن الحية النحاسية كمؤشر، لم تكن تشير إلى نفسها، بل كانت تشير دائماً إلى الشىء الذى ترمز إليه. فالحية على العمود، لم تكن سامة، بل كانت تمثل ما كان ساماً.

ويتحديد أكثر، لم تكن الحية النحاسية تشفى أحداً، بل كانت تشير إلى يد الله الشافية، وظلت هكذا لشعب الله فقط، وحين نُظر إلى الرمز على أنه المرموز إليه، نتجت حالة الوثنية. حيث لم تعد إسرائيل تنظر إلى الصورة النحاسية على أنها اليد التى تشير، بل اليد التى تعطى الشفاء فعلاً، هنا أصبحت الحية مصدر ضلال للإيمان، وباتت ممقوتة من الله.

تسوير الحقل:

لتوضيح المسافة اللازمة بين ما يشير إلى الله، والجوهر الإلهى، قدّم الروح القدس قصة أخرى مستعملاً نفس تشبيه الحية. فحزقيا الملك "كسر التماثيل وقطع السوارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى لأن بنى إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها" (٢مل ١٨: ٤). فاستخدام الرمز أو إساءة استخدامه فى القصص التاريخية التى وردت فى سفرى العدد والملوك، خلقت أسواراً لتحديد مجال المعنى بالنسبة لمنع الوثنية. والرمز الذى كانت له مرجعية مباشرة كان له معنى أوسع. فالأجيال تحدد معاييرها. وإذ رؤى أن هذه القصص ترسخ مثل هذه المعايير، بواسطة توضيحات إيجابية، وأمثلة سلبية، كان من شأن ذلك أن وسع فهمنا فى استخدامها لترشيح حقائق افتراضية.

والقصة التى يكون لنفس الحية النحاسية فيها دورين متناقضين أحدهما

إيجابى والآخر سلبى، تخلق جدلاً يكون بمثابة فكرة توضيحية للوصية التى تحرم الوثنية. فالقصص تعلّم كلاً من المجتمعين المسيحى واليهودى بأنه يتوجب أن تكون هناك دائماً مسافة بين ذاك الذى يشير إلى الله، والله نفسه. وحينما تُؤخذ تلك الأشياء التى ترمز إلى عهده على أنها تتضمن فى ذاتها العهد بالفعل، أو تنشطه، فإنها تصبح أوثاناً بدلاً من أن تكون علامات للنعمة، وبهذا تنتهك الوصية.

فالتراث المسيحى فى أشكاله الصحيحة لا يمكن أن يسمح للرمز أن يصبح الجوهر، أو أن يحد الله فى شيء. فالأشياء تشير إلى الله فحسب، ولكنها ليست هى الله.

تجديد الصورة:

إن الطابع الجدلى لهذه القصص لا يخلق سياقاً لتفسير الوصية المضادة للوثنية يكون صالحاً فى جميع الأزمنة والحضارات فحسب، بل إن القصص تقدم أيضاً علامة تشير إلى رسالة المسيحية الأساسية وتوضحها. وتعود الحية النحاسية للظهور فى العهد الجديد. ذلك أن يسوع، فى معرض تنبؤه عن صلبه، وضّح المغزى الروحى لرفعه على الصليب، وذلك بتشبيهه برفع موسى الحية النحاسية: "وكما رفع موسى الحية فى البرية هكذا ينبغى أن يرفع ابن الإنسان. لكى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة

الأبدية" (يو ٣:١٤-١٥). لقد كانت الصورة الصحيحة لاستعمال الحية والأخرى غير الصحيحة أمامه، لذا فإن كلمات الرب يسوع "جددت" الرمز التى كانت تشير إليه الحية النحاسية. لأنه استخدم الرمز مرة ثانية كعلامة تشير إلى قوة شفاء عهد الله، الذى أُعلن فى المخلص، والذى يُقبل بالإيمان. أما الرمز الجديد للعهد (أى، رفع ابن الإنسان على الصليب)، فقد شُرح، على الأقل جزئياً، وذلك بمعالجة القصة للرمز القديم. ومعنى الصليب لا يمكن أن يكتمل من الإشارات إلى القصص السابقة، ولكن الكثير من مغزى الجلجثة يمكن فهمه من خلال العلامات الدقيقة السابقة.

ومع تأكيد القصص السابقة وتوضيحها، يفهم قراء العهد الجديد أن الشفاء المقدم بواسطة المسيح قائم على الإيمان بأن أولئك الذين ينظرون إليه سيحيون. وبفضل نفس القصص يفهم المؤمنون بالعهد الجديد أن هذا الإيمان هو وحده سبب شفائهم، حيث إنه ما من عمل تم بأيدى البشر يمكن أن يُنظر إليه على أنه له فى حد ذاته قوة شفائية. وتضفى قصص العهد القديم مصداقية تاريخية، وفهماً اختبارياً لافتراض العهد الجديد بأن الصليب وحده هو مفتاح الحياة. وقد تم حفظ رسالة النعمة التى أُعلنت فى الصليب، وتطورت بشكل أشمل فى الكتابات الرسولية (على سبيل المثال، أف ٢:٨-٩)، كذلك تم التنبؤ بها، بالقصص التى سبقتها، وحددتها، ووضحتها.

وكما يتضح من استخدامات قصة الحية النحاسية، فبوسع القصص الكتابية أن تشكل نظام علامات، له القدرة الحضارية على نقل القيمة التي تضمن لنا حقاً افتراضياً. وبربط الحق الافتراضى، بتفسير القصة، يحرر الروح القدس الكلمة من الأقوال التى يمكن أن تكون خاصية حضارية، أو قيداً زمنياً، وتحريفاً فردياً. وإذ يخلق العهدان نظاماً، تشكل فيه أول مجموعة من العلامات توجهات لتفسير المجموعة الثانية، والتى هى بدورها تحدد مغزى العلامات الأولية، فإن كتبة الأسفار المقدسة يخلقون نظام إيمان يمكن الوصول إليه مهما كان الزمن، وأياً كان المكان. ويظل النظام مرتبطاً بافتراضاته. إن قصص الكتاب المقدس، إذ تدعمها أقوال افتراضية مباشرة، وحقائق تاريخية، فإنها تخلق مفهوماً كتابياً يمكن استرداده، وتكراره، ومشاركته. والقصص المصاحبة للافتراضات الكتابية تؤكد تواصل القيم الكتابية بطرق لا تستطيعها الافتراضات وحدها.

شرح القصة

إن القصص الكتابية لا تساعدنا فقط على فهم كيفية تواصل المعانى والقيم بشكل متناغم، لكن استخدامها الدينى يساعد الوعاظ أيضاً على فهم كيفية توصيل رسالة الله، وبوسعنا أن نقلّد النموذج المقدّم فى الكتاب المقدس، والذى يعمل كسابقة وكمعيار لشرحنا للحق الكتابى. وبالنظر إلى أن الحقائق الكتابية موجودة فى إطار القصة، فإن تكرار هذه الحقائق

-أو على الأقل تفسيرها- لا يجب فصله عن شرح القصة. فالتوضيحات المأخوذة من مواقف حياتية، قد تنقى فهم المستمع لمعنى الفقرة، بنفس الطريقة التى يستخدمها الكتاب المقدس ذاته.

محاكاة الكتاب المقدس:

إن القصص التى تستند إلى موقف من واقع الحياة تقلد القصص التى تسهل المعنى، وتنقل القيمة من خلال القصص الكتابية. وقدرة القصص القائمة على موقف حياتى، على أن تخلق جسوراً من الحق عبر الاختلافات البشرية الواسعة وُضّحت بشكل رائع بقصة تقترب الآن من الألف الثانى لاستعمالها. فالقصة الآتية والتى لم تفقد شعبيتها إطلاقاً تروى رسالة العناية الإلهية فى مواجهة بلية ظاهرة وهى قصة تتحدث عن الراباى (عقيبة) بعد دمار الهيكل الثانى.

"فى القرن الأول، العامر بالاضطرابات، سافر الراباى ذات مرة إلى بلد غريب حيث كانت الطقوس الغامضة لا تزال باقية. وقد أخذ معه ممتلكاته الثلاثة، حماراً، وديكاً، ومصباحاً. وتوقف ليلاً فى قرية كان يأمل أن يجد فيها مأوى.

وحين طرده أهلها، اضطُر أن يقضى الليلة فى غابة مجاورة. لكنه تحمل كل الآلام بصبر، وكان يقول: "كل ما يعمله الله يتم على وجه

حسن". وهكذا وجد شجرة توقف تحتها، وأشعل مصباحه، وتهيأ لقراءة التوراة بإيجاز، قبل أن يخلد للنوم. لكن ريحاً قوية هبت، وأطفأت لهب المصباح، ولم تترك أمامه أى خيار سوى أن ينام. وفى وقت لاحق من تلك الليلة جاءت حيوانات مفترسة وطاردت الديك فهرب. وبعد ذلك بوقت قليل، مر اللصوص وسرقوا حماره. ومع ذلك، كان الراباى يتقبل كل حالة ببساطة قائلاً: "كل ما يعمله الله يتم على وجه حسن".

فى اليوم التالى عاد إلى القرية التى سبق أن توقف فيها الليلة السابقة، وهناك عرف أن جنود الأعداء جاءوا ليلاً، وقتلوا كل من فيها وهم فى فراشهم. ولو كان قد قضى الليلة السابقة هناك لكان هو قد لقى حتفه أيضاً. كذلك عرف أن الأعداء سافروا عبر نفس الجزء الذى نام فيه فى الغابة. ولو كانوا قد رأوا ضوء المصباح، أو نهق الحمار، لكان فى هذه الأحوال قد قُتل أيضاً. وكيف استقبل الراباى هذه الأخبار؟ بكل بساطة قال كعهده دائماً: "كل ما يعمله الله يتم على وجه حسن".

إن قصة الراباى هذه تأتى كمعالجة دفاعية قديمة لأحد موضوعات الكتاب المقدس والذى يتسم بصعوبة بالغة وهو: كيف يمكن أن يكون الله صالحاً، ومع ذلك يسمح للشر بأن يقع فى عالمه أو لأتباعه؟ ومع ذلك، فالقصة شهيرة، ليس لأنها تتناول بشكل مباشر المشكلة القديمة المتعلقة بالدفاع عن عدالة الله، بل لأنها تتكرر فى الظروف المشابهة.

ويستخدم (تشارلز سويندول) قصة بها كثير من الملامح المماثلة كى يوصل سر العناية الإلهية وأمانتها للمؤمنين فى الوقت الحاضر:

"كان هناك شخص يشارك أباه فى زراعة قطعة أرض صغيرة. وكانا يقومان، عدة مرات فى السنة، بتحميل عربة قديمة يجرها ثور، بالخضروات، ويذهبان إلى أقرب مدينة لبيع منتجاتهما. وفيما عدا اسميهما وقطعة الأرض الصغيرة، فإن الأب وابنه لم يكن بينهما أى شىء مشترك. فالرجل العجوز كان يؤمن بأخذ الأمور ببساطة. أما الابن، فكان دائماً فى عجالة من أمره، وكان من النوع المغامر المتهور.

وفى ذات صباح، قاماً مبكرين، وربطا الثور بالعربة المحملة، وبدآ رحلتهما الطويلة. وقد رأى الابن أنهما لو أسرعا فى سيرهما، وواصلا السير ليلاً ونهاراً، فلسوف يصلان إلى السوق، باكراً فى صباح اليوم التالى. وهكذا أخذ ينخس الثور بعصا، يستحثه على الإسراع فى السير.

قال الرجل العجوز: "أنت ستظل مدة أطول". ولكن الابن جادل بقوله:: "لكن إذا ما وصلنا السوق قبل الآخرين ستكون لنا فرصة أفضل فى الحصول على أسعار طيبة. لم يعلق الأب على ذلك. كل ما فعله هو أن غطى عينيه بقبعته واستسلم للنوم فى مقعده. وإذ كان الابن الشاب يتململ ساخطاً، فقد أخذ ينخس الثور ليسرع ى سيره. لكنه رفض بعناد

أن يغير خطوه.

وبعد أن أمضيا أربع ساعات، قطعا خلالها أربعة أميال من الطريق وصلا إلى بيت صغير. استيقظ الأب وابتسم قائلاً: "هذا هو بيت عمك. لنتوقف ونسلّم عليه". فرد الابن شاكياً: "لكننا قد فقدنا ساعة الآن". فأجاب الأب بهدوء: "إذاً لن تضرنا بضع دقائق أخرى. فأخي وأنا نعيش متقاربين، ومع ذلك نادراً ما نتقابل".

كان الابن يتململ وقد استشاط غضباً، فيما كان الرجلان العجوزان يضحكان ويتبادلان الحديث لمدة ساعة تقريباً. وعندما تحركا ثانية، أخذ الرجل دوره في قيادة الثور...

وعند غروب الشمس وجدا نفسيهما فيما كان يبدو في حديقة رائعة كبيرة. فتنفس العجوز عبير الأزهار في سعادة، وأخذ يصغي إلى خرير الماء في الغدير، وأوقف الثور عن السير، وتنهد قائلاً: "هيا نأخذ قسطاً من النوم هنا".

فرد الابن غاضباً: "هذه آخر مرة أخرج فيها في مهمة معك، فأنت تهتم بمشاهدة غروب الشمس، وتنسم عبير الأزهار بأكثر من اهمامك بأن تكسب المال". ابتسم الأب قائلاً: "إن هذا أجمل شيء قلته منذ مدة طويلة". وبعد بضع دقائق كان يغط في نومه، بينما كان الولد يحملق في النجوم غاضباً".

كانت ساعات الليل تمضي متثاقلة بطيئة، فيما كان الولد يتململ قلقاً.

وقبل شروق الشمس أسرع الابن يوقظ أباه. فقاما وربطا الثور بالعربة، واستأنفا طريقهما. وبعد سيرهما ميلاً واحداً تقريباً صادفهما مزارع آخر -غريب تماماً- يحاول أن يسحب عربته من حفرة انغرست فيها.

قال الرجل العجوز هامساً: هيا نساعده. فانفجر الولد قائلاً: "ونفقد مزيداً من الوقت"! "اهدأ يا بنى.. قد تقع أنت أيضاً في حفرة فى بعض الأحيان. ونحن يجب أن نساعد كل محتاج، لا تنسى ذلك". أشاح الابن بوجهه فى غضب.

كانت الساعة تقترب من الثامنة صباحاً حين نجحوا فى إخراج العربة من الحفرة. وعلى حين غرة، ظهر وميض هائل فى السماء. وتبع ذلك ما يشبه الرعد. أما وراء التلال فقد بدت السماء مظلمة.

قال الرجل العجوز: يبدو أن مطراً غزيراً ينهمر على المدينة، فتذمر الولد قائلاً: لو كنا قد أسرعنا، لكنا قد بعنا ما لدينا الآن".

فرد الرجل العجوز الطيب ناصحاً: هوّن عليك يا بنى.." أنت ستظل مدة أطول"، ولسوف تتمتع بالحياة بأكثر من ذلك بكثير.

وقبل أن تغرب الشمس كانا قد وصلا إلى التل المطل على المدينة.

فتوقفا وأخذا يحدقان فى المدينة لوقت طويل جداً، دون أن ينطق أحدهما بكلمة واحدة. وأخيراً، وضع الشاب يده على كتف أبيه وقال: "لقد فهمت ما تعنيه يا أبى".

لقد حولا وجهة العربة، وشرعا ينسحبان فى بطء بعيداً عن تلك البقعة التى كانت تُعرف قبلاً باسم "مدينة هيروشيما".

إن قصة التلمود التى ذكرناها سابقاً وقصص الأناجيل تأتى من مصادر واحدة وعلى الرغم من اختلاف ثقافة اليهود القدماء عن ثقافة الأمريكان الإنجيليين فإن القصص توحّد فهمهم للمضمون.

عبور الثغرة:

إن هذه القصص -على الرغم من تباينها فى بعض التفاصيل- إلا أنها تعكس "نموذجاً قصصياً" متناغماً، يعبر الاختلافات الحضارية ويوصل مفهوماً دينياً. والقيود الزمنية والحضارية للقصة واضحة بنوع خاص فى هذه القصص المتشابهة بطريقتين واضحتين. أولاً: وجود مجتمعين مختلفين اختلافاً شاسعاً فى الناحية الدينية ويجدان صعوبة كبيرة فى التواصل على مستويات أخرى، نجدهما فى الواقع يشتركان في بعض القيم الدينية من خلال هذه القصص. والشعبان المتباينان يمكنهما من الناحية الفعلية إعادة الدخول فى جو القصة وإعادة اختبار ما تضمه من حقائق، وبوسعهما

أن يتشاركا فى عنصر تفاهم دينى على الرغم من الاختلافات. وتُظهر القصص قدرة بالغة على نقل المعانى والقيم لشعوب يفصل بينهم الزمن، والمسافات، والظروف، والنظم الدينية.

السمو على المنطق:

ومع ذلك، فلعل أمراً يعد أكثر وضوحاً بالنسبة لقيمة القصص، قد وضحته هاتان القصتان، تم إثباته بنوعية الحق الذى توصلانه. وقد بيّنتا كيف أن القصص المأخوذة من واقع الحياة توضح الحق وتدعمه. ومع ذلك، فإن الدفاع عن عدالة الله -التناقض الظاهرى فى الديانة والذى يجب أن يثبت أن الله ينجز الخير من خلال الشر- يخلق شخصاً افتراضِياً. ولكى نفهم أن الدفاع عن عدالة الله يعتمد على المنطق وحده، فهذا ما لن يقنعنا أبداً. ومع ذلك، فإن القصص لا تعتمد على مجرد المنطق أو القياس المنطقى فقط. فالقيم التى يجد العقل المنطقى أنه من الصعب جداً إثباتها، تصبح مقبولة ويمكن فهمها من خلال الخبرة. فالقصص التى تعتمد على موقف حياتى، توصل بوضوح التأكيد الاختبارى والذى لا تستطيع الأقوال الافتراضية سوى الشروع فى تفسيره. وما نؤكده بقولنا: "أنا أعرف، أو أستطيع فهم ذلك، أو لقد كنت هناك "يحمل بين طياته أهمية شخصية بالغة بأكثر مما يحمل من اختصارات مجردة".

فالقصص الحياتية والتى تشرك المستمعين شخصياً، تخلق دليلاً تفسيرياً. فنحن نتقبل ما اختبرناه بأنه حقيقى، بأن له أساساً من الحق. وحتى فى حالة عدم استطاعتنا من الناحيتين المنطقية والافتراضية، أن نجد معنى فى الرسالة ككل، فإننا "نفهم" صدقها إذا ما عشناها. وهكذا فإن القصص التوضيحية التى تدمج القصص الاختبارية، يمكن أن تكون وسائل فعالة للتفسير الكتابى، فى الوقت الذى قد تفشل فيه الافتراضات وحدها. ومثل هذه القصص قد تطلب استنتاجات، وتخلق تأكيدات لا يمكن أن ينقلها المنطق الضعيف ولا الأقوال الجريئة.

الجزء الثاني

الطريقة:

تكوين القصص التوضيحية



لقطات من الحياة:

تعليمات

إن القصة التوضيحية ما هى سوى لقطة من لقطات الحياة. وهى تستأثر حالة نفسية، أو لحظة، أو ذكرى، فى إطار قصصى، وتعرض شريحة الحياة هذه ليفهمها العقل ويعرفها القلب. ولو كان للوعاظ أن ينتفعوا بفاعليات القصة السابق مناقشتها، فلسوف يتعين عليهم أن يضعوا قصصاً تعكس المبادىء التى تجعل منها أدوات قوية للاتصال. وتصنيف الظواهر، أو دراسة كيفية معالجة العقل للمعلومات، لا تفيد كأدوات تفسيرية توضح كيفية عمل القصص فحسب، بل إنها تعمل أيضاً كمرشد يبين كيف تنشىء قصصاً توضيحية.

وفيما ننتقل الآن من التفسير إلى العمل، فنحن والحال هذه فى حاجة إلى تعليمات. ويتعين علينا فهم الإجراءات التى تتبع فى معالجة العقل للمعلومات، إذا كان لنا استخدامها فى تكوين قصص فعالة. وعلى الرغم من أن الخطوات التى ستُتبع يمكن تحليل كل منها على حدة، تقريباً، إلا أن العمليات الفعلية تعتمد كل منها على الأخرى في تعاون متبادل.

وصف:

يعد الوصف هو مهمتنا الأولى. وعلينا قبل أن نفهم أية خبرة، أن

نعزلها عن التفاصيل غير الجوهرية والافتراضات الخارجية التى تتدخل مع وصفنا لهذه الخبرة. والقصص التى تُستخدم كتوضيح لحقائق معينة يجب أن تكون خبرات "محصورة" ، أى بمعزل عن الخبرات المحيطة. فنحن نستخلص الأحداث من واقع الحياة، ونخلصها من التفاصيل غير الأساسية والتى قد توصل مبادىء أخرى. وهذا الإجراء الخاص بإنشاء قصص توضيحية قائمة على مواقف حياتية، هو موضع تركيز الفصل التالى، وعنوانه "تكوين الصورة" .

الاختصار:

إن الاختصار هو الخطوة الثانية فى تحليل الظواهر. ونحن فى هذه الخطوة نحدد جوهر التجربة التى حصرناها . وتتكون العملية من "التفكير ملياً فى أجزاء التجربة... ونتخيل بشكل نظامى كل جزء منها على أنه موجود فى التجربة أو غائب عنها" . وهذا الإجراء يختزل التجربة بحيث لا يتبقى منها سوى ضرورياتها ، وذلك حتى لا يكون من شأن التفاصيل غير الجوهرية، والاهتمامات الثانوية أن تعقّد التحليل أو تعتم عليه. يستأثر راوى القصة اهتمام المستمعين (أى يحصرهم فى حدود القصة)، وذلك باستبعاد التفاصيل التى تشتت انتباههم، أو التفاصيل غير الكافية، التى يمكنها أن تحولهم بعيداً. أما كيف نختصر القصة بهذه الطريقة، فهذا هو موضوع معظم الفصل السادس "ملء الإطار".

التفسير:

أما الخطوة الأخيرة فى دراسة الظواهر فهى "التفسير". حيث يستعمل الواعظ نتائج المرحلتين السابقتين لاستخلاص النتائج المتعلقة بالتجربة. والتفسير يمحص المعلومات من ناحية الوصف والاختزال لفهم ما يكمن فى التجربة من معنى أو قيمة. وما لم يكن هناك تفسير، فلن يكون فى هذه الحالة أى معنى. فعلى الوعاظ أن يفسروا القصص التى يستخدمونها، لأن المعلومات الخام لا تفسر نفسها. وهكذا، فإن القسم الذى تحت العنوان "تركيز الصورة" فى الفصل السادس، سيشير إلى طرق للتأكد من أن السامعين يفسرون التوضيح أو القصة بالشكل الذى يريده الواعظ.

ملحوظتان:

علينا أن نتأمل نقطتين مهمتين قبل تطبيق هذه المبادىء على القصص التوضيحية فى العظات. الأولى بهدف أن تكون تذكِرة إعادة تنشيط أشكال العظة التقليدية دون تغييرها بشكل جوهرى، وبهذا نتجنب العداوة والجمود من جانب التناولات الأكثر ثورية (انظر الفصل الأول). وببحث ما يمكن أن تعمله القصص القائمة على مواقف حياتية، ومرد ذلك، أن يكون القصد هو اكتشاف سبل فى إطار الوعظ التقليدي، بوسعها أن تعزز أهداف الوعظ المعاصر، دون التخلى عن قيم الأمس. ولم يكن

الهدف هو اقتراح فحص جذرى للعظات، أو شجب الأشكال المعاصرة، بل لتحديد ما إذا كان هناك مبرر يمكن الدفاع عنه يبرر إعادة استخدام القصص التوضيحية بمزيد من الفعالية والتبصر أم لا! وهذه الدراسة تشجع استخدام وسيلة الوعظ التاريخى، الذى أكد البحث فى طرق الإبلاغ إمكاناته الهائلة فى نقل المعانى والقيم.

وهذا الاهتمام الموجّه لإلقاء الضوء على أفضل ما تقدمه العظات التقليدية من فكر، يسيطر على الجزء الثالث من هذا الكتاب. فى حين أن النظرية الأساسية التى طُبقت فى هذه الفصول تستخدم بعض العبارات من أجل توضيح مبادىء تواصل المعلومات، إلا أن الكاتب يعلم جيداً الأساسيات الفلسفية -والحدود الروحية- لهذا "العلم". وكان من شأن ذلك، أن الأعمال التى استُشهد بها كانت فى غالبيتها ترجع إلى مصادر وعظية. وتشير هذه المصادر إلى أن أزمة التواصل فى الوعظ، يمكن التخفيف منها إلى درجة كبيرة بأن نسمح للبحث فى طرق إبلاغ المعلومات، أن يعيد تأكيد ما سبق أن كان موضع تخمين كثيرين من الوعاظ، أى فائدة القصص التوضيحية المستمدة من مواقف حياتية.

أما الأمر الثانى المستمد من هذه المحاولة فهو الكشف عن مبادىء القصص التوضيحية القائمة على موقف حياتى فى إطار التوقعات التقليدية. ولا يقصد بالمناقشات التالية أن تشير إلى أنه لا يوجد سوى

طريق واحد صحيح لتقديم هذه القصص. فدراسة الظواهر تقدم لنا منظوراً نستعرض من خلاله هذه المكونات الوعظية، ولكنها لا تتضمن بأى حال القول الفصل بالنسبة لما يجب أن يكون عليه الوعظ. وهذه الخطوط الإرشادية لا يُقصد بها أن تكون معياراً لجميع القصص التوضيحية. بل الهدف منها أن تقترح سبلاً يمكن أن تُستخدم القصص فى إطارها بشكل فعّال فى الوعظ التفسيرى، وبطريقة تتناغم مع البحث السليم. والوعظ التفسيرى، باعتباره من أكثر الصيغ الوعظية كلاسيكية، لا يتطلب هنا تحديداً شاملاً. لأن هدفه الأول هو تفسير نص ما لشعب الكنيسة. والعظات فى هذا التقليد تستخدم القصص بقصد إظهار معنى النص، وهكذا، فإن القصص لا تشكل جوهر العظة. فالتوضيحات فى الوعظ التفسيرى تميل إلى أن تكون قصصية، وموجزة (بالنسبة لحجم العظة).

الفصل الخامس

تخيل الصورة

بينما كنت أقود سيارتى فى منتصف الليل فى طريق عودتى إلى البيت -بعد اجتماع فى الكنيسة استمر مدة أطول من اللازم، استنفد جهدى وصبرى، أدرت المذياع كى أشعر بشىء من الاسترخاء. وإذ كنت فى سيارتى، يلفنى الليل، وقد بدأت أحس بالهدوء لاستماعى للموسيقى، شعرت بالتوتر وقد بدأ يتلاشى. وإذ كنت شارد الذهن، أخذت أردد نغمات البوب Pop فوجلبرج يغنى أغنية عاطفية مشهورة:

"أكثر من السمك فى المحيط

وأعلى مما يستطيع الوصول إليه أى طائر

وأكثر من نجوم السماء

كنت أحبك".

وفجأة طرأ على بالى خاطر. وقلت فى نفسى إنى أستطيع أن أستخدم كلمات هذه الأغنية لشرح محبة الله الأبدية المشار إليها فى (أف ١ :٤-٥). فالأغنية مأخوذة من اختبارهم الثقافى، وإذا ما عزلت هذه الكلمات المألوفة، وربطتها بالمبدأ الكتابى الأقل ألفة، فإننا نستطيع أن نولّد الارتباط والفهم.

اعزل واربط

مجرد انتزاع أغنية كان المحفز لعملية صارت بدورها أول خطوة فى

براعة التوضيح. فأنت كواعظ عليك أن تعزل حدثاً ما، أو محادثة، أو مفهوماً، أو علاقة في اختبارك واربطها بالمبدأ، أو المفهوم الذى تريد أن تتحدث عنه. وبهذه الطريقة تقدم خبرة مُعاشة لمستمعيك يمكنهم من خلالها أن يضعوا سياقاً لفكرك ويفسروه. والمستمعون ليسوا فى حاجة إلى أن يبحثوا عشوائياً فى اختباراتهم لينتقوا أحداثاً تفسر ما قيل- وهى عملية غير فعالة، وكذلك فهى خارج نطاق براعتك كمتكلم. فيتعين عليك أولاً أن تعزل اختباراً يتعلق بموقف حياتى يمكن أن يجد المستمعون علاقة لهم به، نتيجة اختبارات مماثلة خاصة بهم، ثم اربط هذه التجربة بالمفهوم الذى تريد توصيله.

لكن عملية العزل والربط ليست فى حاجة لأن تتبع هذا النظام فقد ترى حدثاً، أو سلسلة أحداث تأتيك وليدة اللحظة وتذكرك بمفهوم مرتبط به (مثلما ذكرتنى الأغنية الشعبية بمحبة الله). ثم تحفظ هذا الحدث المعزول بعيداً فى ذاكرتك، أو فى مفكرتك، حتى تكون جاهزاً لعملية الربط. لكن العكس يمكن أن ينجح أيضاً. فبمقدورك أن تضع مفهوماً أو افتراضاً، ثم تغامر فى رحلة عبر ذاكرتك ومفاهيمك لكى تعزل وتصطاد خبرة مرتبطة تمكنك من أن تعرّف الآخرين ما تعنيه.

"منذ فترة مضت كنت أكافح لأجد طريقة كى أشرح بها مفهوماً للكفارة فى عظة كنت أعدّها. وكانت العناصر اللاهوتية واضحة أمامى، أما

ناحية المفاهيم فسبق أن قصصتها فى العظة: مطاليب الله من ناحية القداسة، والخطية فى بذل الله ابنه التى أتاحت للبشرية مقابلة ما يطلبه الله. وكانت المشكلة تتمثل فى كيفية أخذ هذه الأفكار اللاهوتية التجريدية وجعلها حقيقية ومفهومة بالنسبة للشخص العادى.

ثم حدث ذات يوم أن طالباً كانت زوجته على موعد مع الطبيب، أحضر معه لحجرة الدراسة ابنته البالغة من العمر أربع سنوات. وبعد انتهاء الدرس، رأيت الأب وكان يجمع حاجيات ابنته، الدمية المحشوة التى كانت على شكل دب، والقطع المختلفة الخاصة بلعبة اللغز، والبطانية التى كانت تحتمى بها من البرد، وقطعة حلوى لم تكن قد أكلت غير نصفها، وفيما هو يجمع هذه الأشياء، أخذ حقيبته المليئة بالكتب اللاهوتية الثقيلة ووضعها على ظهر ابنته قائلاً: "أرجوك أن تساعدينى فى حمل بعض هذه الأشياء يا حبيبتى. ابتسمت ابنته، ولكنها حين شعرت بثقل الحمل بعد دقيقة واحدة، نظرت إلى والدها صارخة: "أرجوك يا أبى، ساعدنى، لا أستطيع أن أتحمل هذا العبء، وفى الحال أخذ الأب هذا الحمل مع بقية الأشياء التى كان يحملها من قبل. وهنا جاءتنى الفكرة.

كما أن هذا الأب طلب شيئاً من ابنته ومع ذلك أخذ هو الحمل على نفسه حين عجزت عن حمله، هكذا أيضاً يتعامل أبونا السماوى مع كل واحد منا فى الكفارة. فالمتطلبات التى عجزنا عن استيفائها، استوفاها

الآب نيابة عنا، بأن أخذ أثقال خطيتنا وحملها هو نفسه من خلال موت المسيح على الصليب.

وعلى ذلك فإن عملية العزل والربط من الواضح أنها يمكن أن تتقلب. لكن محتواها يظل ثابتاً، وتبدأ براعة التوضيح حين تقوم كواعظ بحصر عنصر تجربة أو اختبار كي تتيح لسامعيك فرصة الوصول إلى مفهوم مرتبط بها، وأياً كان تسلسل الأحداث، فكل من العنصرين يعملان معاً. وما لم يعملا معاً، فلن يتقدم الفهم بشكل فعال.

يتحدث (لويس ليمان) عن ذلك فيقول:

"منذ عهد قريب، سمعت واعظاً قديراً ومعروفاً كان يتحدث في الإذاعة عن المسيح "خبز الحياة". وفجأة انخرط في وصف زيارة كان قد قام بها لأحد المطاعم في نيويورك، متخصص في جميع أنواع الخبز. فقد استطعت أن أشم الأرغفة الطازجة فور نضجها مباشرة، والبخار يتصاعد منها مما جعل منظرها شهياً. وكان مذاقها رائعاً وخاصة بالجبن ذي النكهة المميزة، أو البصل اللذيذ. ولكنني تساءلت، ما هي النقطة التي يريد إيضاحها؟ ولدهشتي، لم يكن هناك تطبيق لهذه القصة، لقد قدم مثالاً دون أي تفسير.

وبدون الارتباطات لن يكون للاختبار أي معنى بالنسبة للمستمع.

وعلى نفس المنوال، ما لم يمكن عزل الاختبار عن الاختبارات الأخرى، فلن يكون له أي معنى. وليس بمقدورنا أن نربط بين أفكار وأحداث ليس لها بداية ولا نهاية، ولا خلفية ولا تطور، بل وليس لها أية تفاصيل يمكن التعرف عليها، وليس لها وضع أو نتيجة. فالأحداث دون سمات تعزلها ما هي سوى عتامة.

أمور عادية لها شأنها:

يجب أن ينمي الواعظ الذى يريد أن يبتدع قصصاً توضيحية القدرة على عزل الاختبارات وربطها. ولكي تفعل هذا، فإن الطريقة العادية للنظر إلى العالم وبصفة خاصة، باعتباره موكباً ماراً أمامك، ليس له أهمية ما لم يأت مهرج ويشد انتباهك، يجب أن تتوقف، فكل ما يمر أمامك من شكل، أو لون، أو ظل، يحمل بين ثناياه توضيحاً. ويجب على الواعظ أن ينظر إلى العالم الذى يمر أمام عينيه، كما ينظر المصور عبر عدسة آلة التصوير، حيث يتخيل فى لحظة واحدة الحدث تلو الآخر، والنتيجة تلو الأخرى. وما يبدو أنه أمر عادي للعين له أهمية للفنان. ويتعين على الوعاظ وبصفة مستمرة أن يأخذوا لقطات لأحداث الحياة، العظيمة منها والعادية، حتى يوضحوا الهدف الذى يرغبون توصيله لمستمعيهم. ولا يجب أن يمر شيء فى الحياة دون أن يفحصوه. وإذا كنت تأمل أن تجيد التوضيح، فلا تنتظر فى سلبية وكسل أن يقدم لك العالم

شيئاً هاماً كي تلاحظه. بل بالأحرى، عليك أن تأخذ من العالم الكنوز التي لا يلاحظها الآخرون. فهناك جمال في بركة الوحل التي يعملها الطفل، وهناك أبهة زائفة في المناطق التجارية في المدينة، وهناك حزن في حظيرة متهالكة، ما على الواعظ سوى أن يراها.

لقد رأى المرنم "السموات تحدث بمجد الله" (مز ١٩)، ورأى أجور عناية الله في البيت الصخري الذي يتخذه الوبار (أم ٣٠:٢٦). وأنت أيضاً بمقدورك أن ترى مثل هذا، وأن تظهر مثل هذا، إذا التزمت بأن تسرد الحقائق الاختبارية التي يستطيع الناس أن يشعروا بها ويفهموها. ولكن هذا لا يعني أنه بمقدورك، أن تنظر إلى أي شيء أو حدث ثم تسأل: "وما الذي يوضحه هذا؟". فمثل هذا التركيز سيسلبك الحركة في الحياة وتمتعك بها. ومع ذلك، إذا كنت واعظاً، فبمقدورك أن تفتح ذهنك لتتقبل طيفاً من نور وحياة، مما لا يراه الآخرون عادة. فأنت ترى في العادي ما يكشف عما هو سامٍ. فعينك خبيرة مدربة. وبالرغم من أن الآخرين يرون ما تراه، ولكنهم لا يرونه بنفس طريقتك.

كتب (إدجار چاكسون) يقول:

"أستاذ في الرؤية يركز عينيه على سيده، الذي استخدم فرصاً مماثلة بطريقة فعالة للغاية. فقد أخذ مواقف الحياة العادية وملأها بمعنى جديد.

كان قادراً على تصوير المشاكل فى قصص وجيزة حتى يمكن للناس أن يروا مشاكلهم مجسدة أمامهم. وحين استطاعوا رؤية العلاقات بموضوعية، استطاعوا أن يمعنوا النظر فى مشاكلهم. وواصلوا حياتهم بأمل جديد، وشجاعة جديدة، وإحساس جديد بالهدف، لأنهم وجدوا علاقة جديدة بإلههم. وقد ساعدهم يسوع، أستاذ الفكر الصائب، على أن يروا أنفسهم على حقيقتها.

وإذ تبين الحقائق للآخرين فى إطار اختبارهم لعالمهم، فإنها لا تساعدهم على فهم المبادىء اللاهوتية فحسب، بل تمكنهم من رؤية عالمهم وحياتهم بطريقة جديدة.

القصص المأخوذة من واقع الحياة:

إن القصص التوضيحية التى تعزل اختباراً لموقف حياتى، وتربطه بحق ما، تعيد خلق الوسيلة التى بواسطتها يتعرف المستمعون على المعانى ويفهمونها.

وقد كتب (كليفرلى فورد) يقول:

"من المعترف به أن الاقتباس من دانتى، أو ديماس، أو دوستيوفسكى أود يكنز، أمر مثير، لكن ما يتقبله المستمعون باستعداد أكبر يتمثل فى الإشارات التى يستخدمها الواعظ ليشير بها إلى أشياء، أو أحداث، أو

تعليقات الناس، التى سبق له أن رآها وسمعها بنفسه "فى الماضى القريب فى نفس المنطقة". فالقصة التوضيحية المستمدة من البيت المهجور فى الشارع التالى، أو عقب عاصفة وقعت منذ عهد قريب، أو معرض للزهور، أو تمثيلية جارى عرضها، هى النوعية الأكثر نفعاً.

وهذه القصص التوضيحية لا تكشف عن حقائق عميقة بشكل سهل يمكن استيعابه فحسب، بل إنها تعلم الناس أيضاً أن يروا حياتهم فى ضوء هذه الحقائق. وليس معنى هذا التقليل من شأن استخدام الأمثلة التاريخية، والأمثلة، والأساطير، والتشبيهات المجازية، وصور التوضيح الأخرى، ولكن هذه الأشكال تزداد فاعليتها، إذا ما كانت تصف خبرة عامة تنتسب إليها، وذلك فى صورة عواطف مألوفة، مشاكل يمكن التعرف عليها، سمات شخصية، أو مواقف مماثلة، يمكن للمستمعين أن يروا أنفسهم فيها.

كتب (ليهمان) يقول:

"إن القصة التوضيحية هى قطعة من الحياة، وخلفية معروفة للمستمع، يصدقها بجملتها، حتى إن أقل وصف يمكّنه من فهمها والتعايش معها. ما عليك سوى أن تحث ذاكرته أو ضميره، إلا وتراه فى الصورة، وليس مجرد مشاهد لها. وإذا كانت القصة التوضيحية حسنة التناغم، وجيدة



القصة يمكن أن تكون ضمنية بدلاً من أن تُذكر، أو تُفترض أكثر مما تُلفظ بوضوح. لكن القصص التوضيحية التي تتضمن اختبار المستمع نفسه للحق، عادة ما تكون أكثر من مجرد تشبيه بلاغي، أو إلماحة، أو استراحة. وهكذا فحين يقول (دوسون برايان): "يجب أن تكون كل قصة توضيحية كاملة من الناحية الفنية في صياغتها شأنها في ذلك شأن القصة القصيرة"، فإنه بهذا لم يكن يؤيد البناء الجيد فحسب، بل كان يستعيد شكلاً أساسياً قوياً من أشكال توصيل المعلومات القوية.

وبالنظر إلى أن القصص تُعد حيوية لتوصيل المعلومات بشكل فعال، فمن ثم يجب أن تأتي مبادىء سرد القصة كخطة منظمة لتحديد ما يجب أن تعمله القصص التوضيحية، والشكل الذي يجب أن تكون عليه. ويقترح (برايان) أربعة مقومات رئيسية للقصة الجيدة (١) يجب أن تكون لها بداية. (٢) يجب أن يكون لها ثمة عمل. (٣) ويكون لها هدف. (٤) تنتهي بنتيجة ما. ويكون للقصة التوضيحية مقدمة وتفاصيل وصفية، وحركة (فعلية أو عاطفية)، وأزمة، وخاتمة. وتبين بقية هذا الفصل كيف تبدأ قصصاً توضيحية باستعمال الأساليب القصصية. ويشرح الفصل السادس كيف تقدم القصص وتُختتم طبقاً لنموذج قصصي.

تقديم القصة التوضيحية

عادة ما تبدأ القصص التي تُستخدم في الوعظ بمقدمة، وذلك لجذب

الانتباه، وتمهيداً للدخول في الموضوع، فإن القصص التوضيحية تحتاج إلى بدايات لافتة للنظر، ولا سيما لأنها كثيراً ما تقال فى إطار فقرة تفسيرية، أو لتشكل خطاً فاصلاً بين النقاط الرئيسية. وما لم تُقدم القصة التوضيحية بشكل سليم، فقد تضيع ملامحها الرئيسية، ويتلاشى تأثيرها المقصود.

ويبدأ الوعاظ -فى غالبية الأحوال- القصة التوضيحية بالقول المستهلك "دعونى أصوّر لكم.."، أو بالعديد من الأقوال المختلفة عن هذا الموضوع مثل: "نحن هنا أمام توضيح أكثر روعة لهذا المفهوم الروحى.."، أو "ربما تدركون هذا التميز بشكل أفضل بواسطة توضيح واحد مقتبس من.."، أو "ها هو اختبار، مأخوذ من الصحيفة وهو يضفى حيوية لما أقصده...". ويصف (دين كيمبر) ويحق هذا الأسلوب الخاص بالمقدمة التوضيحية بأنه يفتقر إلى الاتساق. وبدلاً من أن تُشرك المستمع فى اختبار الحق الذى تتناوله، يبدو أن مثل هذه البدايات تضع جداراً بين التوضيح والحق الذى تريد توضيحه.

إن (مقدمة القصة بطريقة تقليدية) عندما تطرحها فى سياق العظة، يظهر خطأ التوضيح بدلاً من أن يظهره كجزء من التدفق الطبيعي لفكرك. بل والأسوأ من ذلك أن هذه الأساليب الجريئة ثبت أنها قد تكون نافعة أو ضرورية، غير أنه يجب عدم الإسراف فى استعمالها، إذا كنت تود حقاً أن

تشرك الحاضرين فى فكرك. وقد كتب (كيمبر) يقول: "تفقد الأمثلة والتوضيحات قوتها إذا ما قُدمت بعبارة مثل" والقصة التوضيحية الجيدة لهذا هى..."، فهذا يعطى الانطباع بأن الواعظ يحاول أن يبيع قصته.... وبمقدور جمهور الكنيسة أن يعرف التوضيحات دون أن يُقال له ما هى. فالأقوال التمهيدية اللازمة لتهيئة المستمع تبدو غير ضرورية، إذا ما كان أسلوبك يشير إلى أن ثمة توضيح آت.

تروس التغيير:

تمثل القصة التوضيحية بمعناها الحقيقى فاصلاً يأتى قبل فقرة شرح وعظية أو بعدها. وهى على هذا النحو، تُعد تغييراً فى تدفق الأشياء- وليست توقفاً فى العمل كتروس التغيير. ومن أبسط السبل الفعالة، لتقديم التوضيح هى ببساطة أن تتوقف، وأن تدوس على دواسة القابض -إذا جاز التعبير- لكى تهيىء الفرصة لتروس التغيير، وهذا مناسب بصفة خاصة حين يكون الشرح نفسه قد وصل إلى موجز حافل بالمعنى. حينئذ يكون المستمعون متهيئين ذهنياً لتقبل فكر جديد.

وعلى سبيل المثال، إذا كنت بصدد الوعظ عن أعمال الملك شاول الشريرة الواردة فى (١صم ١٣)، فبوسعك أن تختتم الشرح بهذا القول المقتضب "الذين يظنون أنهم يعبدون الله بطرق أفضل من تلك التى

وصفها الله، لا يخدعون إلا أنفسهم. فليس بمقدورك أن تعمل وصية الله وفى الوقت ذاته تكسر كلمته. ولكن ماذا بعد؟ إذا انحرفت الآن إلى القول الضعيف: "دعونى أوضح..."، فأنت بهذا تضعف قوة العبارة الأخيرة. وكثيراً ما يكون من الأفضل أن تدع قوة العبارة "فليس بمقدورك أن تعمل وصية الله وفى الوقت ذاته تكسر كلمته". تتردد فى صمت رهيب ثم تستخدم بعد ذلك قوة تلك القصة لتوضح النقطة فى الحياة الواقعية. ولو كنت قد اختتمت تفسيرك بمثل هذه العبارة القوية، لكنت قد خدمت ذلك الحق بأن جعلت كلماتك التالية مؤثرة، مثل هذه:

قرع رجل أعمال -ودون توقع- على باب بيتى منذ عدة ليال مضت. ونظرة الألم التى ارتسمت على وجهه، أخبرتنى فى الحال أن هناك أمراً ما يزعجه للغاية. دعوته للدخول، وجلس. وخلال الساعتين التاليتين، والدموع تنساب من عينيه غالبية الوقت. أخذ يشرح لى أن تجارته تعتمد إلى حد كبير على إنتاج وبيع المجلات الإباحية. وذكر أنه على مدى سنوات من استغلال النساء والأطفال والإساءة إليهم، أصبح يعذبه السؤال ما إذا كان عليه أن يواصل عمله أم لا. فالنظرة التى رآها فى عينى طفل فى صورة معينة كانت توجع قلبه وباتت الآن تزعج ضميره. لكنه قال إنه لا يستطيع أن يترك عمله. فأمن عائلته ومستقبلها يتطلب منه أن يواصل عمله هذا، الذى رسخ مركزه، وأصبحت له الأولوية فيه، وحقق له معاشاً عند

الشيخوخة.

ما الذى يريده منى؟ إن ذلك الرجل يريدنى أ ن أؤكد له أنه إذا ما وهب ٢٠٪ من دخله للكنيسة، فإن عمله سيكون سليماً أمام الله. والواقع إنه كان يقول: "إنه لمن مصلحتى ومن مصلحة الله أن أحتفظ بعملى هذا، ومن ثم، أكد لى أن هذا يتمشى مع إرادة الله.

ولكنى لم أفعل. بل شرحت بكل هدوء وأمانة ما سبق أن قلته لكم يا أصدقائى للتو، وهو "ليس بمقدوركم أن تعملوا وصية الله وفي الوقت ذاته تكسرون كلمته".

لقد ازدهر هذا الرجل بواسطة تجارة تمتص دم الإنسان، وتهدد عدوى تلك القذارة مستقبل أسرته ومستقبله الأبدى. وبالنسبة للذين يتمسكون بالحجج الزمنية فإن هذا الرجل يكسر كلمة الله، وإرادة الله تهتم بعواقب تمتد إلى أكثر من ذلك بكثير. فلا هذا الرجل، ولا أى شخص هنا، بمقدوره أن يعمل وصية الله ويكسر كلمته.

ولا يمكن لأية مقدمة متكلفة أن تسلب من هذه القصة الشخصية مأساويتها. وإذ تتجنب انخراطك فى الرسالة، وتبعد نفسك عن مستمعيك بأن "تضعهم فى مكانهم" بالصيغة القائلة: "دعونى أوضح لكم" قد يكون من شأن ذلك أن يحطم القوة المؤثرة للقصة التوضيحية. فالقصص

التوضيحية الجيدة تأتى كنتيجة مباشرة لتأملك فى الكلمات التى قلتها والحقائق التى كشفت عنها. وتقديم هذا الفكر دون براعة في تعبيرات عامة وبأساليب عفا عليها الزمن تبدو غير نافعة. وقد كتب (لويد پيرى، وچون ستروبار): "لا تتحدث عن التوضيح، عليك أن توضح فحسب. والتوقف لحظة يكفى لتقديم كثير من التوضيح. ويمكنك أن تجمع بين لحظة التوقف (أو تستبدلها) بتغيير فى سرعة الإلقاء، أو حتى تغيير فى التعبيرات، ولسوف يعرف المستمعون تلقائياً أنك غيرت التروس.

تشريح السياق:

إن ما تحاول إنجازه بقصة توضيحية يجب أن يحدد الكلمات الفعلية التى تقدمه بها. وإذا كان الباحثون المحدثون فى وسائل الاتصال محقين فيما ذهبوا إليه، فإن التوضيح هو أكثر من مجرد شرح بديل أو توضيح لاحق. وباعتباره شريحة حياة أُعيد خلقها وُضعت لتشمل المستمع فيما تصفه، فيجب أن تعزل التوضيح من أحداث وانطباعات أخرى. ويجب أن تنقل مستمعيك إلى عالم آخر. إن ظروف اختبار مستمعيك يجب أن تكون العلامة التى تحدد بها ما تقدمه للمستمعين. قدّم القصة التوضيحية بعبارات مألوفة تبرز الاختبار الذى وُصف فى ذات الوقت والمكان.

الانفصال والوقت:

استعمل الرب يسوع تعبيرات الفصل الزمنى لتقديم مَثل الفعلة فى

الكرم "فإن ملكوت السموات يشبه رجلاً رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه" (مت ٢٠ : ١). وملامح زمنية فى مثال طلب الأرغفة فى منتصف الليل تأتى فى مقدمته. فقد قال "من منكم يكون له صديق ويمضى إليه نصف الليل ويقول له يا صديق أقرضنى ثلاثة أرغفة..." (لو ١١ : ٥). وبتعريف الزمن الذى وقعت فيه أحداث القصة التوضيحية، يحرر المتكلم ذهن المستمع من الزمن الحاضر ويتيح له أن يعيش فى عالم آخر. ونحن نوضح هذا كآباء حين نبدأ بالبديهية فى أن نقول لأولادنا حكايات نبدأها بقولنا. "حدث ذات مرة..."، وهذا المبدأ لم يبطل استعماله أبداً. وإذا كان عليك أن تبدأ قصة بقولك: "كانت الساعة تشير إلى خمس دقائق قبل منتصف الليل، ومع ذلك كانت لاتزال غائبة عن البيت..."، فإنك بهذا تنقل سامعيك إلى بُعد من الاختبار منفصل عن المقاعد التى كانوا يجلسون عليها الساعة الحادية عشرة والربع صباحاً. غير أنه وعلى الرغم من ذلك، فإن هذا اختبار يمكنهم أن ينسبوه إلى أنفسهم، ويمكن أن تُبنى عليه المفاهيم المرجوّة.

استخدم (دونالد جراى بارنهاوس) ذات مرة سياقاً زمنياً لتقديم رواية عن محادثة شخصية شرح فيها كيف نصل إلى السماء:

"لنفترض أن شخصاً ما جاء إلى هناك (أى إلى بيتك) فى الثالثة صباحاً، ووضع سلماً يصل إلى نافذة فى الطابق الثانى، وابتدأ يتسلق

السلم، ماذا ستفعل فى هذه الحالة؟ قال الرجل: "حسناً، أعتقد بأنى سأطلق عليه الرصاص". قلت له: "ماذا يعطيك الحق فى أن تقتل رجلاً؟ على أى حال، ألا يستطيع أى شخص أن يأتى إلى بيتك بالطريقة التى تروق له؟ فأجاب: "كلا". وهنا قلت له: "إنك تقول بأنه فى استطاعتك أن تأتى إلى سماء الله بأية وسيلة وفى أى وقت، ومن أى نافذة تختارها. لقد وضع الله القادر على كل شىء قواعد محددة وإيجابية، لابد منها لدخول سماواته- وهى قواعد محددة كتلك التى تضعها حضارتنا- فأنت إذا ذهبت إلى بيت شخص ما، عليك أن تقرع الباب، أو تدق الجرس. وكما قال ذلك الألمانى: "لو لم يفلح الجرس- اقرع. اعمل ضوضاء، واصعد بالطريقة التى يقررها مالك البيت.. ولقد عمل الله الشىء نفسه. فقال: أى واحد يمكنه الدخول، ولكن يجب أن يأتى عن طريق صليب يسوع المسيح.

الانفصال فى المكان:

يمكن لتعبيرات الانفصال المكانى أن تقدم أيضاً قصة توضيحية. وقد بدأ الرب يسوع مثل الأرملة بقوله: "كان فى مدينة قاض..." (لو ١٨:٢). ومكان القصة أكثر وضوحاً فى مقدمة مثل الفريسى والعشار، حيث قال الرب يسوع: "إنسانان صعدا إلى الهيكل ليصليا.." (مت ١٨:١٠). وهنا أيضاً من المهم تذكر أن هذه التعبيرات الخاصة بالانفصال المكانى،

هى أكثر من مجرد طريقة للدخول إلى القصة. فهى تبدأ القصة بتحديد اختبار ما، حتى يمكن التعرف عليه، وفهمه، والارتباط به. ويمكن للذهن أن يتصور مكاناً وكذلك لحظة، إذا ما قدمت قصة وكانت تمثل شريحة من جغرافية اختبارنا.

تبرز من مستنقعات تقع شمالى السفانا، بولاية چورچيا مباشرة، كنيسة تاريخية اسمها أورشليم. وقد بنى سكان سالزبورج اللوثريين هذه الكنيسة فى القرن الثامن عشر بعد أن اغتصبوها من الوطنيين. لقد قدم الچنرال (أوجليثورب) أرضاً مجانية لأولئك الذين يحمون السفانا من الهنود، ودفع الإيمان أهل سالزبورج إلى إقامة مدينة (أبينزير الجديدة). والاسم مأخوذ من الصور الكتابية الأكثر متانة من المستنقعات التى تحيط بالمدينة. وأخطار الأرض والأمراض الناجمة عن المستنقعات أهلكت القسم الأعظم من المستوطنين الأوائل. غير أنه ما من شىء يمكن أن يحول بين هؤلاء اللوثريين الأشداء وتحقيق أغراضهم. فالرجال القلائل الأشداء المتبقين منهم اعتلوا السقالات ليرفعوا الآجر إلى الجدران الضخمة لكنيستهم. وكانت النساء تشكلن وتحمصن الطفل الرملى. أما الأطفال فكانوا يحملون المواد لكليهما. وإلى يومنا هذا نجد بصمات الأطفال واضحة على السطح الخارجى للآجر. وحين تتخيل فى ذهنك هؤلاء الأطفال الصغار وهم ينقلون الآجر الذى لم يستطع أن ينقله آباؤهم المرضى أو

الذين فارقوا الحياة، ينفطر قلبك لذلك. لكنى أعرف أن هؤلاء الأطفال يريدونك بالأحرى أن تتشجع. لأن بصمة كل طفل منهم تُعد تذكرة قوية على أن الله يمكنه أن يستخدم حتى صغار هذا العالم لأغراضه الدائمة. وقد ظلت هذه الكنيسة تشهد لأمانة الله لقرون، وكان ذلك نتيجة جهود الأطفال. فليس أحد مهملاً فى ملكوت الله.

انفصال الموقف:

يمكن أن يجتمع انفصال الزمان والمكان فى مقدمة أية قصة. ومن هنا جاءت عبارة "منذ زمن بعيد جداً جداً، وفى مجرة بعيدة للغاية..." فى مقدمة حكايات "حرب الكواكب". وهذا الجمع يذكرنا بأن الاختبار ليس محدوداً فى بُعد أو اثنين فقط. ولذلك فإن مقدمة أية قصة قد لا تشير بشكل واضح إلى زمن أو مكان منفصل بقدر ما تشير إلى موقف منفصل. والموقف يمكن أن يُحدد بالشخصيات التى يتضمنها (علاقاتهم، إنجازاتهم، أو أنشطتهم)، بالحدث الذى يُعاد سرده (تأثيره، أهميته، أو تقدمه)، أو بتأملك استجاباتك الداخلية تجاه الحدث، أو القصة أو العلاقة. وفى مقدمة مثل الزارع قال الرب يسوع ببساطة: "الزارع قد خرج ليزرع" (مت ١٣:٣). ولم يُذكر أى زمن أو مكان معين، ولكن على الرغم من ذلك، تم تحديد موقف معين- موقف حياة يمكن للشعب أن يتعرف عليه فى الحال. ونفس الشيء ينطبق أيضاً على كثير من أمثلة الملكوت حيث قال

يسوع: "يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها إنسان وزرعها فى حقله.." (مت ١٣: ٣١)، أو "يشبه ملكوت السموات كنزاً مخفى فى حقل.." (الآية ٤٤)، أو قوله أيضاً "يشبه ملكوت السموات إنساناً تاجراً يطلب لآلىء حسنة..." (الآية٤٥)، أو "أيضاً يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة فى البحر وجامعة من كل نوع..." (الآية ٤٧). ولم يُذكر أى زمن أو مكان محدد فى أى من هذه العبارات التمهيدية، ومع ذلك يشير كل منها إلى موقف يمكن التعرف عليه بسهولة.

ويقتبس واعظ القرن التاسع عشر العظيم (تشارلز سبرجن)، من البيورتيانى (توماس مانتون)، الذى أخذ عن التاريخ للجمع بين عناصر الزمان والمكان والمشكلة والشخص، كى يقدم موقفاً يوضح به افتراضه:

"يقول (هيروديت) إن (كورش) حين خرج للحرب ضد (سكيثيا)، جاء إلى نهر كبير، وإذ لم يتمكن من المرور فوقه، قطعه وقسمه إلى قنوات وألسنة للغطس، وبهذا مكّن جيشه كله من عبوره. وهذه هى سياسة الشيطان، فهو يعمل من أجل تقسيم شعب الله، وأن يفرقنا إلى شيع وجماعات، وبهذا يمكنه التغلب علينا بسهولة".

الموقف هنا قديم، وفكرة هذا الكاتب، والتى هى ضئيلة التفاصيل تمكننا من اختبار محنة (كورش) بشكل تام. غير أنه مع قلة البيانات

هذه، نجح التوضيح لأنه صاغ الحدث بشكل كاف لخلق موقف يمكن التعرف عليه. ويمكن للقصص التوضيحية أن تخدم الوعاظ المعاصرين بفاعلية أكثر بكثير إذا ما وضّحت مقدماتهم بشكل جلى المواقف التى فيها (أو فى عقولنا الباطنية) حيث نستطيع أن نكتشف أنفسنا.

خلق التأثير:

اقتُبست قصة (مانتون) المشار إليها سابقاً عن عمد، على الرغم من محدوديتها، لأنها تشير إلى نوع من المقدمة التوضيحية يجب التعامل معه بحذر على ضوء نظرية الاتصال الحديثة. وباقتباس (مانتون) من (هيرودوت) فإنه بشكل تلقائى يعرّف الحروب اليونانية الفارسية على أنها الإطار الزمنى لقصته. وتوضيح الزمن هذا يساعد على استعمال ما يمكن فى حالة أخرى اعتباره طريقة غير جيدة لبدء القصص. واستهلال القصة التوضيحية بالإشارة إلى مصدر علمى، قد يشير إلى الافتقار إلى الحكمة الرعوية. والكثير جداً من القصص التوضيحية تبدأ بأن يقوم الرعاة بعرض مكتبتهم أمام الشعب.

وقد كتب (دوسون برايان) يقول:

"إنه لمن الحكمة أن تبدأ فى الحال بالمثل. فمقدمة الكاتب والعنوان والفصل، عادة ما تكون لها نتيجة عقيمة، ولهذا السبب، فإن الكثير من

التوضيحات الجيدة الأخرى تأتى بلا فائدة".

وهذا يتعدى كونه مجرد أفضلية تدعو إليها الناحية الفنية. لأن البدء بما لا يستطيع القارىء العادى أن يقرأه، أو لم يقرأه، يجعل المستمعين يصمون آذانهم عن قصتك. وعلاوة على ذلك، إذا كان العمل الأدبى متخصصاً بدرجة عالية، أو صعب من الناحية اللاهوتية، فإن المستمعين قد يشعرون أنهم أدنى مستوى (أو يتملكهم الغيظ) نتيجة عرضك. وتكون مخاطرة تغريب سامعيك أقل، إذا ما أشركتهم فى تفاصيل القصة التوضيحية أولاً، ثم نسبتها إلى المصدر فى وقت لاحق استيفاءً للموضوع.

وقد جعل (مارتن لوثر كنج الابن)، وبكل مهارة المادة التوضيحية ومصداقية المصدر فى نسيج واحد فى متن عظته" كيف يجب على المسيحى أن ينظر إلى الشيوعية". فهو يقول:

"ما كان للرق أن يوجد فى أمريكا لمدة تصل إلى مائتى وخمسين سنة، لو لم توافق عليه الكنيسة، وما كان سيصبح للتمييز والتفرقة العنصرية وجود اليوم، لو لم تكن الكنيسة شريكاً صامتاً أو صريحاً فيه. ويتعين علينا أن نواجه الحقيقة المخزية وهى أن الكنيسة هى أكبر مؤسسة معزولة عنصرياً فى المجتمع الأمريكى، وأكثر الساعات انعزالاً من الناحية العنصرية، فى الأسبوع كله، كما أشار الأستاذ (ليستون پوپ)، هى

الساعة الحادية عشرة من صباح كل يوم أحد. فكم من مرة كانت الكنيسة صدى، بدلاً من أن تكون صوتاً، وكانت ضوءاً خلفياً وراء المحكمة العليا وغيرها من المؤسسات الدنيوية، بدلاً من أن تكون ضوءاً أمامياً يرشد الناس بشكل متدرج وحاسم إلى مستويات أعلى من الفهم".

ومصدر المادة مدفون من الناحية العملية حتى لا نشتت انتباه السامعين ونحولهم عن الصور والتلميحات القوية.

والبديل هو تقديم المصدر بعبارات عامة موجزة، تعطى معنى المادة وكاتبها، دون الدخول فى التفاصيل الدقيقة. وقد استخدم (كنج) هذا الأسلوب فى عظته "الإجابة على سؤال محير". فبدلاً من أن يهدر الوقت فى نواحٍ وثائقية خاصة بالمؤلف، واللقب، والمصدر، قال: "أكد أحد مناصرى الحركة الإنسانية المعاصرين أن: المستقبل ليس مع الكنائس، بل مع المعامل، وليس مع الأنبياء بل مع العلماء، وليس مع التقوى بل مع الكفاءة. ولقد أصبح الإنسان أخيراً مدركاً أنه هو وحده مسئول عن تحقيق عالم الأحلام الذى فى داخله".

وهذا الاقتباس يوضح موقفاً فلسفياً يهاجمه (كنج) ببلورة الموضوعات بدلاً من التعتيم على الذهن بمعلومات مفصلة عن المصدر. فالعظة ليست بحثاً أكاديمياً يقال فى حجرة الدراسة. ويمكن أن تضيع المفاهيم فى

العرض الشفهي للوثائق التي هي هامة في الحجرة الدراسية، ولكنها ليست هامة في قاعة الكنيسة.

والتطويل في الحديث عن المصدر والمؤلف، يؤدي إلى عمل مقدمات هزيلة للتوضيحات، غير مطلوبة، إذا أردت أن تعمل توضيحاً صادقاً، ولتحتفظ بتفاعل المستمعين. وفي بعض الحالات تكون حقائق التوضيح موضع نقاش طويل، أو قد يكون من الجلي أنها تفوق خبرتك، الأمر الذي يحتمل معه أن تفقد اهتمام مستمعيك لو لم تذكر المصدر بصفة أولية. وفي شرحه لاتكالنا الكامل على العناية الإلهية، وعظ (بيتر مارشال) فقال:

"لن أنسى كلمات (د. ويتني) وهو رئيس سابق للجمعية الأمريكية للكيمياء، وزميل للأكاديمية الأمريكية للعلوم والفنون، ومدير لأبحاث عديدة في مجال الكهرباء، حيث قام بعمل أبسط التجارب.

التقط (د. ويتني) من مكتبه قضيباً مغناطيسياً صغيراً. وقربه من إبرة من الصلب، وهنا قفزت الإبرة إلى المغناطيس. لماذا ؟ قال (د. ويتني): "لقد قدمنا تفسيرات واضحة. وتكلمنا عن خطوط القوى، عن علم ودراية. ووضعنا رسماً لحقل مغناطيسي. ومع ذلك نحن نعرف أنه لا تُوجد خطوط قوى هناك، والحقل ما هو سوى كلمة نغطي بها جهلنا. وما تفسيراتنا

سوى تخمينات علمية..."

وهكذا -يوضح (د. ويتنى)- بعد أن انتهينا كلنا من نظرياتنا وتخميناتنا، كنا ما زلنا ضد حقيقة الله- وهى أن إرادة الله عاملة فيما نسميه "العلم".

وهكذا فإن العالم المتمكن ينظر إلى ما وراء العلم (وهذا ما يزال البعض يعتقدونه أمراً مؤكد النجاح ومصدر كل الإجابات) للإرشاد.

وذكر المصدر بشكل موجز قد يكون مناسباً أيضاً للمقدمات التوضيحية إذا كان ذلك المصدر مشهوراً حتى إن مجرد ذكر اسم الكاتب أو العنوان، يرسل شعاعاً من المعرفة فى عيون المستمعين، حيث يشع "المعنى" لهم. ومثل هذه المصادر تتضمن الكلاسيكيات المشهورة مثل (هكلبرى فين، روبنسون كروزو، وبن هور) ومواد القراءة الواسعة الانتشار مثل مجلة مدارس الأحد "هذا الصباح"، أو جرائد الأمس، الأفلام السينمائية المناسبة، بل وحتى برامج التليفزيون، مثل البرنامج التقليدى "أنا أحب لوسى"، أو إحدى كوميديات الموقف المعاصرة. وهنا نعود للقول إن الأساس هو إشراك المستمعين. والمقدمات التى تجذب السامعين إلى الإحساس بالقصة التوضيحية والتعايش معها تؤدى بهم إلى فهم معانٍ جديدة. أما تلك التى تفصل بين الحاضرين والاختبار فتحرم القصة التوضيحية من قوتها

على القيادة فى أى اتجاه متوقع.

إغلاق باب الكاميرا:

إن الذين يأخذون لقطة فوتوغرافية لإجازة، أو حفل زواج، أو لقاء عائلى، يأخذون من هذا الاختبار شريحة من الحياة لها معنى بالنسبة لهم. ولالتقاط الصورة، ينبغى على المصور أن يغلق باب الكاميرا (أداة تنفتح وتنغلق أمام عدسة الكاميرا لإدخال النور). وهو بهذا يفصل الحدث، أو هذه اللحظة عن بقية الاختبارات المحيطة. ودفع الذراع يطلق باب الكاميرا الذى يشكل التجربة. وبطريقة مماثلة حين تبدأ كواعظ قصة توضيحية فأنت تطلق الباب على صورة ذهنية تشكل اختباراً فى ذهن المستمعين وما لم تضغط على زر باب الكاميرا، لن تحصل على صورة. ولن يُعزل شىء فى هذه الحالة عن الكلمات والخبرات المحيطة. ومن ناحية أخرى إذا أطلقت الباب بطريقة غير صحيحة، أو لم تحسن التعريض للضوء بشكل سليم فلسوف تعتم الصورة. فالتفاصيل غير المترابطة أو الإفراط فى التعرض لعناصر غير ضرورية، يتلف الصورة المراد توصيلها.

وتقدم السمات القصصية لهذه التوضيحات الكثير عن الكيفية التى يمكن بها صياغتها على نحو سليم، وحفظها من هذه التأثيرات الضارة. والخطوة الأولى هى أن تكون المقدمة صحيحة. والمقدمة تفصل الخبرة التى

وُصفت عن الخبرات الأخرى فى أذهان المستمعين، وتشكلها بحيث يمكن النظر إليها وتقديرها وفهمها.

ومن الطبيعى ، أن القصة التوضيحية ستظل بلا معنى إذا لم يكن هناك شىء داخل الإطار. ومهمة الواعظ تتمثل فى تحديد ما هو ضرورى لملء القصة التوضيحية بملامح واضحة يسهل إبلاغها. وهنا نقول أيضاً إن البحث المتعلق بالقصص سيكون مرشدنا ، فى حين أن السوابق الكتابية ستكون مدرستنا.

الفصل السادس

ملء الإطار

الواقعية والتفاصيل:

وما أن تُوضع للقصة التوضيحية مقدمتها، إلا ويتوجب على الراعى أن يضيف التفاصيل. غير أن المعانى المترابطة التى يريد الراعى أن يوصلها لن تعنى شيئاً ما لم يتم التركيز على التفاصيل. وكتب رالف لويس فى هذا الخصوص قائلاً:

"إن الخبرة تحدد وجهة نظر (مستمعينا) عن الواقعية. وهم بطريقة عملية يحكمون على كل فكرة جديدة يواجهونها بالسؤال.." هل تتمشى هذه مع الاختبار؟... وإذا كان لنا أن نحتفظ بالمستمعين الذين يركزون على الخبرة حتى نهاية عظاتنا، فإنه يتعين علينا أن نحتفظ بجميع أجزاء الرسالة مرتبطة بالخبرة".

إننا فى حاجة إلى التفاصيل التى تساعد على التمييز والتعرف. فالأشياء لا يكون لها معنى بالنسبة لنا ما لم نستطع تمييزها. ونحن نعرف ما نلاحظه لأننا قد تعاملنا، أو رأينا، أو فحصنا، أو شعرنا بعض نواحيه. ونحن بكل بساطة لا نستطيع أن نفسر ما لا يصلنا بوضوح من خلال الخبرة التى تعمل فى عالم المشاعر، والأحاسيس، والمفاهيم الواضحة. وهكذا فإنه إذا كان للقصة التوضيحية أن توصل المطلوب بشكل فعال بواسطة هذه الوسيلة، فيتوجب أن تتضمن تفاصيل واقعية كافية تتعلق

بالحدث الذى تم الكلام عنه لتتيح للمستمع إعمال الاختبار (أو التذكر).
وإذ كانت الأشياء الأخرى متساوية، فكلما اتسمت القصة التوضيحية بمزيد من الوضوح والواقعية، ازدادت قوة.

عليك أن تخلق الواقعية:

إن الأسباب التى من أجلها تضفى الواقعية قوة على الرسائل وتعزز الفهم، شرحها (ويب جاريسون) فقال: "إذا كان علىّ أن أتكلم باستفاضة عن تأثرى العميق نتيجة رؤيتى الأحوال المتعلقة بذراع ابنى المكسور، فإن هذا سيشكل تقريراً عن مشاعرى. غير أنه حين أصف بعض العوامل التى أسهمت فى حالتى هذه، أكون قد أشركت المستمعين فى هذا الاختبار وبدأت تستشعره معى. ولكى نعيد خلق موقف مثير للمشاعر فهذا أمر يختلف تماماً عن أنك تأثرت للغاية".

وكلما زاد إعادة تصوير القصة للتفاصيل الحية، زادت إمكانية توصيلها للمعلومات. وكما يقول (فريد كرادوك):

"إن الحقيقة الواضحة للموضوع هو أننا نسعى لأن نوصل معلومات لأناس اختباراتهم عملية. وكل واحد منهم يعيش بحسب الاستقراء لا الاستدلال. فما من مزارع يتعامل مع مشكلة تتعلق بكافة العجول، بل تتعلق بعجل واحد فقط. والمرأة فى المطبخ لا تنشغل بفنون الطهى بصفة

عامة، بل بما تشويه أو تطهيه فقط. والعامل والخبير فى الأعمال الخشبية لا يناقش بكفاءة كل ما يتعلق بالكراسى ولكنه يتقن عمل الكرسى.

والسؤال هو "كيف"؟ كيف يجعل الوعاظ التجربة واقعية ومن ثم يمكن تطبيقها بالنسبة لمستمعيهم؟ يجيب "لنسكى" على هذا بقوله: "إن الأشياء والأشخاص، والأعمال، والمواقف العملية، تُوصف بالكامل. وحين قال الرب يسوع مثل الابن الضال، لم يتكلم عن اختبار إعادة لم الشمل بين الأب والابن بقوله: "لقد عبر الأب عن عناية مستمرة بابنه الضال". بل قال: " وإذ كان (الابن) لم يزل بعيداً رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبّله. فقال له الابن يا أبى أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقاً بعد أن أُدعى لك ابناً. فقال الأب لعبيده أخرجوا الحلة الأولى وألبسوه واجعلوا خاتماً فى يده وحذاء فى رجليه. وقدموا العجل المسمن واذبحوه فنأكل ونفرح. لأن ابنى هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد" (لو ١٥: ٢٠-٢٤).

إن التفاصيل التى تشكل نقطة التصور والفهم تجسدت تماماً لكى تعطى الاختبار التوضيحى حياة. وقد وصف المسيح: تصورات، وأعمالاً، وحوارات، وأمثالاً، وتغييرات فى المشهد- وكل ذلك للتعبير عن فكرة واحدة، وهو: أن الأب مازال يحب ابنه. والتفاصيل تمكن المستمعين من الناحية الذهنية والعاطفية، من الدخول إلى الموقف الذى لم يسبق لهم أن

اختبروه بالفعل.

وقدم (ليونيل فليتشر) هذه النصيحة فقال: "لا تتسرع فى قول كل توضيحاتك. أحسن قولها. دعّم الخلفية وصوّر المشهد كله، واجعله حياً أمام عيون شعب الكنيسة. وما من شىء يجعل القصة أكثر واقعية وحيوية بالنسبة للمستمع أكثر من التفاصيل الواقعية الكافية. حين أراد (بيلى جراهام) شرح أهمية الانتماء العلنى للمسيح شبهه بالالتزام الذى يُعبر عنه فى حفل الزواج، ولكنه لم يقل: إنه يشبه حالة الزواج. بل قال:

"إن الالتزام يشمل العقل والعواطف والإرادة.. ولكنى لن أخلص فعلاً، ولن أذهب إلى السماء إلى أن تتخذ إرادتى القرار النهائى.

أنت تعرف أنك حينما تتزوج تذهب لتقف أمام القسيس. وتقول له. سبق أن وقعت فى حب تلك التى ستكون زوجتى. وطلبت منها أن تتزوجنى. ولكنها جعلتنى أنتظر ما يقرب من سنة قبل أن ترد بالموافقة، وكانت أطول وأصعب سنة شهدتها فى حياتى. وأخيراً قالت نعم. وتم تحديد التاريخ، وهو يوم الجمعة ١٣ أغسطس، سنة ١٩٤٣.

سبق أو أوضحت حقيقة أنى أحبها. حيث سبق أن أخبرتها بذلك. أعتقد أنها أصلح فتاة بالنسبة لى، لكنى لم أصبح متزوجاً إلا بعد أن قال القسيس: "هل تقبل هذه الفتاة زوجة شرعية لك؟"، وقلت: (أريد)، لم

أقل ذلك بصوت عال، لكننى قلته. إذاً لم أصبح متزوجاً إلا بعد أن قلت (أريد). وبعد ذلك تم الإعلان أننا أصبحنا رجلاً وزوجته. وحين تقبل إلى يسوع المسيح، عليك أن تأتى إلى المسيح علانية وتقول له: (أريد)".

أما التفاصيل فتجعل هذه القصة حقيقية وقوية. لأنك لم تصف الأشخاص، التواريخ، والمشاهد فحسب، بل والعواطف، والحوار، والانفعالات العصبية التى قد تحدث فى مسار الحياة.

والواقع أن القصص المتازة تعكس هذا الاهتمام بالتفاصيل لخلق خبرات يمكن التعرف عليها وسط التعبيرات اللاهوتية. وطبقاً لما يقوله (لويس):

"وبدلاً من أن تبدأ (أو تبقى مع) أفكار مجردة مثل "البشر مآلهم الموت"، بوسعنا أن نبدأ باختبار واقعى ونقول: "الشماس آدم مات الشهر الماضي بالسرطان". وبمقدورنا أن نقدم قصصاً عن العائلة، أو عن الحياة العملية لشعب الكنيسة. ونستطيع أن نستعمل خبرات عامة مثل الميلاد، والأكل، والسير، والصيد، لتوضيح بعض النقاط، أو عمل التشبيهات".

فالتفاصيل الوصفية تضفى حياة على هذه التوضيحات.

اجعلها صورة حية:

إن القصص التى تهتم بالنواحى الإنسانية ليست البديل الوحيد المتاح

غير مقصودة قد تشتت الانتباه. وقد قدم أحد تلاميذى قصة بهذه الطريقة فقال:

"بعد أن خدم أبى فى الجيش، اعتزل دون أن تكون له أية خطط واضحة بالنسبة لما يود عمله. وكان ينتقل دون هدف من تسلية أو هواية إلى أخرى، ولكن شيئاً لم يرضه. وأخيراً، وعن طريق المصادفة التحق بدراسة النحت فى معهد عال، ووجد فى نفسه موهبة خاصة كان دائماً يسلم بها، وتتمثل فى مهارة، قليلون هم الذين كانوا يجارونه فيها. فقد كانت له موهبة إبداع أعمال فنية، وكان طوال عمره يمتلك هذه الموهبة ولكنه لم يستغلها إطلاقاً. أما الآن فقد أصبح فن النحت موضع حبه وإعجابه.

وحين عدت للبيت هذا الصيف، سألت ما إذا كنت أستطيع مساعدته وبسرعة أسند لى مهمة استخدام مشط خشن لأخلق به ما يماثل شكل فراء لبعض الدببة الصلصالية التى كان يعملها- وقد استغرقتنى هذه المهمة ساعات طويلة، وبعد أن انتهيت منها، اعتقدت أنى قمت بعمل رائع. غير أنه حين طلبت من أبى أن يرى الدببة، أخذها منى، وبدون أية كلمة بدأ يجدد كل ما سبق أن عملته. وقد جرح هذا مشاعرى، وبدا لى أنه لم يقدّر كل ما عملته. ولكنى لم أتفهم الوضع إلا بعد أن رأيت نتائج العمل الذى قام به أبى. فما عملته أنا جعل القطع تشبه دببة من الصلصال لها فراء، أما الذى عمله أبى فجعلها تشبه الدببة بالفعل. فحين قام

والدى بالعمل أداه أفضل منى بكثير. وبنفس الطريقة، حين نحوّل الأمور لأبينا السماوى، فإنه يتولاها بأفضل منا بكثير جداً".

وهذه القصة التوضيحية تتضمن الكثير من العناصر الرائعة، إلا أنه توجد تفصيلات غير أساسية تعتم على نصفها الأول، وسيجد المستمع نفسه ميالاً للاعتقاد بأن هذه قصة توضح المشاكل التى تواجه من يُحال إلى المعاش، والإحباطات الناجمة عن عدم وجود هدف، أو اكتشاف المواهب. والسطور الافتتاحية التى تتضمن تفاصيل المحن التى واجهها الأب عند اعتزاله تقدم هذه الموضوعات. لكن هذه القصة التوضيحية من المفروض أن تكون عن ثقتنا فى كمال العناية الإلهية. أما الجزء الثانى من القصة فقد تناول هذه النقطة بتفاصيل تتعلق بالموضوع. إلا أنه مما يُؤسف له أن النصف الأول يشتت الانتباه ويضعف التركيز، وأخيراً يجعل تأثير القصة ضعيفاً.

كن واقعياً:

من المفترض أن تضفى التفاصيل الوصفية على القصة الدقة التى تجعلها واقعية بما فيه الكفاية لتتوازن مع اختبارنا. ومع ذلك، فلن يتحقق هذا القصد إذا كانت التفاصيل غير متصلة بالموضوع أو لم تُقدم فى عبارات عامة. فقد يغرم الواعظون بعرض التفاصيل إلى حد أنهم يبتعدون

بالقصة عن أي اختبار يفيد المستمعين. ويقول (لويس ليهمان) "إن قدراً معيناً من الوصف يصبح لازماً لتمكين المستمع من رؤية الباب وتخطى العتبة معك". ولكن هذا لا يعنى استخدام الشعر، بل مجرد وصف.

ومن الطبيعي أن بعض الوعاظ بوسعهم أن يقدموا قصصاً بلغة جميلة وبصيغة فنية رائعة. ومع ذلك، فالهدف الرئيسي هو التعرف الاختبارى، وليس "إثارة الحضور بموهبة الكلام". فتنميق الكلام بصفة عامة قد تظهر الاختبار على أنه أقل فعالية وتحد من اشتراك السامعين فى الاختبار الذى يُوصف. فالزخارف غير الضرورية، وأوصاف القصة غير الفعالة، والتفاصيل الغريبة، قد تغمر ذهن المستمع بأفكار لا صلة لها بالموضوع، حتى إنه لا يمكن التركيز على اختبار معين، أو معايشته، أو أن يكون له معنى بالنسبة له.

إن المستمعين فى حاجة إلى فهمك واحترامك باعتبارك راعيهم. ويتعين عليك أن تشرح الأمور الصعبة بعبارات سهلة، حتى وإن كانت العبارات الفنية أو التى تشير إلى سعة المعرفة، يمكن أن تؤثر فى سامعيك وتحملهم على إدراك تمكُنك من اللغة. ويقول (برايان): "إن كثيراً من المساعدات القيمة يمكن تقديمها للنفوس المتعبة بتحليل المصاعب والصراعات. ومع ذلك لا يجب أن تُقدم هذه الأوصاف بلغة علماء النفس المتخصصين، بل بعبارات شعبية مفهومة". ويقول (سبرچن) فى هذا الخصوص: "لم نرسل

إلى العالم لنبنى قصراً بلّورياً نعرض فيه أعمالاً فنية وليكون معرضاً للأناقة والروعة، ولكننا، كبنائين حكماء، علينا أن نبنى بيتاً روحياً لسكنى الله. وبناؤنا يُقصد به أن يدوم، ويكون صالحاً لأمورنا اليومية، ومن ثم فلا يجب أن يكون كله من البلّور". وإننا كخدام للإنجيل سنضل طريقنا تماماً، إذا ما استهدفنا التباهى والبهرجة.. والبعض يبدون وكأنهم لا يشبعون إطلاقاً من التشبيهات المجازية: فكل عبارة من عباراتهم يجب أن تكون زهرة. وهم يجوبون البحر والبر بحثاً عن قطعة جديدة من الزجاج الملون لنوافذهم، وهم يحطمون جدران أحاديثهم لوضع بعض الزخارف غير الضرورية.. ولسوف يكونون على خطأ شنيع إذا ما اعتقدوا أنهم بهذا يظهرون حكمتهم، أو ينفعون سامعيهم... فأفضل النور يأتى من أكثر نوعيات الزجاج وضوحاً: ثم إن الألوان الزائدة عن الحد تحجب الشمس.

وكانت أمثال الرب بسيطة للغاية، وكأنها حكايات للأطفال، وكانت جميلة كالطبيعة مثل الزنابق التى كانت تملأ الوديان التى كان يعلم الشعب فيها... وكانت أمثاله كشخصه وما يحيط به، ولم تكن إطلاقاً متكلفة أو غريبة أو متحذلقة أو زائفة. ليتنا نقلّده! لأننا لا نجد أبداً نموذجاً أكمل منه، أو أكثر مناسبة للجيل الحاضر".

وفيما قد تقسو مناقشة (سبرجن) عن الزخارف المتكلفة، إلا أن ما رمى إليه صحيح. عليك أن توفر الكلام المنمق لمناسبات لا علاقة لها

بالأبدية. فكيف يؤمن الناس إذا كانوا لا يسمعون الإنجيل، وكيف يسمعون ما لم يفهموا (انظر رو ١٠:١٤)؟ إن تغيير القلوب أفضل من دفعها إلى الكبرياء. وأن تجعل الآخرين حكماء في الخلاص أهم بكثير من أن يعتقد الناس أنك حكيم.

والتفاصيل المفهومة يمكن أن تنقل المستمعين من حالة عدم الاهتمام بالكتاب المقدس، وتجعلهم ينخرطون بنشاط في اختبار روحي، وذلك بخلق الجو الذهني أو العاطفي الذي يمكن أن تُرى فيه الحقائق وتُطبّق. كتب (ويب جاريسون) يقول: "إن الكلمات التي تذكر الألوان والأشكال، والأصوات، والرائحة، والأشياء المادية الأخرى، تساعد على خلق خلفيات تثير الأمزجة. وأي شيء يثيرك، بوسعه أن يثير مستمعيك أيضاً شريطة أن يتعرضوا بصفة مباشرة للمحفزات التي ولدت العاطفة. والوعاظ يعيدون خلق المحفزات وذلك بتقديم تفاصيل واقعية يمكن التعرف عليها، وبعبارات واضحة ما فيه الكفاية لأن تمكّن المستمعين أن يواجهوا شخصياً الأشياء الملموسة التي تجعل المجرد واقعياً:

"اعتدت في طفولتي أن أقضي الصيف في مزرعة جدي بولاية تينسي. وكان الجزء المميز في هذا الأمر هو أن أستيقظ مبكراً وأنزل إلى المطبخ، فيما كانت جدتي تعد عجينة الصباح التي تصنع منها البسكويت الريفي. وكنت أحب البسكويت الذي تصنعه جدتي، حتى أني كنت أجلس على

مائدة المطبخ وآخذ خلسة قطعة من العجين الحلو ذى الرائحة الطيبة وآكله حتى قبل أن تقوم جدتى بتشكيل البسكويت.

وذات صباح، وفيما كنت أثرثر حول بعض الأشياء إذا بجدتى تقول لى على حين غرة: "قف. استمع". توقفت لدقيقة واحدة، وبعدئذ، إذ لم أسمع شيئاً رجعت ثانية إلى ثرثرتى وأكلى. لكنها أوقفتنى مرة ثانية: "قف. استمع"، وفى هذه المرة مسحت يديها من الدقيق العالق بهما فى مئزرتها، وخرجت إلى الشرفة. تبعتها إذ كنت أخشى أن تتعطل عن عمل البسكويت الذى أحبه، وعاتبتها برفق: "جدتى، ليس هناك شىء"، ولكنها قالت: "اسكت أيها الصبى. وانصت". وقالت هذا بقدر من اليقين والحزم الأمر الذى جعلنى أصمت أخيراً. ثم قالت: "أسرع استدع جدك"، وهنا أسرعت عبر الحشائش لكى أستدعيه.

اكتشفنا عجلاً فى حظيرة بعيدة وقد تشابكت به بعض أدوات الزراعة، وكانت الدماء تنزف منه غزيرة. وهنا انفطرت قلوبنا هلعاً على هذا الحيوان المسكين، الذى كان سيلقى حتفه لو تمسكت برأيى وركزت اهتمامى بالأمور التى كانت ترضينى فقط. ليت قلوبنا تنفطر على البشر الذين يموتون من حولنا دون أن يسمعوا عن الإنجيل لأننا مازلنا لا نركز سوى على ما يرضينا نحن. وفى مساعينا الأنانية أصبحنا من الصم بحيث لا نسمع صرخات يأسهم. ربما قد لا يتوافر لك كل شىء تريده الآن، وترجع

السبب إلى الله. ولكن، قبل أن تلوم الله ابحث أولاً ما إذا كان يقول لك بكل بساطة (توقف. انصت)".

إضافة الحركة

والقصص يجب أن تتسم بالحيوية. وما من أحد يساهم فى اختبار بطريقة حملقة ثابتة للجمهور. فالكلمة لا تقف ساكنة. وحيثما يكون هناك معنى، فلابد وأن تكون هناك حركة حتى وإن كان التأمل فى الموقف ذهنياً وحسب. لأن هذا معناه بالنسبة للواعظ الحاجة إلى تقديم القصص التوضيحية فى إطار يعطى معنى الحركة. وسواء كانت الحركة ممثلة فى نقل الفكر، أو العواطف، أو تحول علاقة ما، أو حركة جسم الإنسان، فإن القصة التوضيحية يجب أن تتحرك لتعطى معنى اختبارياً.

ولكى يوصل يسوع لسامعيه الحاجة إلى الغفران، قال هذا المثل الحى عن عبد قاسٍ:

"لذلك يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً أراد أن يحاسب عبيده فلما ابتدأ فى المحاسبة قدم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة. وإذ لم يكن له ما يوفى أمر سيده أن يُباع هو وامرأته وأولاده وكل ما له ويوفى الدين".

"فخر العبد وسجد له قائلاً يا سيد تمهل علىّ فأوفيك الجميع. فتحنن

سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين".

"ولما خرج ذلك العبد وجد واحداً من العبيد رفقائه كان مديوناً له بمئة دينار. فأمسكه وأخذ بعنقه قائلاً أوفني مالي عليك".

"فخر العبد رفيقه على قدميه وطلب إليه قائلاً تمهل عليّ فأوفيك الجميع".

"فلم يرد بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفي الدين. فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان حزنوا جداً وأتوا وقصوا على سيدهم كل ما جرى. فدعاه حينئذ سيده وقال له: أيها العبد الشرير كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت إليّ. أفما كان ينبغي أنك أنت أيضاً ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا. وغضب سيده وسلمه إلى المعذبين حتى يوفي كل ما كان عليه".

"فهكذا أبي السماوي يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته" (مت ١٨ :٢٣-٣٥).

إن قوة الحركات المثيرة في هذا المثل ترفع من حرارة تأثيرها. فالأفراد لم يكتفوا بطلب الرحمة فحسب، بل خروا على ركبهم متوسلين. أما العبد الشرير، فلم يكتف بأن تحدث بلا شفقة لزميله بل جره من عنقه وشرع يخنقه. وتركز القصة على رد الفعل الناتج عن ذلك، وتفجر عواطف

الغضب بين العبيد الآخرين، وتصور بحيوية تحول موقف السيد. فقد انتقل من مطالبته العبد بالسداد مع الفائدة إلى الصفح عنه ومسامحته، وبعد ذلك إلى طلبه أن تُوقع عليه عقوبة السجن. ولم يسمح المثل بطريقة وصف ساكنة. فلقد جمع المستمعون في هذه اللحظة ودخلوا إلى الاختبار نتيجة وصف الحركة التي تضمنتها القصة.

ركز (هاري إيرنسايد)، الذي كان راعياً لفترة طويلة بكنيسة مودي في شيكاغو، على عنصري الحركتين البدنية والعاطفية حين تحدث عن إعداده لعظة دون تحليل كاف للمستمعين:

"ذهبت في إرسالية إلى سان فرانسيسكو منذ عدة سنوات، وجلست لمدة نصف ساعة تقريباً أستمع إلى شهادات رائعة لنعمة الله المخلصة- فواحد تلو الآخر، كان يقوم ويرسم صورة رهيبة لحياته السابقة ثم يتحدث عن كيف أن الله خلصه. وكنت قد حضرت إلى ذلك الاجتماع بعظة بسيطة سبق إعدادها كلها، لكن فيما كنت أستمع إلى هذه الشهادات، قلت: (يا لعظتي الصغيرة العزيزة المملة. كيف تخيلت أنه بوسعي أن أدخل مكتبي وأعد عظة صغيرة تلائم شعباً كهذا، في الوقت الذي لم تكن لديّ فيه أية فكرة عن نوعية الناس الذين كنت سأخاطبهم). دار هذا الأمر في خاطري، ومن ثم، وضعت أوراق العظة ثانية في جيبي، وأبعدتها عن ذهني. وحين وقفت لأتكلم، استعنت بهذا النص: (وهكذا كان أناس

منكم. لكن اغتسلتم بل تقدستم بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح إلهنا). وكان من السهل الوعظ لهم عندئذ دون الكثير من الدراسة. فتلك العظات التى تعدها يكون من الصعب عليك الوعظ بها، أما تلك التى تهبط عليك فتكون أسهل بكثير".

ولنلاحظ أولاً كيف قدّم (إيرنسايد) قصته بصياغتها فى إطار فصل للمكان والزمان والموقف. وبعد أن عزل الاختبار، نقل سامعيه فى الحال إلى الحدث بواسطة أوصاف تتميز بالحركة. فلا نجد أى شخص قام "وسرد" قصة خلاصه، فكل ما فى الأمر أن (إيرنسايد) "تكلم". الأول "رسم صورة رهيبة" أما الأخير فكل ما عمله هو أنه "وضع" عظته فى جيبه. غير أن كليهما "وقف" ليتكلم. والإشارات إلى الحركة البدنية لم تعط طابعاً مميزاً فقط لأن (إيرنسايد) أشرك المستمعين كلهم فى اختباره. فقد تحدث عن ازدياد خوفه وخجله الصامت، لأن هذه الحركة الذهنية (التى انعكست فى تشبيه مجازى بدنى) والذى يستطيع به أى واعظ أن يتعرف على من رأى شيئاً على حين غرة، أو توقع شيئاً من بين مستمعيه، وشعر بدش بارد يسرى فى عروقه. فالعالم الذى نختبره يتحرك ويحركنا معه. وإذا كان الوعاظ يريدون أن يبلغوا المعلومات من خلال التأمل فى العالم الذى خارجنا، أو العالم الذى فى داخلنا، فعليهم أن يضمّنوا عظاتهم أوصافاً للحركة.

خلق أزمة

إن الحركة التوضيحية تحمل القصة إلى الأمام إلى أزمتها كمادة محفزة، والقصة الجيدة لابد وأن تتضمن أمة (عقدة). ولا تشكل الأزمة المحور الفكرى للاختبار الذى يعطيها أهميتها ومبناها فقط، بل يشكل أيضاً وسيلةً اختبارية تأخذ المستمعين من تيارات الإدراك الذى يعيشون فيه وينقلهم إلى سياقات العظة. والحياة اليومية لشعب الكنيسة ما هى إلا أزمات متعاقبة. والقصة التى تكون ذات قيمة بالنسبة لهم فى دوامة اليوم لابد أن ترتفع إلى توتر متزايد إلى أن تصل فى هدوء إلى نقطة الانكسار، ثم التسوية.

ومع المجازفة بالظهور بمظهر جدلى، إلا أن هدف القصة التوضيحية يكمن فى التوتر الذى يتولد عن تفاصيلها. وما لم تصل بالمستمعين إلى حافة الدهشة والحزن، والغضب، والارتباك، والخوف، أو الاكتشاف، فكلماتك فى هذه الحالة تكون بلا هدف، فالتوتر الداخلى للقصة يتملك السامعين إلى أن يأتى الحل المنطقى، لأنها ترتكز على السياق العام لما تريد أن تقوله لهم فى عظتك.

وفى مثل الفريسى والعشار، نجد أن السلوك المتناقض لكل من الرجلين من ناحية الصلاة- ويبدو أنهما كانا متناقضين من الناحية الأخلاقية-

هو الذى ولّد التوتر، فالفريسى الذى يتظاهر خارجياً بأنه ذو أخلاق يصلى "فى نفسه" (لو ١٨: ١١). ومع ذلك فإن العشار المحتقر "لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء، بل قرع على صدره قائلاً اللهم ارحمنى أنا الخاطىء" (لو ١٨: ١٣). والأزمة هنا بالنسبة لسامعى المسيح تحدد ماهية الصلاة وتقرر ما تعكسه من ناحية الاتكال على نعمة الله وليس على البر الذاتى. والصعوبات التى تواجه تفاصيل الوصف الموجز تولد توتراً فيما يجب أن يقوله هذان الرجلان المتناقضان، وما قاله كل منهما بالفعل وبدون هذه الأزمة لن يكون للقصة أى تأثير.

ولا يجب خلق الأزمة فى القصة تحت ظروف مأساة ما، فقد تكمن الصعوبة فى كشف الحقائق، أو تنافر جاء وليد حقائق لم يُكشف عنها. والأزمة يمكن أن تأتى نتيجة فتح باب للمعرفة العلمية كان مغلقاً فى السابق، أو فتح نافذة جديدة ترى منها المألوف فى ضوء جديد. والأزمة فى جوهرها هى التوتر الناجم عن عدم المعرفة بعد، وعدم معرفة الحل، وعدم معرفة القرار، وعدم معرفة السطر الأخير من القصة، أو حتى عدم معرفة ما سيكون عليه آخر سطر هذه المرة. وتأتى الأزمة من وجود حقائق كافية تخص الموضوع لخلق مشكلة يكون لدى السامعين اهتمام بحلها، وتجبرهم على القيام بجولة عبر القصص لاكتشاف كنز القرار. والقصة التالية تستخدم الأزمة لتحمل المستمعين للوصول إلى هذه النتيجة المطلوبة:

"فى اجتماع للشباب، حاول راعى متخرج حديثاً فى كلية اللاهوت أن يؤثر فى مجموعته عن طريق الوحى الإلهى فى الكتاب المقدس. ولقد جمع الشباب فى دائرة ووضع كرسياً فى المنتصف، وأعطى آيات من الكتاب المقدس لكل واحد فى الدائرة. وكانت الفكرة هى أن يعصب عينى واحد منهم وهو جالس على الكرسى الذى فى المنتصف، ويطلب منهم أن يخبروا المجموعة عن مشكلة ما كانوا يجابهونها، وبعد ذلك يقرأ أحد أفراد المجموعة آية من الكتاب المقدس قابلة للتطبيق، كما لو أن الله نفسه كان يجيب من خلال كلمات الكتاب المقدس.

ولكن الأمر كله سار فى جو تعيس. لقد اعتقد الشباب أن الفكرة كلها خرقاء. وما من أحد تكلم عن مشكلة أهم من مشكلة كيفية الحصول على درجة "أ" فى فوازير مسز "بيلى" الرياضية. وساد الجو قهقهات بدلاً من أن يسوده صوت الله.

عندئذ، تطوعت بنت جديدة كانت تجلس فى الحافة، بأن تجلس على الكرسى الذى فى المنتصف. وهنا هدأت القهقهات قليلاً، حين كانوا يضعون عصابة على عينيها لأنه ما من أحد كان يعرف بما فيه الكفاية كيف ستتصرف. ثم تكلمت هذه البنت قائلة: "لست أعرف ما إذا كنت أريد مواصلة حياتى. ولكنى لم أعد أحتملها بعد". وهنا ساد صمت مطبق، فما من أحد كان يعرف ماذا يقول أو يعمل، ومعظمهم اكتفى

بالجلوس في خجل أو حيرة. لكن واحداً كان ينظر إلى أسفل فوقع نظره على الآية التي معه، فقرأها: "ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا".

قالت البنت: "ليس من يهتم بأمري. ولكن بنتاً أخرى في الدائرة قرأت: "ومحبة أبدية أحببتك من أجل ذلك أدمت لك الرحمة".

وهنا قالت البنت المعصوبة العينين بصوت ينم عن اليأس: "لقد طردتني أمي اليوم". وهنا قال أحدهم، ولكن الرب يسوع يقول: "لا أهملك ولا أتركك".

هذا هو كل ما حدث. لقد رفع العصابة من على عيني البنت، ومن خلال دموعها سألت: "لماذا لا يتكلم معنا الله بالفعل بهذه الطريقة؟ وهنا وضع الراعي الشاب كتاباً مقدساً في يديها، وطوق كتفها بذراعه، وبكل حنان قال لها وللجميع: إن الأمر العظيم بالنسبة لكون كلمة الله موحى بها، هو أن تعرفي أنه يكلمك بهذه الطريقة عينها. فالله لم يكتب في سحاب السماء الذي يطير، أو في الليل حيث لا يستطيع سوى الأنبياء سماعه. بل وضع كلامه هنا في يديك، حيث تستطيعين دائماً أن تقرأيها وتعرفين أنه يكلمك بهذه الطريقة.

وعادة ما تقدم القصص عناصر الأزمة فى وقت مبكر ثم تحلها فى وقت متأخر. وبالنسبة للقصة السابقة، فلربما أثارت عدداً من التوترات مبكراً كأسئلة فى أذهان المستمعين: ما الذى يحاول هذا الراعى الشاب أن يعمله؟ ولماذا هو غير ناجح؟ ولماذا يأتي بشيء يبدو أنه سيفشل؟ ومن هي هذه البنت الجديدة؟ هل هي على ما يُرام؟ هل ستكون على ما يُرام؟ وما الذي يمكن أن يساعدها؟ وقد بدأت عناصر الأزمة مبكراً وبعد فترة صمت معينة لم تنته إلا بنتيجة أطلقت التوتر، وجعلت للقصة هدفاً.

والأزمات توهج الفكر حيث تؤدى الخاتمة إلى تكوين الفهم. وكما أن درجة الحرارة يجب أن تكون على أشدها قبل أن يُشكّل الحديد مباشرة، هكذا يكون الحال بالنسبة لذروة الأزمة- فى الظروف العادية- حيث توضع بالقرب من النهاية بقدر الإمكان. وكما يقول (برايان): "يجب أن تأتى القصة إلى ذروة قرب النهاية متى أمكن ذلك. وكل شيء يجب أن يسهم فى الأزمة بشكل مباشر، وفور الوصول إلى الذروة، أو بعدها مباشرة على قدر الإمكان، يجب أن ينتهى الموضوع. وتظل الأزمة موضع الاهتمام حيث تشد المستمع، حتى يختبر الوضع. وبعد أن يكون المستمع قد استغرق بقدر الإمكان فى الاختبار، هنا يجب أن ينتهى الموضوع وأن يتبين الغرض قبل أن يقل الاهتمام والانتباه.

الوصول إلى خاتمة

تنتهى القصة بخاتمة. وأحياناً تكون ذروة الأزمة هى الخاتمة. وتشكل الأزمة التفاصيل وتنفجر المعلومات اللازمة لإزالة التوتر فجأة فى القصة مثل قذيفة مدفع. وفى مثل هذه الحالات يكون من الملائم ترك القصة دون تعليق. ولا يحتاج المستمعون إلى مزيد من الكلمات، ولكنهم يحتاجون تأكيد صدى الانفجار فى وسط سكون فترة صمت ختامية من قِبَل الواعظ.

وإذ كان الرب يسوع يوضّح أهمية كلامه، فمن ثم اختتم الموعظة على الجبل بمثل هذا الانفجار. فشبّه من يسمع أقواله برجل عاقل بنى بيته على الصخر، ثم ختم كلامه قائلاً: "وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يُشبّه برجل جاهل بنى بيته على الرمل. فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط. وكان سقوطه عظيماً" (مت ٧:٢٦-٢٧).

ولم تُسجل أية كلمات تفسيرية أخرى فى هذا المثل. فالهدف تم توضيحه، وجميع الأسئلة تم حلها ، وتُرك الموضوع عند هذا السقوط المفاجىء العنيف كى يتردد صداه عبر القرون.

ومع ذلك، فإنه فى كثير من القصص، قد تأتى مثل هذه النهايات بأسرع مما هو متوقع. ويريد المستمعون نهايات أكثر اكتمالاً إذا ما تُركوا

يتساءلون ما إذا كانت القصة قد انتهت، أو ما هو الغرض الذى قُدمت من أجله القصة. ولا يحتاج الأمر فى العادة إلا إلى كلمات قليلة للتكملة لإنهاء التوتر الخاص بأزمة القصة، أو يستخدمه فى رسالة تشجع الخريجين من طلبة كلية اللاهوت بأن ينتفعوا من كل الفرص التى تُتاح لهم. قدم (داڤيد كالهون) واحدة من هذه النهايات القصصية مستخدماً السيرة الذاتية (لتشارلز سيمون)، الأستاذ بجامعة كمبريدج والمرسل المتحمس الذى عاش فى القرن التاسع عشر فقال:

"كان سيمون يحتفظ بصورة للمرسل (هنرى مارتن) على رف المستوقد الخاص به. وكان (سيمون) الأب الروحى (لمارتن) فى جامعة كمبردج، يدعم الفكر اللاهوتى لذلك الشاب ويلهب فيه حماسة الإرسالية. وكان (سيمون) هو الذى ودّع (مارتن) حين غادر بورتموث وأبحر فى طريقه إلى آسيا.

ولم ير أحد منهما الآخر بعد ذلك ثانية على الإطلاق. غير أنه ولمدة سبع سنوات كان (سيمون) يذكر ذلك المرسل المبتدىء فى صلواته بصفة دائمة من خلال نجاحات ذلك الشاب المذهلة فى إرساليته فى كل من الهند وفارس. ثم وصلت الرسالة الرهيبة.

فبعد هذه السنوات القليلة المتقدة حماسة، بعدها فقط وصل الخبر إلى

انجلترا أن (مارتن) أُصيب بمرض ومات فى إرساليته.

أُرسلت إلى (سيمون)، صورة (لهنرى مارتن) كانت قد رُسمت فى الهند. فعلقها فى المكان المفضل فوق رف المستوقد حتى يكون بوسعه إخبار الآخرين بشهادة صديقه الشاب. وبعد ذلك بسنوات، كان ينظر إلى الصورة ويقول لضيوفه: انظروا لهذا الرجل السعيد. ما من أحد ينظر إلىّ كما يفعل هو- فهو لا يحول عينيه عنى إطلاقاً، ويبدو أنه يقول دائماً: العمر قصير. كن جاداً. كن متحمساً. لا تضيع الوقت سدى- لا تضيع الوقت سدى".

لقد جاءت الكلمات الختامية حاسمة وكاملة فيما توضح الهدف من هذه القصة. فالتوترات المتنامية للقصة كان يمكن أن تُصاغ فى أسئلة: لماذا يقدم مثل هذا المثل العتيق؟ ولماذا يذكر شخصاً كان يلقى رعايته، بعد موته؟ وما الفائدة التى نجمت عن موته. وما الغرض من ذلك فى خدمته فى هذا اليوم؟ والخاتمة تكمل القصة بحل هذه الأسئلة وبهذا تنهى "حصر" الاختبار. والتفاصيل الختامية تنهى القصة كوحدة فكرية واختبارية كاملة.

وتختتم النهاية بالاختبار الذى تضمنته القصة. فالمقدمة عزلت الاختبار، وشرح القصة أعطاها شكلاً، والخاتمة أعطتها تحديداً. وبدون الخاتمة ما نجحت القصة أبداً، ولتفككت منذ البداية. فقد بُعث برسالة، ولكنها

كانت تزحف متثاقلة بدل أن تؤدى إلى الهدف المنشود. إن نوعيات نهايات القصص عديدة لا يمكن حصرها، لكن ضرورياتها تشير إلى:

(١) إتمام وحدة الاختبار للتوضيح، وذلك ببيان أنه قد استنفد الزمن والمكان أو الموقف الذى حدث فيه الاختبار.

(٢) أن التوترات، والعقد، أو المشاكل الداخلية الواردة فى القصة قد تم حلها، أو تشير إلى السبب فى أنها لم تُحل. والنهايات تختتم القصص بالإشارة إلى سبب التوقف هنا- الصورة انتهت الآن، وانتهى الحدث، والفكر قد اكتمل أيضاً.

تركيز الصورة

وماذا بعد النهاية؟ قد يبدو أن هذا سؤال غير متوقع، لأن الخاتمة تنهى القصة. وهى بالفعل تنهى سرد التفاصيل التوضيحية، ولكنها لا يجب أن تكون عادة نهاية فعاليات القصة. ومازال هناك ارتباك كبير فى النصوص الوعظية من ناحية الكيفية التى ينبغى على الوعاظ اتباعها فى نقل القصة من التوضيح إلى التطبيق. وقد كتب (سانجستر) يقول: "لقد وضعناها كقاعدة أن القصة التوضيحية لن تكون جيدة إذا لم تطبق عملياً.. فالرب يسوع لم يطبق إطلاقاً أمثلته عملياً وحتى حينما كان يفعل ذلك، فإنما كان هذا بناء على طلب التلاميذ".

وسرعان ما اضطر (سانجستر) إلى أن يضيف توضيحاً لملاحظاته: "وهذا لا يعنى أن الإنسان قد لا يختبر نقطة توضيحية مرة أخرى، بعد أن عرضها. والواقع أنه سيكون حكيماً إذا فعل ذلك. غير أن غير المتمرس فقط هو الذى يفسد هذا بإضفاء الإرشادات الأخلاقية . والأمر الغريب أن برايان عمل الشىء نفسه. فبعد أن قال إن "القصة الجيدة لا تحتاج إلى تعليق"، عاد فى نفس الفقرة إلى القول: "عادة ما يتطلب الأمر بعض العبارات القليلة الموجزة لإزالة التوتر والعودة بالشعب ثانية إلى عالمهم، ولكى تمكنهم من الإحساس بالقصة كجزء من خبرتهم.

قص الفكرة:

ويحدث الارتباك نتيجة عدم وجود فرق مناسب بين شرح القصة وسردها. فالقصص التى تقوم على مواقف حياتية تعمل كتصنيف يستخدم المستمعون بواسطته عالمهم الاختبارى لفهم الحقائق التى يريد الواعظ أن يوصلها لهم. وحين كنا طلبة فى المدرسة الابتدائية أخذنا معنا فى الغابات خريطة تصنيفية واكتشفنا نوعية الأشجار هناك، وذلك عن طريق مقارنة أوراقها ولحاها، وشكلها باستخدام الخريطة، وكنا نستخدم خرائط بعضنا البعض لاكتشاف حقائق معينة من خلال خبراتنا بها. إن القصص التوضيحية هى الخرائط التى يستخدمها الواعظ لسرد الحقائق فى إطار خبرة المستمعين بها. والمستمع بين حين وآخر يكون قد بدأ يبحث عن

بعض المفاهيم ، وبالاستعانة بقصة الواعظ التوضيحية يعرف أنه قد وجدها. وشخص كهذا لا يحتاج إلى مزيد من التعليمات. ومع ذلك، فالوعاظ كثيراً جداً ما يستخدمون القصص التوضيحية فى العظات التفسيرية لتوضيح وتعميق أو تطبيق الافتراضات التى تبدو غامضة، وغير هامة، أو غير ذات صلة حين تُقال لأول مرة. وفى العظات، التى تُقدم للمستمعين قصة توضيحية قائمة على موقف حياتي، يكونون كطفل اكتشف عن طريق الاختبار هذه الأفكار، ولكنه لايزال فى حاجة إلى من يقول له أهميتها، وكيف يمكن أن تفيده.

فالأحداث لا تتأمل نفسها. لكن الوعاظ يشركون المستمعين فى القصة من خلال وصف خبرة ما، وينبغى عليهم أيضاً أن ينسبوا التفاصيل للفكرة. ويقول هنرى داڤيز فى هذا الشأن:

"إن الحدث الإنسانى أو الشخصى يحتوى على معانٍ كثيرة، ولا يمكن أن يقتصر على معنى واحد إطلاقاً، والانطباع الذى يولده فى السامع قد لا يكون ذاك الذي يقصده الواعظ. وإذا ما أوحى للسامع بمعنى غير ذاك الذى يقصده الواعظ، فإنه سيتناقض مع فكر الواعظ".

ويعبر (سانچستر) عن شيء مماثل حين تحدث عن اختبار راع آخر:

"كان أحد أصدقائى يعظ بكل وضوح ومهارة عن "أفرايم ذهب وراء

الأصنام"، فقد فزع لأن يُشكر بعد ذلك لأنه اكتشف أنه يُشكر لشيء خطأ. وقال أحدهم في حماسة:

"هذا هو السبب في أني قلت، اتركهم مع أوثانهم. فإني لم أؤمن أيضاً بالإرساليات الأجنبية".

فالحيرة والاختلافات دائماً ما توجد بين الوعاظ ومستمعيهم. وهكذا، فإنه إذ سهل للمستمعين اكتشاف المعنى الاختباري من خلال قصة توضيحية، فإن الواعظ قد يكون مع ذلك في حاجة إلى أن يوضح بجلاء كيف أن التفاصيل تتعلق بالحقائق التي شُرحت. وقليل من التعليقات يمكنه أن يوضح القصة تماماً.

وإذا كان الرب يسوع لم يطبق قصصاً توضيحية معينة، فذلك إما لأن النقطة التي كان يستهدفها قد ذُكرت بشكل واضح قرب النهاية، ومن ثم كانت العلاقة بديهية (كما كان الأمر في مثل البنّاء الحكيم والبنّاء الجاهل)، وإما لأن الموضوع كان توضيحه خطيراً جداً حتى إن حقائق المثل قُصد لها بالفعل أن تخفى المعنى عن أولئك الذين لا ينتمون له. ويذكر إنجيل مرقس أنه حين كان المسيح وحده سأله الاثنى عشر وأولئك الذين كانوا حوله عن معنى الأمثال. فقال لهم يسوع: "قد أُعطى لكم أن تعرفوا سر ملكوت الله. وأما الذين هم من خارج فبالأمثال يكون لهم كل شيء. لكى

يبصروا مبصرين ولا ينظروا ويسمعوا سامعين ولا يفهموا" (مر ٤: ١٠-١٢). وإذا كان ثمة من يريد أن يجادل على أساس الأمثال بأن القصص التوضيحية يجب أن تُستخدم دون تطبيق بهدف تعزيز الفهم، فلابد لمثل هذا الشخص أن يتجاهل تبرير يسوع نفسه للسبب الذى حمله على استعمال الأمثال علانية، والسبب فى أن التطبيق كان يتم بعد ذلك على انفراد. وهذا ما واصل مرقس شرحه فى آية أساسية: "وبدون مثل لم يكن يكلمهم. وأما على انفراد فكان يفسر لتلاميذه كل شيء" (مر ٤: ٣٤).

وفور أن يُختتم التفسير التوضيحى للقصة، يجب على الواعظ أن ينسب التفاصيل للغرض الذى تم إبلاغه. وهناك طرق عديدة يمكن فيها للفكر والتوضيح أن يناقض كل منهما الآخر، على أن العادة جرت على وجوب ذكر العلاقة:

ويجب أن يُعزى المثال أو الاقتباس مباشرة للنقطة التى تم إثباتها. ولا يهم بأى حال أن تسبق القصة التوضيحية الحجة أو تأتى بعدها. ويجب أن يكون النهج استدلالياً بالنسبة للنقطة التى ذُكرت أولاً ثم بعد ذلك القصة التوضيحية، أو استقرائياً على أن تُسرد القصة التوضيحية أولاً والحجة التى أُخذت منها. وأياً كان النهج الذى اختير، فإن العلاقة بين المبدأ والمثل يجب أن تكون واضحة.

ويتفق (ليهمان) مع الملاحظة القائلة بأن "الجسر ما بين القصة التوضيحية ذاتها والتفسير لا يجب أن يكون متداعياً أو سيىء التحديد. فالقصة التوضيحية يجب أن تُنسب للنقطة التى تم إثباتها. وهذا يتم بعد الذروة التفسيرية للقصة، حين يكون الاهتمام، والانخراط والعواطف فى أعلى مستوى لها.

طبّق الحق:

لا يوجد ثمة سر فيما يتعلق بنسبة القصة إلى الحق الذى تم التعبير عنه، سوى الإهمال المتكرر. والكتبة الذين استُشهد بهم فى الفقرة السابقة يستخدمون تشكيلة من التعبيرات لوصف "الشىء" الذى يقيم جسر العلاقة بين القصة التوضيحية ومفهوم الحق: توضيح القصد المنشود والناحية الأخلاقية، والخاتمة، والتطبيق. فتنويع التعبيرات يعطى ثراءً وافراً لمفهومنا لما يجب أن يعمله هذا الجسر، ولكنه لا يعرفنا بكل دقة ما هو البناء. فمن ناحية التركيب، فالجسر ما هو إلاّ "قول مجمع" (أو: قول تفسيرى)، بمعنى أنه عبارة أو اثنتان يصل بهما الواعظ إلى القصة التوضيحية من أجل تفاصيل مفهوم الحق، وتستخرجه، ثم تربطهما معاً بالفكرة الرئيسية التى تم توصيلها للمستمعين.

إن تجميع العبارات يوضح التشابه بين تفاصيل القصة وحقائق

الافتراضات. ويجب على الواعظ أن يختتم القصة بعبارة مثل: "حتى وإن اكتشف فلان وفلان هذا الحق، فإنه يتوجب علينا..."، أو "وبالطريقة عينها..."، أو "ونحن أيضاً يجب علينا أن..."، أو "نتعلم من هذه القصة أنه مثلما...". أما البديل فهو أن تتوج القصة بتطبيق يُصاغ بكلمات مماثلة لعبارة رئيسية، أو فكر رئيسي، تكون قد تضمنته القصة. والعبارة المجمعة يمكن عندئذ أن تكون مشابهة لعبارة: "بدون إلهنا، ما كنا سنجد أبداً طريق العودة". والعبارات المتماثلة تغنى عن الحاجة إلى تعليقات تمهيدية تشير إلى أن علاقة ما سوف يتم تعريفها، لأن مثل هذه العلاقات يُشار إليها تلقائياً.

وثمة تشبيه للكفارة صار شهيراً على يد (دونالد جراى)، وهو يشرح أنه مثل ما يحدث حين ينظر شخص من خلال نظارة خضراء فلا يرى سوى اللون الأخضر، وحين ينظر من خلال نظارة حمراء فلا يرى سوى اللون الأحمر، فهكذا أيضاً على غرار ذلك حين ينظر الله إلى شخص خاطىء من خلال الرب يسوع، فإنه لايرى سوى ابنه. وقد انتشرت صورة مغايرة لهذا التشبيه فى انجلترا قبل ذلك بسنوات عديدة عن قصة توضيحية تُختتم بعبارات رائعة. وعلى أساس ما جاء فى إشعياء ١:١٨ ("إن كانت خطاياكم كالقرمز تبيض كالثلج") جاءت القصة التوضيحية هكذا:

"أثناء الحرب الأخيرة فى جنوب أفريقيا، وقفت فى أحد الطرق الرئيسية

أشاهد فوجاً من الجنود من ذوى السترات الحمراء يسيرون صوب الميناء للإبحار إلى الجبهة. فجاءنى أحد الأصدقاء قائلاً ما لون ستراتهم فى اعتقادك. أجبته، لماذا تسأل، إنها حمراء بكل تأكيد. فقال لى، بعد أن أعطانى قطعة من زجاج أحمر. ولدهشتى أننى حين نظرت من خلالها وجدت فرقة ذات سترات بيضاء تمر أمامى. فقال تبدو متشككاً، ولكن جربه بنفسك غداً. أحضر قطعة من قماش أحمر وانظر إليها من خلال نظارة حمراء، ولسوف تجد أن القماش أصبح أبيض اللون. وهكذا الأمر بالنسبة لخطايانا. فعلى الرغم من أنها كالقرمز، إلا أن دم المسيح ذا اللون الأحمر سيجعلها تبيض كالثلج.

وهذا توضيح رائع من عدة وجوه. لقد استخدم مبدأً علمياً، ومن خلال الوصف الاختبارى، كيفه مع اختبار ذى علاقة مأخوذة من واقع الحياة. بل وتضمن الإحساس بالمعنى، والحوار، بل وحتى براعة الحوار مع المستمعين. ولكن حتى مع كل هذه الملامح الرائعة، يعترف الكاتب بالحاجة إلى عبارة مجمعة تنسب الملامح ذات العلاقة التى تضمنتها القصة التوضيحية إلى النقطة التى استهدف توضيحها. والعبارة التفسيرية قصيرة -جملتان موجزتان- حتى لا يُفقد الاختبار فى توضيح الفكرة الرئيسية، إلا أنه يجب على الواعظ أن يأخذ وقته فى ربط التفاصيل والفكر معاً.

إن الأقوال المجمعة يمكنها أن تنقذ بالفعل التوضيحيات الخرقاء.

وثمة واعظ شبّه ذات مرة نتائج تقسى القلب فى عمل الخطية بتحجر قلب الرياضى فقال:

"إن الكثير منكم مارسوا لعبة البيسبول. وتعرفون كيف أنه عند بداية الموسم حين تبدأ بأرجحة المضرب فى التمرين، سرعان ما تتكون فى يدك بثرات ترغمك على التوقف. غير أن الأمر الطيب الذى بمقدورك أن تعمله هو أن تعود اليوم التالى إلى التمرين ولو بجرعة بسيطة، ثم تعود اليوم الذى بعده وتزيد الجرعة قليلاً، وهكذا دواليك. وقبل أن تعرف ذلك، فإنك بكثرة التدريب بالمضرب سوف تتكون لديك صلابة، ويصبح بمقدورك أن تضرب ضربات رباعية طوال اليوم دون أن تجرح يديك. وبنفس الطريقة، حين نكرر نوعية من الخطية يوماً تلو الآخر، تتقسى قلوبنا. ومن ثم نخطىء دون أن نشعر حتى بأننا نعمل خطية".

والمشكلة الرئيسية هنا هى أن القصة تبدو وكأنها تمتدح نفس الشىء الذى يريد الواعظ أن يشجبه. والخطية يمكن أن تصبح مثل البثور التى تصلبت، غير أنها فى القصة أصبحت أمراً طيباً، تمكن اللاعب من تحقيق ضربات رباعية. وبالرغم من هذا الخطأ الواضح، إلا أن التوضيح يبدو ناجحاً. لماذا؟ لأن الواعظ يعود إلى قصته ويستخلص منها فقط تلك التفاصيل التى يحتاجها لتوضيح هدفه. والعبارة المجمعة تأخذ الارتباك الظاهر، وتخرج منه فكراً متماسكاً.

ويستغنى بعض الوعاظ المتمكنين جداً عن مثل هذه الأقوال التفسيرية. ومع ذلك، فإن هذا لا يكون ممكناً فى العادة سوى لأن ما سيُقال فى القول المجمع إما أنه سبق قوله فى ملاحظات تهيىء السامعين للقصة، وإما أنه قيل فى إطار القصة ذاتها. والقصص التوضيحية لا يمكن أن تعمل بفاعلية بدون الأقوال المجمعة. وأكثر المتكلمين فصاحة يعمل مثل هذه الأقوال بوضوح معظم الوقت بقصص هى حقاً قصص توضيحية وليست مجرد إلماحات. والأقوال المجمعة قد لا تكون واضحة حتى بالنسبة للمتكلم نفسه، وهى لا تظهر عادة على صفحات المجلات أو الموسوعات القصصية التى تُنشر فيها القصص. ومرجع ذلك أن الأقوال المجمعة تأتى عادة بعد خاتمة القصة التوضيحية. ومع ذلك، فتعليقات المتكلم التى لا يدلى بها والتى عادة ما تتبع القصة غالباً ما تصنع علاقة من خلال صيغة ما لعبارة تفسيرية (والتى ستصبح ظاهرة بسهولة لأولئك الذين ينصتون لمثل هذه الأقوال).

إن القصص التوضيحية هى فى الأساس تصنيفات يكتشف الاختبار الحق بواسطتها. فهناك فى مكان ما يوجد قول يتحدث عما وجدته هذه المفاهيم. وبدون هذا القول الذى ينسب الرحلة الاختبارية لبعض الحق الموضوعى، فإن ملامح الاختبار (مع أنها مشوقة وممتعة جداً) لن تعنى شيئاً أو على الأقل لا تعنى شيئاً مؤكداً. وحين تستخدم قولاً تفسيرياً

موجزاً لكى تخبر سامعيك ما وجدوه معك، فإنك لا تكون قد تخليت عن مهارتك. بل بالأحرى، فإنك تخدم دعوتك بأن تجعل الحق ظاهراً.

الجزء الثالث

الممارسة:
العمل بالقصص التوضيحية

الفصل السابع

طبيعة القصص التوضيحية

حتى الآن، كنا نبين كيف أن القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية تشكل جزءاً هاماً من العظة لأنها تنفخ الحياة فى الافتراضات التى نأمل نحن كوعاظ أن نوصلها لشعب كنائسنا. لكن القصص التوضيحية تعمل أكثر من مجرد مساعدة الناس على جمع المعلومات، لأنها تدعم العلاقة بين الراعى وشعبه، وتضفى على وعظنا مزيداً من الفعالية. ثم إنها تقوى أيضاً النمو الروحى بين مستمعينا فيما يتعلمون أن يجدوا أنفسهم فى خضم حقائق الكتاب المقدس.

الشهادة

إن القصص تكشفنا. فنحن نشرح أنفسنا لأنفسنا وللآخرين فى قصصنا. وقد كتب (چوليان چينز) فى هذا الصدد قائلاً:

نحن ننظر دائماً إلى أنفسنا على أنها الشخصيات الرئيسية فى قصص حياتنا.. فإذ أجلس حيث أنا، فإنى أكتب كتاباً، وهذه الحقيقة كامنة تقريباً فى قلب قصة حياتى إذ آخذ الزمن مكاناً فى رحلة أيامى وسنى حياتى. ويُنظر إلى مواقف جديدة بصفة اختيارية على أنها جزء من هذه القصة المستمرة، ولا نلاحظ فيها المفاهيم التى لا تلائمنا، أو على الأقل لا نتذكرها. والأهم من ذلك أننا نختار مواقف تتناسب مع هذه القصة المتواصلة إلى أن تحدد الصورة التى أضعها لنفسى فى قصة حياتى

بالكيفية التى أتصرف بها، وأختار من بين المواقف الجديدة ما يبرز أمامى...

ولكن الأمر لا يقتصر فقط على ما يماثل "أنا" بالنسبة لما أحكيه، بل يشمل الأمر كل شيء آخر فى وعيى. فثمة حقيقة شاردة أحكيها لتنسجم مع حقيقة شاردة أخرى. فصرخات طفل فى الشارع نسمعها فإذا بنا نعيد سرد الحدث فى صورة ذهنية لطفل ضال، ووالد يبحث عنه.

الربط العقلى:

حينما تقوم كواعظ بعزل خبرة لتربط بينها وبين فكرة ما، فإنك تختصر فقرة من قصة حياتك. وأنت توصل المعلومات تسمح لسامعيك أن يدخلوا قصة اختبارك مع الأفكار التى تحاول أن تسردها. وحتى إذا لم تذكر بالتفصيل كيف أثر فيك الاختبار، فإن قصتك، تكشفك. وردّ فعلك بالنسبة للقصة.. يظهر. فالقيم، والحب، والكراهية التى تطفو على سطح خياراتك تصبح جلية سواء فى خلق القصة، أو فى الكيفية التى تم ربط عناصر القصة بالمفهوم الذى تم التحدث عنه. وهذه الرواية تمكن المستمعين أن يختبروا خبرتك الشخصية، ومن يفهموك بطريقة مماثلة.

وعلى سبيل المثال، ما من أحد يمكنه أن يتعاطف مع الحقيقة التاريخية بأن (كورتيز) حرق سفنه حتى لا تقع قواته تحت إغراء العودة دون اكتشافهم

العالم الجديد. لكن الوعاظ الذين يقرأون تلك القصة يمكن أن يتأثروا بالكيفية التى تمكنهم بطريقة مماثلة من أن يدمروا المعوقات التى تقف أمام المؤمنين. وإذا سردت على شعب كنيستك قصة أعمال (كورتيز)، فإنك بهذا لا تعيد خلق الحدث لتتحدث عن عزمه وقلق رجاله فحسب، بل تخبر الشعب أيضاً عن اختبارك الشخصى مع تلك القصة. فالقصة تعنى شيئاً لك. وإنك إذ تقصها فى ضوء تجاربك، يجب أن تشرك المستمعين فى اختبارك، وبهذا تمكنهم من معرفة فكرك. فالقصص التى تختارها تكشف بصفة أساسية عن أكثر مفاهيمك الشخصية سواء قصدت ذلك أم لا.

شرح الشخصية:

تقف وراء كل قصة توضيحية قصتك الشخصية. ما الذى دفعك إلى التفكير فى القصة، وما الذى جعلك تعتقد أنها مناسبة؟ وبأى الطرق تعرض عمق فهمك وحقيقة أو مدى قابلية رسالتك للتطبيق من خلال الطريقة التى تتكشف فيها قصتك، وتشرح الحق الذى تريد أن تؤكده؟ وخلاصة القول، ما الذى تقوله لنا عن نفسك من خلال القصص التى تحكيها؟ وباعتبار القصة قد قيلت بوضوح، فإن الشرح الشخصى الكامن فى مثل هذه القصة يؤثر بصفة مباشرة فى قبول افتراضاتك لأنها تؤثر بصفة مباشرة فى تقبل المستمعين لك باعتبارك واعظهم وراعيهم.

وأية قصة تقوم على أساس موقف حياتى ما هى إلا نافذة ليس فقط لمعنى الرسالة، بل ولقصد حاملها أيضاً. فقصتك الشخصية تومض دائماً فى خلفية أية قصة ترويها ، فهى تشهد على طبعك ومبادئك، وأولوياتك. فنحن قصصنا. فهى تثبت علانية نفوسنا ، وخلفياتنا ، ونوايانا ، بعرضها التأثير الذى سبق أن أحدثه فينا الكتاب المقدس الذى نشرحه. ففى سردنا قصة توضيحية لشرح حق كتابى، فنحن بالضرورة نطبق فكرنا على حقائق عالمنا. وهكذا فلابد من أن نكشف عالم تفكيرنا فى هذا الحق. ويقول الواعظ فى القصة "إن هذا ما أعتقد ما يعنيه هذا فى عالمى". وليس ثمة مجال هنا للتخفى وراء الأفكار اللاهوتية التجريدية، والمفاهيم العقيدية. فالحق أصبح الآن ظاهراً للعيان.

قوة النواحى الأخلاقية:

إن الأسلوب القوى هو الذى تعرض به شخصية الواعظ أو أخلاقياته نفسها فى سرده لقصص توضيحية قائمة على مواقف حياتية. وما من افتراض لاقى إجماعاً فى الدراسات التقليدية أو المعاصرة لعلم البلاغة أكثر مما لاقته حقيقة أن شخصية المتكلم المفهومة "هى أكثر قوى الإقناع قوة". ويزعم (روجر نيبرجل) إنه لم يكن هناك اكتشاف قوى فى الأبحاث الخاصة بتواصل المعلومات فى العقود الحديثة أكثر من اكتشاف أن تأثيرات مضمون الرسالة وحدها فى إحداث تغيير سلوكى تُعد ثانوية بمقارنتها

بالانطباع الذى تولده شخصية المتكلم فى المستمعين.

وباعتبار هذه الفعاليات الأخلاقية القوية ظاهرة بنوع خاص فى القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية، لذلك فهذه القصص أدوات وعظ حيوية. فجدارتك الشخصية كواعظ أمامها فرصة للتألق من خلال سردك قصة، ليس نتيجة سلامة ومصداقية التفاصيل التى سردتها فحسب، بل أيضاً من خلال معقولية التطبيق وما أظهره من اهتمام. وإذا ما أشارت قصتك إلى عدم تقديرها لمشاعر المستمعين، وتناولت مثاليات غير مناسبة أو توقعات غير معقولة، هنا سيشعر المستمعون بأنه ليس فى وسعهم أن يثقوا فى حكمك وتقديرك. وعلى النقيض من ذلك، إذا ما أُحسن تدبر هذه العناصر، واستُغلت بشكل طيب، تنمو الثقة، وتتضاعف الفعالية المرتقبة.

وإذا لم تُبين إطلاقاً أن المبادىء النبيلة التى تعتنقها لها علاقة بواقع الحياة، فمن المؤكد أن ذلك سيكون له تأثير سلبى على مصداقيتك. وهناك وعاظ كثيرون ينفرون من القصص لأنهم يخشون أنها ستضفى طابعاً زائفاً على وعظهم، ولكنهم لا يدرون أن افتقار وعظهم إلى نماذج من واقع الحياة من المحتمل أن يجعل وعظهم جافاً. وإذا لم تستطع أن تضع رسائل فى المواقف المألوفة فى حياة الشعب اليومية، فإنك بهذا ترغمهم على اعتقاد أنك تفتقر إلى الشجاعة أو البصيرة المطلوبة لموضوعات

الحياة. وبالنظر إلى أن تقدير شعب الكنيسة لفهمك وحكمتك وأمانتك يمكن أن يزيد بتطبيق المفاهيم الدينية على العالم المعاصر، فإن القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية تكون قوية بصفة خاصة حين توضح حقاً وتشرحه. ومثل هذه "السيوف ذات الحدين" لا توضح الحق فحسب، بل إنها تذهب إلى أبعد من ذلك إذ تبين أن المبدأ يمكن أن ينجح فى الحياة الواقعية، وهكذا يقدر المستمعون أن يسيروا وفق الكتاب المقدس.

الحق فى موضعه:

ثم إنك تبين معرفة واسعة بموضوعك وبشعبك حين يكون الحق الذى توضحه فى موضعه. وهذا أمر هام. فحين تتكلم إلى الناس فى سياق حياتهم اليومية، فإنك بهذا تظهر أنك مهتم حقاً بتدعيم فهمهم وليس بمجرد الحفاظ على وظيفتك. وكان المعلمون فى الأجيال السابقة يقولون إن الوعظ لا ينبغى أن يتضمن سوى مبادىء عامة ليستخدمها الروح القدس لتنطبق على قلوب الناس ومواقفهم. وقد فشل هذا التعليم بعد معرفة أن التعميم هو حشو العظات بما يبعدنا عن تأثير الأسفار المقدسة. فالناس يحتاجون التفاصيل ويريدونها. وحتى إذا كان ذاك الذى يفسر الإنجيل بدا عاجزاً عن معرفة كيف تُطبق حقائقه، هنا سيخشى الناس أن يكون الإنجيل مجرد أمل كاذب. لكن إذا استطعت أن توضح المبادىء الكتابية

فى إطار من مواقف الحياة الواقعية، هنا ستكتسى الحقائق بمصداقية، الأمر الذى يشجع المستمعين على تطبيقها. فالاشتراك النيابى الذى تتيحه القصص هو السابقة التى يحتاجها الناس لفهم تعليمات الروح القدس المتعلقة بمواقفهم والاستجابة لها.

يعرف شعب كنيستك من خلال القصص التوضيحية التى تختارها، ما إذا كانت العظة عملية، وما إذا كان يمكن الوثوق فى معرفتك، وفهمك، ومقاصدك. وخياراتك بالنسبة للقصص التوضيحية تبين محبتك من عدمه. وكما يقول (فريدريك بوكنر): "لا يجب أن يظهر من مقاعد الجمهور التى تتقاذفها العاصفة، أنك الوحيد الذى لا يرى أن ارتفاع الأمواج بلغ عشرين قدماً. والقصص التوضيحية ذات المغزى والتى تقوم على مواقف حياتية تثبت أنك مهتم بأن يفهمك الشعب، وأنك تفهمهم. وبهذا توضح القصص العنصر الرئيسى للحالة المزاجية للشعب، أى الرضا والارتياح. وبدل أن تنشغل بمعرفتك الشخصية الواسعة، أو حماية نفسك من تناقض محتمل فى الأفكار العقيدية التجريدية، فإنك تظهر أولوية لفهم المستمعين حين تستخدم قصصاً توضيحية تقوم على مواقف حياتية وإلى حد أنك - بالنسبة للأفكار المقدمة سواء كانت تشكل تحدياً أم كانت صحيحة- تعرّض نفسك للمخاطرة نيابة عن سامعيك. وحين يرى الناس أنك كراعٍ، ترغب فى أن تخوض هذه المخاطر نيابة عنهم، فإن تقديرهم لشخصك وحنانك

سيضيف قوة عظيمة لرسالتك.

ومن الطبيعى أن القصص التوضيحية يمكن أن تتضمن بعض الأخطاء التى قد تدمر فى الحال ثقة المستمعين فى أمانتك وحكمتك ونواياك الطيبة: كقصص الوعاظ القدماء، والأمثلة غير المتوقعة، والإشارة إلى الذات أو العائلة بطريقة غير مناسبة، أو إغفال الاسم، وما إلى ذلك. وعليك ألاّ تنسى أبداً أن القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية تحتوى على عناصر تلقى الضوء على شخصيتك، ومن ثم، تؤثر بشكل قوى فى قدرة الرسالة على الإقناع. فالقصص الكامنة وراء التوضيحات القائمة على مواقف حياتية- والخيارات التى اتُبعت فى اختيارها، والقرارات التى تحكم مدى مناسبتها، بل وحتى الخيار الخاص باستعمال مثل هذه القصص- تشكل شهادة شخصية أسبوعية، عن كيفية تأثير الإنجيل فيك.

الشهادة

إن القصص التوضيحية التى تقوم على مواقف حياتية، لا تكشف عن شخصية الواعظ فحسب، بل إنها تساعد الناس أيضاً على أن يجدوا أنفسهم فى سياقات الحقائق الكتابية. وعلى الرغم من أن (كيلنجر) لم يستعمل عبارة "قصص توضيحية من مواقف حياتية" إلا أنه يشرح وظيفة

رائعة تؤديها هذه القصص التوضيحية فى أكمل موجز للفكر السالف الذكر.

القصص التوضيحية الشخصية: وأعترف بأن هذه النوعية هى المفضلة لدى. وهى القصص المأخوذة من تجارب الرجال والنساء والأطفال، والتى يرويها الأشخاص الذين وقعت لهم، ويشاركهم الواعظ فيها. وهى تضفى مسحة أمانة على الإنجيل، لا تتأتى من أى شىء آخر. وهى تجعل الإنجيل يبدو حقيقياً ومؤثراً، ومتجسداً حقاً.

وبالتعبير عن الحقائق يمكّن الوعاظ، مستمعيهم من معرفة أن خبراتهم ليست فى حاجة إلى أن تكون فريدة. فشهادة الإنجيل الكامنة فى قصصهم تعمل على إقناع الآخرين بأن الحقائق التى ذُكرت يمكن أن توجد أيضاً فى حياتهم. فالشهادة تحث الآخرين ألا يروا أنفسهم فى عزلة مع متاعبهم واهتماماتهم، بل تساعدهم على أن يروا فى قصص الآخرين إجابة لمشاكلهم. والشهادة تعمل من أجل تقديم حق رائع، فى الوقت الذى تدعو فيه الآخرين أن يروا تطبيقها العام.

إن عنصر الشهادة فى القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية يساعد على رفع العظات فوق مستوى التكرار لعقائد استقرت منذ أمد بعيد. وحين يتردد صدى قصتك فى قصة العظة بطريقة يستطيع معها

الآخرون أن يقولوا: "هذه هي الطريقة التى شعرت بها"، أو "فهمت كيف أن هذا سيكون له معنى فى حياتى"، تكون للعظة إمكانات فعلية عظيمة جداً من ناحية تأثيرها فى الضعفات التى تؤدى إلى تغيير القلوب. وقد خمن (ألين) نفس هذا التقييم، حيث قال: "لا توجد هناك وسائل موثوق بها، تؤكد أن نصاً معيناً يمكن أن يصبح حقيقة واقعة. ولكن وجدت أنه حينما أختبر بالفعل جزءاً من القصة الكتابية وأشعر به كأنه قصتى، تزداد فرص اختبار من يستمعونى بأنها قصصهم أيضاً. فالعظة تتجاوز مجرد تقديم مادة وعظية، إنها تقديم شخصى. ونحن الوعاظ يجب أن نشارك الآخرين "لا بإنجيل الله فقط بل بأنفسنا أيضاً" (١تس ٢:٨)، لأن مثل هذه الشهادة تفتح أبواب الإنجيل واسعاً جداً حتى يستطيع الناس أن يروا أنفسهم فى بيئته.

وحتى يشعر أفراد من شعب الكنيسة أن عنصراً من الحق الكتابى يمكن أن "يصبح حقيقة" فى الاختبار الفعلى لشخص آخر، هنا يبدأون فى الاعتقاد بأن هذا الحق قد يكون له علاقة ما بهم. وإذا أوضحت قصتك أنك شخص حقيقى، وأنك تلمس مشاعر حقيقية، وتدرك حياة حقيقية، فإنك بهذا تقدم أملاً وتشجيعاً لكل من يسمعون أن الكتاب المقدس يتكلم من أجلهم.

الكنز المخفى

كثيراً ما تكون شهادة الواعظ، والشهادة التى تقدمها القصص التوضيحية للمستمعين ليس لها ملامح مقنعة. فتوصيل الحق الكتابى مرتبط بشكل لا ينفصل بما عُرف عن شخصيتك.

وينفر الوعاظ من القصص التوضيحية، حيث يخشون أن تسلب "الكلمة" من تأثيرها. وكم هو أمر لطيف أن تدرك أن القصص التوضيحية التى يتذوقها شعب الكنيسة بدرجة كبيرة تُعد أدوات قوية لتوصيل الحق الكتابى والكشف عن فهمك الكامل للكلمة.

ومثل كنز فى فناء خلفى مخفى لأن ثروته مخفية فى وسط الأشياء المألوفة جداً، إن قيمة القصص التوضيحية يمكن أن تختفى بسبب انتشار استعمالها ومضمونها. وربما نرى قيمتها الحقيقية حين تتذكر أن أولئك الذين تعودوا أن يحبوك ويثقوا فيك من خلال الحقائق التى تطبقها واقعياً، هم الذين من المرجح أن يقبلوا الحقائق ويعملوا ما تقوله.

الفصل الثامن

كـــــن حـــــذراً !

حين تصور القصص التوضيحية الواقع، والأمانة، والمحبة، تتضاعف قوة إقناع العظة ثلاثة مرات. ومما يُؤسف له أن هذه السجايا لا تأتى مصادفة. ولكنها إن لم تروى ببراعة وحرص تضعف شخصية الراعى، أو تهز ثقة شعب الكنيسة فيه. وفيما يلى بعض التحذيرات التى تساهم فى أن تصبح القصة فعالة دون أن تخلق حواجز.

لا تعطى القصص أكثر مما تستحقه

تعد القصص التوضيحية وسيلة لا غاية. وهدف العظة هو أن تقدم حقاً كتابياً لا أن تقدم قصصاً. وبقدر ما للقصص التوضيحية من فائدة، إلا أن العظة التى تُبنى على أساس القصص وليس على أساس شرح كتابى متين تُعد ابتعاداً عن الوضع الصحيح. ومع أن الخط رفيع جداً بين استعمال قصة جيدة لبناء العظة، وبين بناء العظة من أجل قصة، إلا أن الفرق حقيقى. وخدمة ذاك الذى لا يعرف هذا الفرق يمكن أن تُشوه بطرق لا تُعرف مباشرة. فالواعظ الذى يكتب العظة ليخدم القصة لا التفسير، لابد وأن ينتقل من المنبر إلى المسرح، ومن العمل كراعٍ إلى العمل بالاستعراضات.

المركز:

بمقدور أى متكلم عام متمرس أن يختار موضوعاً، ويجمع معاً عدداً

من القصص التى تؤثر فى المستمعين عاطفياً، لكن هذا ليس وعظاً. فالشروع فى الكلام المنمق، والقصص المحفوظة، لا تصنع موعظة حتى وإن لاقت سرور المستمعين. فحين يعمل الروح القدس بكلمة الله فى قلوب الناس هنا يمكن أن تتحقق التغييرات الروحية التى هى من سمة الوعظ الحقيقى. وما لم يكن لتفسير حقائق الكتاب المقدس الأولوية المطلقة على المنبر، فلا يمكن لأية قصة أن توفر لنا المادة اللازمة كى تكون رسالة جديرة بمهمة الواعظ الأساسية. ويمكن أن يُخدع الإنسان ويعتقد أن العظة التى تُقال أساساً لتسر السامعين ستكون لها فاعلية كبيرة إذا كان من شأن القصص أن تثير موجات متواصلة من الضحك أو الدموع، لكن الخداع يكون واضحاً إذا ما قُلل من شأن حقائق "الكلمة" بأى شكل كان، أو التضحية بها من أجل القبول الشعبى. فالتركيز الصحيح للقصص التوضيحية يكمن فى تقديم الحق الكتابى بطريقة تمكن من سماعه وتطبيقه.

التوازن:

إن القصص التى توضع فى موضعها الصحيح يمكن أن تعطى العظة تناغماً وتناسقاً. لكن ثقل التفسير التقليدى كثيراً ما يحتاج إلى تخفيض حدته بالقصص التوضيحية حتى يتمكن المستمعون من تقبل الرسالة.

وفى الوقت ذاته نجد أن العظات المشحونة بالقصص أكثر من اللازم تضر الواعظ، حيث يعلّق السامعون قائلين: "كل ما فعله هذا هو أنه سرد بعض القصص". ولم يكن من الغريب أن يصف (إدوارد ماركارت) مثل هذه العظات بأنها "ناطحات سحاب" أى أنها قصة مبنية فوق سطح قصة. فالعظة التى تستغرق فيها المادة القصصية عشرين دقيقة، ولا يُخصص للتفسير التقليدى سوى دقيقتين تعد عظة فاشلة. ثم إن عشرين دقيقة من الشرح وطرح الأفكار، ودقيقتين للقصة التوضيحية يُعد أمراً يفتقر إلى التناغم.

ولا يتحقق التوازن على أفضل وجه عن طريق استخدام معيار جامد لعدد القصص ومكان وضعها، بل بتقدير للكيفية التى يمكن بها أن تحقق الهدف المرجو على أفضل نحو، وكذلك بالنسبة لمكانها فى العظة. ومن ناحية ما تُخصص قصة توضيحية لكل قسم كبير من العظة. وسواء جاءت القصة عند نهاية كل النقاط الفرعية التى توجز النقطة الرئيسية، أو جاءت مباشرة بعد نقطة فرعية كان تفسيرها صعباً بصفة خاصة، أو حتى كنقلة تبين العلاقة بين نقطتين، فهذا أمر من الأفضل تركه لمهارة الواعظ الذى هو أقدر من يستطيع معرفة احتياجات العظة ككل. وعلى سبيل المثال، إذا كانت قصة توضيحية قوية تشكل خاتمة العظة، فمن الحكمة أن تستخدم القصة الخاصة بالنقطة الرئيسية الأخيرة، فى وقت

مبكر، حتى لا تضر بالخاتمة. وإذا كانت القصة الخاصة بالنقطة الرئيسية، والقصة الخاصة بالخاتمة متقاربتين جداً، فإن ذلك سيطيح بتناغم العظة ويقل تأثير كل من هاتين القصتين.

تشير دراسات في مجال وسائل الاتصال الجماهيرية إلى أنه كثيراً ما يكون من الأفضل استخدام قصة توضيحية، مباشرة بعد أول ذكر لمبدأ تفسيرى خلال تطور نقطة رئيسية. وهذا الأسلوب مغر فيما يقدم موضوعاً إذ أن ذلك من شأنه أن نقدم النقطة المراد توضيحها دون أن تفقد سوى أقل قدر من الاهتمام، أو نواجه جدلاً من المستمعين. ومن المفهوم أن هذه طريقة رائجة بين وعاظ الإذاعة.

وقد يكون من المناسب أن تظهر القصص التوضيحية فى بداية نقطة أساسية، وفى المنتصف، وعند النهاية، وكذلك عند الانتقال بين النقاط الأساسية. وما أن يكتشف الواعظ كيف تنتزع القصص التوضيحية بقوة استجابة السامعين، إلا ويدرك أيضاً أنها يمكن أن تظهر فى أى مكان من العظة، ويجد أن إغراء استعمال القصص فى أى مكان، أصبح أمراً لا يقاوم. ويجب علينا مقاومة هذا الإغراء، وإذا كان لنا أن نرسم رسماً بيانياً لقوة عظة ما، سنجد أن القمم تميل إلى الارتفاع حول القصص، ولاسيما إذا جاء التطبيق مع قصة توضيحية. لكن إذا كانت العظة تقتصر على القمم القصصية فقط، فلن يحظى أى جزء بالتأثير المطلوب.

والوعاظ الذين يتخمون عظاتهم بالقصص لكسب رضاء المستمعين يجدون أنفسهم فى مشكلة. كما أن الرعاة أيضاً يفقدون مصداقيتهم بسبب ضحالة الفكر.

وإذا كان عليك أن تضع قائمة لأكثر ما يُحتمل أن يتذكره شخص من أية عظة جيدة الإعداد، فلسوف تأتى القائمة هكذا:

مكون العظة يحتفظ بالتسلسل الهرمى

قصة توضيحية ختامية

قصة توضيحية تمهيدية

قصص أخرى

تطبيقات معينة

فكرة أساسية عن العظة

فكر مثير تم التعبير عنه فى العظة

عبارة تختص بنقطة رئيسية

مفهوم تفسيرى

إن الانطباع الذى تخلفه مثل هذه القائمة هو أن الأولوية يجب أن تُولى

للقصة وليس للشرح الافتراضى، بالنظر إلى أنه ليس من المحتمل أن يتذكر الناس هذا الأخير. وعدم التوازن يمكن أن يأتى بسهولة حين يشعر الوعاظ بأن القصص التوضيحية هى ما يبدو أن شعب الكنيسة يعطيها أكبر تقدير فى العظات. ومع ذلك فإن عدم التوازن هذا سوف يصحح نفسه، حين يتذكر الوعاظ أن القائمة ليست كاملة. فالناس يتذكرون شخصية من يقدم كلمة الله بأكثر من أى مكون آخر للعظة. فهم يسمعون عظة لكنهم يتذكرون الواعظ. وإذا كان الانطباع الذى تولد فيهم عن الواعظ هو أن عظاته مسلية لكنها تفتقر إلى عمق الفكر، فهنا تهتز مصداقية الواعظ إلى حد كبير، ومن ثم لا تستطيع العظة أن تنجز أسمى أهدافها. ومهما كان موقع الجدل، فإنه لا يمكن الاستهانة بهذه الطريقة حيث تؤثر بالسلب على الرسالة. وأفضل استعمال للقصص التوضيحية إنما يتأتى حين تدعم الشرح، وليس حين تكون بديلاً عنه. ولهذا السبب فإن العبارات الرئيسية للتفسير (ولاسيما المصطلحات الخاصة بالنقط الفرعية) يجب أن يتردد صداها بصفة مستمرة منذ سرد القصة، حتى تظل أولوية التفسير موضع تركيز، ويظل الحق واضحاً فى المشهد.

إن طبيعة العظة، وطبيعة القصص الخيالية، وطبيعة الجمهور المستهدف، تؤثر على التوازن الصحيح للقصة فى العظة. وتروج اليوم فى بعض الدوائر العظة القصصية التى تقدم حقاً كتابياً على نمط المثل. والقصة

المطولة التى تُختتم بفكر أخلاقى صائب تشكل العظة. ولا ينبغى أن نشجب هذه الطريقة لأنها كثيراً ما كانت طريقة الرب يسوع فى التعليم. ومثل هذه العظات بوسعها أن تخدم أغراضاً هامة، لكن وجهة النظر المتوازنة، ستذكرنا أن الرب يسوع استعمل هذا النهج فى سياق كان بمقدوره أن يفترض أن سامعيه كانوا يعرفون الكثير عن التعليم الكتابى. ومن غير المحتمل أنه كان يعتقد أن الشعب سيشبع بشكل كاف لو اقتصر طعامه على الناحية المجازية فحسب.

ومن بين طرق زيادة الناحية القصصية فى العظات، تشكيل نوعيات المادة القصصية. وكما ذُكر سابقاً، فالقصص الكاملة بها تفاصيل حية كافية من شأنها أن تجعل المستمع يقتنع بالحق الذى تم التعبير عنه. وهذا معناه أن القصص هى حكايات ستستغرق بعض الوقت للتعبير عنها، وتشرح السبب فى أن الحكمة التقليدية لا تنصح سوى بقصة واحدة لكل قسم كبير من العظة. ومع ذلك، فإن هذا القياس لا ينطبق على الأشكال القصصية الموجزة، مثل الصور الكلامية، والأمثلة، والاقتباسات والإلماحات الموجزة. والواقع أن العظات تكون مستساغة بالأكثر إذا ما تناثر فيها العنصر التوضيحى بمجموعة من الأشكال القصصية.

ولعله ما من متغير يمكنه أن يحدد التوازن الصحيح للقصص التوضيحية فى العظة أكثر من طبيعة المستمعين. فمن الصعب أن نتوقع

من مجموعة من طلبة الثانوى أن يقدروا المادة المقدّمة لمجموعة من الأساتذة فى مؤتمر محدود. وطبيعة السكان، وحالة المصلين، والهدف الرعوى، يجب أن تستهدف جميعاً رسالة، تساعد فى التحكم فى الكمية المناسبة من القصص التوضيحية.

والوعاظ الذين يعدون عظات لمصلين ينتمون لقطاع عريض من الأعمار والمهن، والخلفيات الكنسية، يجب عليهم أن يخططوا بأن تكون هناك قصة فى كل جزء رئيسى من العظة، بما فى ذلك المقدمة والخاتمة. ولكن تطبيق هذا الرأى يجب أن يكون متغيراً إلى حد كبير، مع الأخذ فى الاعتبار النوعيات المختلفة من السامعين. وقد علّم لاهوتيو ويستمنستر أن هذه العظات يجب أن تُعد طبقاً "لاحتياجات وقدرات السامعين". وهذه الحكمة تحذر الوعاظ بألاّ يسمحوا لأولوياتهم بأن تطغى على احتياجات شعب الكنيسة. وقد قدم (هورتون) هذه النصيحة للرعاة منذ قرن مضى فقال:

"إن الأساليب النظرية تتأصل فينا نحن الوعاظ بسهولة كبيرة حين نقضى وقتاً طويلاً فى قراءة الكتب والاستغراق فى الدراسة. وتصبح القصص مملة وغير مقبولة بالنسبة للمفكر المتمرس. ويصبح الإعجاب بالبراهين المترابطة وإقناع الفكر بوسائل منطقية أمراً لا يقاوم بالنسبة للعقل الناضج. ولا شك فى هذه الحالة يكون الواعظ فى مرات كثيرة فى

موضع خطر، إذا ما أخذ يفكر فى الأمور الفلسفية وكأن لها علاقة بالواقع.

وفى حين أن إعداد الواعظ للخدمة هو بالضرورة أمر أكاديمى، فإن الواعظ ينسى ما تعنيه الخدمة، وذلك بتقليده التعبيرات الخاصة بالعلماء الواردة فى الكتب الأكاديمية. وعند نقطة ما فى الخدمة على الواعظ أن يقرر: "هل سأعظ للوعاظ، أم للناس"؟ وتدل الطريقة التى توازن بها استعمال القصص التوضيحية على الطريق الذى ستختاره.

الفعالية:

يمكنك أن تحدد متى وأين يمكن استخدام القصص التوضيحية، وذلك بتقديم ما سيضفى على تطبيق الرسالة أكبر قدر من الفعالية. فالغرض من الوعظ ليس مجرد شرح ما يعنيه النص، بل نصح شعب الله على أن يعملوا أو يؤمنوا بما يتطلبه النص. والتفسير بلا هدف أمر لا معنى له. ومن ثم فإن أفضل استخدام للقصص التوضيحية، إنما يكون حينما تقدم أقوى فاعلية ممكنة لتحريك الناس لتطبيق كلمة الله فى حياتهم. وهذا يعنى أن القصص التوضيحية يجب أن تركز على توضيح التفسير لكى تتيح فهماً كافياً لتطبيق النص. وفى أحوال أخرى يكون من الأفضل استخدام القصص التوضيحية لخلق شعور عميق بالنسبة لموضوع

مألوف مستهلك. وسواء كانت الفعالية التى نقدمها عقلية، أم عاطفية، أم خليطاً من الناحيتين، فإن هذه القصص تنجح بأفضل ما يكون حين يستخدمها الواعظ للتأثير على سامعيه. فمثل هذا الاستخدام يضفى كرامة على القصص التوضيحية بأن يأخذها من عالم التسلية ويستخدمها للمساهمة فى تطبيق العظة.

إن القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية، تقدم فعالية للتطبيق لأنها تؤكد أن الحق الذى شُرح هو واقع من الحياة. وأن المبادىء التى لها مرجعية عالمية ليست أوهاماً مثالية. بل يمكن لهذه القصص أن تجعل الحق واقعياً. وليس ذلك فحسب، بل وتجعل التطبيق يبدو ممكناً، وهذه خطوة صغيرة، ولكنها حيوية فى تحريك الإرادة لعمل قانون الكتاب المقدس. وحين يرى الناس الحق الروحى فى المشاهد، والأحداث، والظروف التى تشكل الأرضية المشتركة للخبرة الإنسانية، يثقون أكثر فى كلام الواعظ. فالقصص التوضيحية يجب أن تحمل بين ثناياها برهاناً مقنعاً.

وحين يكون تطبيق العظة موضع جدل، فبمقدور القصص التوضيحية أن تثبت فائدتها. وعلى الرغم من أن براهين العظة يمكن أن تكون موضع تحد أيضاً إلا أن الصور التى تتضمنها القصة التوضيحية تبين النوايا الطيبة للواعظ. فمجرد الرغبة فى استخدام قصة توضيحية قد تبين لشعب الكنيسة أن الراعى مهتم بهم بما فيه الكفاية، ومن ثم يقول لهم

أشياء بطريقة يستطيعون فهمها. ومع ذلك فإنه فى العظات الجدلية نجد أن أكثر ملامح القصص إقناعاً قد يكون فى قدرتها على إزالة التوترات، أو على الأقل تأخيرها. وفى الوقت الذى تبدأ فيه قصة، يتوقف الجدال.

ومن شأن القصة أن تقود السامعين للوصول إلى مضامين معينة، والتأكيدات المأخوذة من واقع الحياة، يمكن تعزيزها فى تفاصيل القصة. ويمكن للواعظ الماهر أن يثير الاهتمام، ويرسخ الألفة، ويظهر العناية، ويستشهد بأقوال الخبراء، ويبين الواقعية، ويتعاطف مع المعارضين، ويهدىء الاعتراضات، قبل أن يقود المستمعين إلى استنتاجات لم يكن لها أن تُسمع فى ظروف مغايرة. إن فكرة هذا النهج لا تستغل الكلمة أو تستهين بها، بل تجعل الأذن مفتوحة لمدة كافية لسماع حق الله كله.

وثمة سبب آخر كثيراً ما يبديه الناس لعدم إنصاتهم للعظات، وهو أن الوعاظ يتناولون موضوعات لا أهمية لها. فالواعظ قد يواصل أسبوعاً تلو الآخر فى حديث ممل عن أمور تبين عدم أهميتها، ولا يبدو أن أحداً يتأثر بما يقال. وهنا يمكن للقصص التوضيحية أن تخدم التطبيق. وبالنظر إلى أن القصص التوضيحية القائمة على مواقف حياتية يمكن أن تؤثر فى الناس بشكل عميق، لذا فهى تصادق على أهمية ما يُقال، وتضفى مصداقية منطقية لأهمية الحق حين يطبق فى الحياة. ومن الطبيعى أن المناشدات العاطفية قد تكون زائفة، ومبالغاً فيها، لكنها حين تعكس

الشعور الحقيقى فإنها تزيد من قدرة العظة على الإقناع. ويعكس تطبيق العظة الذى تسنده مناشدة العقل والقلب قصد الكتاب المقدس ونهجه.

القصص التوضيحية

بين التهويل والتهوين

على الرغم من أن القصة التوضيحية تخدم التفسير والتطبيق، إلا أن نتائجها القوية تتحدى الوعاظ أن يستعملوها بوعى، وبعناية وبشكل حسن. فالقصة التوضيحية قد تبعد العظة عن نهجها بل وتخرب تأثيرها ما لم تُعامل على نحو سليم. وهى ليست تلك المسائل الهزيلة التى يمكن إعدادها دونما مجهود مقارنة بمكونات العظة الأخرى. وهذا صحيح، لأن القصص لا تفسر النص فحسب، بل وتفسر الراعى أيضاً. ومسكين هو الواعظ الذى لا يدرك أن القصص التوضيحية تسحب أمانة الراعى وحساسيته وإدراكه وتدفع بها إلى مقدمة العظة. ونحن فى حاجة إلى تفادى هذه التجربة أثناء إلقاء القصة التوضيحية إذا كنا لا نريد أن تكون شخصياتنا ورسالة العظة ضحايا لإهمالنا.

إن الافتقار إلى الإعداد الجيد كثيراً ما يشوه القصص التوضيحية. وعلى الرغم من السنوات العديدة التى قضيتها فى مراقبة الوعاظ وتعليمهم، إلا أننى لم أستطع إطلاقاً أن أفهم السبب فى أن الكثيرين منا

يعتقدون أن القصص التوضيحية الرائعة ستتجسد فى عظاتنا. فنحن نكتب مخططات شاملة لتفسيرنا، ونذكر خمسة تطبيقات لها بعبارات دقيقة، ولكننا نضع خطاً تحت كلمة واحدة فى الصفحة لتوضيحها. وإذا طلبت من أحد الفصول الدراسية مخطوطة مكتوبة بالكامل لعظة ما، فإنى أتوقع أن طالباً واحداً على الأقل سوف يسأل: "نحن لسنا مضطرين أن نكتب القصص التوضيحية، أليس كذلك؟

فالافتراض الذى يُطرح فى التدريب وكثيراً ما يُنفذ هو أن الأفكار العظيمة للعظة توجد فى الشرح. أما القصص التوضيحية فتُعد أمراً ثانوياً، حتى إنه سواء تم إعدادها بعناية أم لا، فليس لها أى تأثير حقيقى على العظة. غير أن الإهمال فى إعداد القصص التوضيحية يمكن أن يكون له ضرر بالغ ليس على التقديم السطحى للعظة بل على الاحتمال الأعمق الذى كان يمكن أن يتوافر لها لو أن كل ناحية منها تم إعدادها بالاحترام الواجب أن يُقدم لوسيلة من وسائل كلمة الله.

لا يود البعض أن يتعبوا أنفسهم فى القصص التوضيحية (أو النواحى الأخرى المتعلقة بالعظة) ذلك لاعتقادهم أن هذا الاتجاه يشير إلى أن مواهبهم ليست عظيمة. وهم يفترضون أنه إذا كانت لهم مواهب عظيمة وخبرة أكثر، فإن القصص تكون سهلة بالنسبة لهم. إن مثل هؤلاء الوعاظ يجب أن يخضعوا أنفسهم فى إعداد جيد ليبلغوا صفوف أولئك الذين هم

راسخون فى عملهم.

وعلى النقيض من ذلك نقول عن القصص المنسوبة إلى سبرجن. إن الوعاظ المحترفين يفعلون هكذا بسبب عملهم المضنى، فالخدام الذين يتوقفون عن العمل الشاق قد يخسرون سمعتهم بدل أن يستمروا فى تعزيز امتيازهم. وقد كتب (لويس بول ليهمان) يقول: "الحقيقة هى أنه يجب عليك أن ترى القصة بوضوح، ويجب أن تكون لديك خطة دقيقة لتمكن الناس من رؤيتها.

والعذاب الوحيد الذى هو أسوأ من أن يتساءل الناس عما كنت تحاول قوله، هو أن تكون أنت نفسك غير متأكد مما تقول. وإذا كان للتفاصيل أن تؤدى تماماً إلى النقطة التى كنت تريد إيضاحها، وإذا كان لطريقة الإلقاء أن تدعم فارقاً ضئيلاً فى المحتوى وتفسر الذروة، من أجل تطوير الحبكة، إذاً كان للصياغة أن تأتى مناسبة للمستمعين، وإذا كان للأقوال التفسيرية أن تعالج المحتويات بشكل صحيح وتقدم المفهوم بقوة، إذاً، أنت فى حاجة إلى أن تعد العظة بشكل جيد.

الكذب:

وفى حين أن عدم الإعداد يشير إلى الافتقار إلى الوعى، وأنه بالتالى سيضر بشخصية الواعظ، إلا أنه ما من ضرر أعظم يمكن أن يلحق

بتقدير الشعب لراعيهم أكثر من اكتشافهم أنه لا يقول الحق. ومما يُؤسف له، أنه إذا ما ظهرت كذبة فى عظة ما، فإنها عادة ما تأتى فى القصة. وفور أن يكتشف الواعظ قوة القصة التوضيحية، والتأثير القوى لقوله "هذا حدث لى"، أو "فكرت فى هذا" فإن الأمر يصبح مغرياً إلى درجة كبيرة.

وإن كان الأمر ليس صحيحاً، لا تقل إنه صحيح. ومن بين أكثر الأسباب شيوعاً أن الوعاظ يهملون هذا القول المأثور البسيط، لأنهم يدركون أن القصة تكون أكثر قوة كلما بدت صحيحة. وعلى ذلك، وبالرغم من أن الحدث وقع لشخص آخر، إلا أنهم يروونه كما لو أن الاختبار هو اختبارهم. ويحذر (سانجستر) من هذا الكذب بأن ينسب الواعظ قصة إلى نفسه، وهو يعلم أنها لآخر:

إن الاعتقاد -بحسب ظنى- هو أن النقطة المطلوب شرحها ستفتقر إلى الأهمية ما لم ترو بضمير المتكلم. ولكن الشخص الذى يعمل هذا، كثيراً ما يفقد وعلى وجه السرعة، احترام سامعيه، ويعرّض نفسه للخجل. منذ سنوات قليلة مضت، وفى اجتماع دينى، أثار واعظ معروف عاصفة من الضحك وذلك لسرده قصة جيدة توضيحاً لموضوعه. وقد استُقبلت القصة بشكل أفضل مما كان يتوقعه. وفيما تدفق الضحك صوب المنبر، فى موجة تلو الأخرى، بدا مظهره وكأنه يقول: "حسناً، إنى أعرف أنها قصة جيدة،

لكنى لم أظن أنها على هذا القدر من الجودة". ولم يكن يدرى إطلاقاً أن نفس هذه القصة سبق أن رُويت فى المساء بمعرفة متكلم سبق أن خاطب الاجتماع قبله، وذلك قبل وصوله هو، وأن ذلك المتكلم كان يجلس إلى جواره على المنصة يشاركه خجله من الضحك الذى استمر طويلاً. فقد قال السيد (أ) القصة باعتبارها حدثت معه، وقال السيد (ب) القصة على أنها وقعت له. والنتيجة التى وصل إليها بعض المتشككين فيهم بعد ذلك، هى أن هذه القصة لم تحدث لأى منهما. ومن غير الممكن أن تظل هادئاً تماماً حينما تجد أن المستمعين يضحكون منك وليس من قصتك. والناس لا يضحكون بصوت مرتفع فى الكنيسة حين يخطىء واعظ بهذه الطريقة، لكن شيئاً ما قد مات فيهم...."

وكمدرس للوعظ، فإنى أستمع إلى ما يتراوح بين ثلاث إلى خمس عظات يومياً. وهذا يساعدنى لكى أكوّن فكرة طيبة عن القصص (حديثة وقديمة) التى تتردد حالياً فى المنابر. وإنى أحب بصفة خاصة اكتشاف القصص التى يمكننى استعمالها. إلا أنه لمما يحزننى أنى كثيراً ما أسمع نفس هذه القصص وهى تروى فى صيغة ضمير المتكلم المفرد بواسطة وعاظ أكن لهم الاحترام. ومما يُؤسف له أن سمعتهم وخدماتهم سوف تهتز نتيجة الكذب الذى سمحوا لأنفسهم به، والذى لن يتحمله الشعب إذا ما اكتُشف الأمر.

ويماثل ادعاء الواعظ تقديم القصة على أنها وقعت له فى حين أن الحقائق تقول بغير ذلك، حقيقة أن قصة ما هى من تأليفه مع أنها ليست كذلك. فالواعظ الذى لم يبتكر القصة لا ينبغى عليه تقديمها كما لو كانت من تأليفه. وهنا أيضاً سوف يضر الراعى بسمعته إذا ما قدم قصة ما على أنها من تأليفه فى أحد الأسابيع، ثم يسمعها الجمهور من شخص آخر أثناء الخدمة فى الأسبوع التالى. وعلى الوعاظ أن يعرفوا أنه لا ضرر فى استعمال قصة من ذخيرة المجتمع كانت تُقال فى مجال الوعظ منذ عدة سنوات، غير أنه من المحتمل أن الناس سيسمعونها ثانية، أو ربما يكونون قد سمعوها من قبل. وكل الشكوك حول انتحال ما للغير، أو إثبات الجدارة على حساب الآخرين يمكن أن تختفى إذا ما قدم الواعظ القصة (أو ضمنها فى أى موضع منها) عبارة مثل: "هناك قصة تقول.."، أو "سمعت قصة مفادها.."، أو "قيل ذات مرة إن...". ومثل هذه العبارات تحمى الواعظ من إعطاء انطباع خاطىء.

إذن عليك وبكل بساطة ألا تنسب لنفسك فضلاً لا تستحقه. حتى وإن كان الجمهور لا يلحظ مثل هذه العبارات البسيطة، إلا أنها من الممكن أن تولد فى قلب الواعظ إحساساً بالأمانة الأمر الذى يضفى على رسالته مزيداً من الثقة والسلطة. وليس هناك مهمة أكثر صعوبة فى العالم من دعوة الآخرين إلى القداسة بضمير ملوث.

ويصل تلويث السمعة إلى خطورته البالغة حين لا تكون القصة ذاتها غير حقيقية. وما من مغالطة على المنبر تسمح للواعظ أن يختلق أشياء تتمشى مع العظة وتقدم الاختلافات على أنها حقيقة. وليس من الخطأ أن تستخدم قصصاً خيالية توضح بها نقطة ما، لكن لا يجب تقديم الخيال على أنه حقيقة. ولست فى حاجة إلى مهاجمة حقيقة أن القصة خيالية، ولكن عليك التأكد من أن كل واحد يعرف ما هو حقيقة.

هناك أيضاً عبارات هامة يجب تعلمها، ويمكن أن تُقال فى لحظة واحدة، وهى تحمى الراعى من الشبهة ومن الهجوم. وهى أنك تستطيع أن تبدأ العظة بقولك:"ماذا لو أن..."، أو "لنفترض أن..."، أو أستطيع أن أصور الموضوع على هذا النحو.."، فإنك بذلك تنبه الجميع بأن ما يلى هذه العبارات ليس حقيقياً حتى وإن كان يوضح حقيقة. وما يتبع هذه العبارة يمكن أن يكون قريباً جداً من الحقيقة، أو خيالياً جداً. وفى كلتا الحالتين، تمت حماية سمعة الواعظ، وتم توضيح النقطة المراد توضيحها. وعليك أن تقدم بطريقة مماثلة القصص التى لها أصل فى الحقيقة، ولكنها تحتاج إلى "زخرفة" كى تخدم النقطة المراد توضيحها. وأن تعترف "بالتحسينات" أو تقدم القصة على أنها خيالية، أفضل من تقديم موضوع يعرف الأصدقاء أو أفراد العائلة أنه لم يحدث بهذه الطريقة.

أخيراً يمكن خدمة سمعة الواعظ والأهداف التى يرمى إليها الإنجيل

عن طريق مراعاة بعض القواعد البسيطة وهى: (١) إذا لم تكن القصة حقيقية فلا تقل ما يخالف ذلك. (٢) إذا لم تكن أنت مؤلفها، لا تلمح إلى أنها من تأليفك. (٣) إذا لم تكن صحيحة، لا تتظاهر أنها صحيحة.

عدم الدقة:

قد تأتى عدم الدقة فى القصة دون عمد، لكن مثل هذه الزلات تسىء أيضاً إلى مصداقية المتكلم. والوعاظ كثيراً ما يظهرون أنفسهم كحمقى حيث يحاولون الظهور بمظهر الخبراء فى أمور خارجة عن نطاق دراساتهم وخبرتهم. والمثال "المأخوذ من العلم" بصفة خاصة عرضة لأن يتحداه المهندسون، والمثقفون، والعلماء الحقيقيون من أعضاء الكنيسة. ويصف (فريدريك فارلى) أحد الوعاظ فى هذا الخصوص:

"فى الأيام الأولى لاستخدام السيارات حاول ذلك الواعظ أن يوضح "التجديد" بقوله: إن تدير السيارة ناحية الاتجاه العكسى إذا ما تبين أنه قد اتخذت اتجاهاً خاطئاً، أفضل من أن تقود السيارة مسافة كبيرة للخلف. وهذا التوضيح سيكون نافعاً تماماً لو لم يكن قد استعمل لغة تفضح جهله. فقد تحدث عن "عكس المحرك"، وقد وضح له مهندس محركات بعد ذلك أن المحرك لا يُعكس أبداً، ولكنه يستمر فى العمل بنفس الطريقة، وكل ما فى الأمر أنه يُوصل بترس (أو تعشيقة) تدفع السيارة إلى الاتجاه

العكسى".

وفى أيامنا هذه، التى تشهد تقدماً تكنولوچياً، يحتاج الوعاظ إلى أن يعيدوا فحص ما يقدمونه من أمثلة وبكل عناية. وكل إنسان يخطىء، بل وحتى الخبراء يختلفون حول تفسير بعض الحقائق. يخترع أينشتاين المصباح الكهربى، وأشعة x لا تكشف العظام، والغواصات الحديثة لا تعمل بالبنزين، وأن جبل القديسة هيلانة لم يبرز نتيجة التحام على البارد. تأكد من فهمك للمثال العلمى قبل أن تحاول استخدامه فى التوضيح.

وتناول الحقائق بمهارة يدعم ثقة المستمع فى الواعظ. وتزداد ثقة شعب الكنيسة حين تُذكر الأسماء والتواريخ والأمكنة على نحو من الدقة. ومع ذلك، يأتى نفاد الصبر بسرعة إلى حد ما، عند الإشارات إلى العبارات الآتية: "مجتمع بنيامين فرانكلن المسيحى"، "أطروحات مارتن لوثر الثلاث والتسعون"، "نهج تشرشل الشهير"، "ليس لدينا ما نخاف منه سوى الخوف نفسه"، "خدمة چون كولسن فى السجن"، "فرقة فرانز چوزيف هايدن لترانيم الشكر"، وغيرها من الأخطاء الماثلة المخيفة لوعاظ لم يكلفوا أنفسهم التأكد من الحقائق التى يحرضون لها. والتفاصيل الدقيقة فى القصة التوضيحية تساعد فى ترسيخ الواعظ كمرجع، وتضيف مصداقية على بقية القصة، وتساعد على كسب الاستماع إلى العظة ككل. أما عدم الدقة فتسىء إلى ذلك كله. إن المبدأ الأخلاقى البسيط هو: إذا لم

تكن متأكداً راجع الأمر، وتأكد من صحة الحقائق.

غير متوقعة الحدوث:

قد تكون الرواية صحيحة، ولكنها مع ذلك تضر بمصداقية الواعظ إذا كانت غير متوقعة الحدوث إلى درجة يصعب تصديقها. لقد حاولت بين آونة وأخرى أن أذكر كيف أن الشمس بزغت من السحب فى يوم مطير لترسل شعاعاً من نور على كنيستنا الجديدة فى ذات العظة التى ارتفع فيها برج الكنيسة عالياً. وبعدئذ، وما أن انتهى العمل، إلا واختفت هذه العلامة الإلهية. ولقد رتبت صوراً لهذا الحدث. ولدى شهود بالعشرات، بل وعندى شرائط فيديو له. غير أننى عندما حاولت أن أروى هذه القصة كما حدثت تماماً إلا وكنت أُقابل بعد انتهاء العظة وعند خروجى من باب الكنيسة بعلامات التشكك وعدم تصديق هذه الحكاية واعتبارها قصة زائفة. ولأنه لا يمكننى أن أعرض شريط الفيديو مع القصة، فقد رأيت الآن ألا أستخدمها. وقد اكتشفت أن عدم احتمال حدوث هذه القصة بدل أن يوضح قصتى، حمل الناس على التشكيك فى. وبدلاً من المغامرة لاستخدام قصة صعبة التصديق ولو أنها حقيقية، فإنه من الأفضل تذكر ما قاله (چون جاى):

"دع الناس يشكون فى أن قصتك غير حقيقة ولكن أظهر احتمال

حدوثها".

عدم الواقعية:

إن القصة غير الواقعية شبيهة بالقصة غير المحتملة الحدوث. فالقصة غير المحتملة تجعل الشعب يشك فى حقيقتها، أما القصة غير الواقعية فتحمل شعب الكنيسة على التشكك فى واقعية الواعظ. وأفضل القصص لها عامل قوى يسهل التعرف عليه. فالمستمعون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يعرفوا أو يعملوا ما يشرحه الواعظ لأنهم يرون الحقيقة فى عالم مألوف لهم. ووعظ المسيح نفسه، يبين أن القصة التوضيحية التى تمس القلوب نادراً ما تأتى من الإشارة إلى القديسين "الكاملين"، أو الروحانية المبالغ فيها. فالتوضيحات المستمدة من المثاليات الروحية تدمر فى الأساس رغبة المستمعين حتى فى سماع ما على الواعظ أن يقوله. ويوضح (دانيال بومان) السبب فى أنه حتى على الرغم من فصاحة الراعى وخبرته فإنه من الصعب التغلب على هذه النقطة:

"يجب أن تكون القصص التوضيحية حقيقية. والكثيرون متهمون بالمثالية التى تحبط المسيحيين الجادين. ونحن نتحدث عن أن نحيا حياة الإيمان، ولكن من الذين نستعرض حياتهم؟ رجل مثل (چورچ مولر)، الذى جلب آلافاً مضاعفة من الدولارات لملجأ الأيتام فى (بريستول) من

خلال الإيمان البسيط، وقد أُخذ كمعيار على المؤمنين أن يتبعوه. ونحن نتحدث عن الصلاة بالحديث عن خبرات رجل مثل (هايد) رجل الصلاة، الذى قضى أربعاً وعشرين ساعة متواصلة، وهو راكع على ركبتيه. والفرق بين (هايد) المصلى وبيننا غير واقعى. وحين تحدثنا عن "المؤمن الملتزم" كنا نذكر المستمعين بـ (هدسون تايلور)، أو (سى. تى. ستد). فماذا حدث؟

هؤلاء الناس الذين يعدون من المثل العليا، والذين هم بعيدون عن خبرتنا الحياتية، لا يتولد عنهم سوى الإحباط واليأس".

ومن الطبيعى أنه يجب علينا أن نستخدم حياة ومُثل أناس عاديين من رجال الإيمان ونسائه، وذلك لنشجع الآخرين فى مسيرتهم. ولكن، أن نقدم هذه النماذج على أنها عادية، أو يمكن تقليدها بسهولة، فإن ذلك من شأنه التقليل من مكانة هؤلاء القديسين، وحرمان معظم الناس العاديين من الأمل فى أن ينهجوا فى يوم من الأيام مثلهم. ولو لم تكن هذه الأحداث والنماذج غير عادية، لما كان لدينا سجلات تتحدث عن حياتهم. والوعاظ الذين لا تتوافر فيهم الحصافة ليروا كيف أن قصصهم التوضيحية (أو تعاليمهم) تعد غريبة، فمن الصعب أنهم يتوقعون من الناس العمليين تقبلها.

الدعابة غير المناسبة:

يجادل البعض بأنه لا يجب علينا أن نستخدم الدعابة إطلاقاً من على منبر الوعظ. وهم يقولون إن الوعظ مهمة وقورة لها نتائج تتعلق بالأبدية. لكن هذه النتيجة الصحيحة تؤدى إلى تعليم صارم جداً ما لم ندرك أن الأمور كثيراً ما يُعبر عنها بكل قوة حين يُعبر عنها بأفضل شكل يثبتها فى الذاكرة. وتعد الدعابة من بين الطرق التى نستطيع بها أن ندفع الناس إلى التأمل فى الحق بطرق جديدة وبجدية أكثر. وقد عرف الرب يسوع هذا حين تحدث عن الصور المنافية للعقل لأناس كانوا بكل حرص يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل، أو أولئك الذين يعترضون على القذى الذى فى عين الآخر، ولا يفطنون إلى الخشبة التى فى عيونهم. ودعابة خفيفة قد يكون من شأنها أن توضح نقطة ما بشكل مناسب بأكثر مما تستطيعه الأقوال العادية.

وتصبح الدعابة التوضيحية غير مناسبة إذا كان الغرض منها مجرد الزخرفة. ويبدو أنها أصبحت قاعدة فى زماننا أن نبدأ الخطاب بمزحة جيدة. وفى الاجتماعات التى تعقد لمندوبى المبيعات، أو الاجتماعات المهنية، أو الأحداث الاجتماعية، أو المهام السياسية، وفيما يُؤسف له حتى فى المنابر، يشعر الناس أنه يجب عليهم البدء بمزحة نادرة. وخلفية هذا هو أنه بواسطة مزحة يمكن للمتكلم أن يربح فى الحال رضاء المستمعين،

ويقيم صلة ودية، ويثبت أن لديه القدرة على أن يتحاشى الملل. ومما يُؤسف له أن هذه النوعية من المقدمات شائعة جداً، حتى أن كل واحد من المستمعين يدرك تماماً السبب فى استخدامها. وهى ليس لها أية علاقة بمضمون العظة، فمن الواضح أنها استُغلت بغرض التأثير، وكل واحد يعلم ذلك. وقد يضحك السامعون للمزحة، إلا أنه وبصفة تلقائية ينتقصون من قدر المتكلم الذى لا يوليهم الاحترام.

وليس بمقدور الوعاظ أن يحتملوا هذا الانتقاص من قدرهم، فما لم تكن المزحة تساعد على توضيح النقطة التى تتحدث عنها، فلا تستعملها، فالمزحة التى تُستخدم للترفيه فقط ليس لها مجال فى المنبر، وليس ذلك لأنها تعزز شراً أخلاقياً، بل لأن ذلك يولد عدم ثقة الحضور. وبعض الوعاظ المعروفين يجذبون الجماهير بما يتمتعون به من روح الفكاهة، غير أن الأبحاث تشير إلى أنه حين ترتفع معدلات التسلية، تنخفض القدرة على الإقناع. إننا نشاهد المهرج وهو يستعرض وسائله السحرية القادرة على الشفاء، لكن الحمقى فقط هم الذين يشترون الوسيلة. وحين يكون الشفاء هو الإنجيل فلا ينبغى أن تبيعه بهذه الطريقة،. فهذا الخط الشديد الذى يتبعه (وليم كوبر) يجب أن يوخز ضمائرنا: "إنه لأمر مؤسف أن تقابل الناس بتكشيرة فى الوقت الذى كان ينبغى فيه أن تربح نفساً".

ولا يجب على الواعظ أن يظن أنه مادام الحاضرون قد ضحكوا تكون

المزحة قد أدت الغرض منها. فالدعابة بطبيعتها ما هى إلا نظرة جانبية للعالم، وغالباً ما تكون نظرة غير عادية على نقاط الضعف والزلات والأخطاء فى النظم والمؤسسات والناس أيضاً. وهذا ما يجعل بعض أشكال الدعابة خطيرة للغاية لأن مهمة الرعاة هى خدمة الضعفاء والمنبوذين فى المجتمع. والضحك الذى يتأتى وليد تجريح أى شخص أو جماعة أمر يتعارض بشكل جوهرى مع رسالة الإنجيل. وعلى الرغم من أن هذا التعليم قد يبدو واضحاً، إلا أن كثيرين يتجاهلوه بسهولة نتيجة حاجة كثيرين من الرعاة إلى الشعور برضى الحاضرين بواسطة الضحك.

منذ عدة سنوات حاولت فى إحدى العظات أن أبين ضرورة الحياة بأسلوب مسيحى مستقيم فى مواجهة الظروف غير المواتية. ولكى أوضح النقطة الخاصة بتنمية المواهب المسيحية، ذكرت قصة شعبية عن عمدة طعن فى السن، وتصرفه فى ميدان الرماية، فقد كان يحاول أن يجتاز الاختبار السنوى فى الرماية بإطلاق الرصاص، لكنه كان يجد صعوبة لأنه كان قد جُهز حديثاً بنظارة ثلاثية الأطوال البؤرية. وقد أقمت المزحة على أساس كفاح العمدة فيما كان يتحرك جيئة وذهاباً، ويرفع رأسه إلى أعلى ثم يميلها إلى أسفل، محاولاً أن يتمكن من الهدف البعيد، ثم المشهد القريب الأمامى، والمشهد الخلفى الأقرب لمسدسه، مركزاً عليها جميعاً فى ذات الوقت. وأخيراً، بيّنت كيف أن إحباطه ازداد بدرجة كبيرة جداً حتى

إنه أوقف محاولة التنشين على أى شيء، وودع سنوات تدريبه الكثيرة لإطلاق الرصاص على الهدف. وقد استخلصت من الضحك أن القصة هذه لاقت نجاحاً. لكنى أسفت لكل ضحكة وكرهت كل قهقهة حين قابلنى أعز الناس لدىّ وكان متقدماً فى السن، حيث قال لى عند الباب وهو يضع على عينيه نظارة ثلاثية الأطوال البؤرية: "برايان، ما كنت أعتقد إطلاقاً أنك ستسخر من الطاعنين في السن". وإذا ما عُومل أى شخص دون اعتبار للكرامة التى أعطاها الله له، فلسوف تفشل العظة، حتى لو نجحت الدعابة.

إن كثيراً من القفشات الجارحة فى القصة توجه إلى عائلة الراعى نفسه. وبعض الرعاة لا يملون أبداً من إمتاع الحاضرين بقصص عن زوجاتهم وأطفالهم من ناحية ما يتعرضون له من حرج، وشجارات، وأخطاء. وكل أسبوع ترسم عائلاتهم بحكم العلاقة ابتسامات على وجوههم لرجلهم الذى يكوّن شهرته على حسابهم. لكنهم كثيراً ما ينزعجون فى داخلهم من هذه القصص. ولقد وضعت لنفسى قاعدة بألا أتكلم إطلاقاً مع أحد عن زوجتى أو أولادى (أو الآخرين من شعب الكنيسة) مما يمكن أن يسبب لهم عدم الارتياح، دون أن أخبر الشخص الذى سأتحدث عنه بما سأقوله، وأحصل على موافقته على ذلك، ثم أشير للمستمعين وأنا أروى القصة بأنى فعلت هذا. إن الخدمة الرعوية مهمة للغاية، وحساسة للغاية

بالنسبة للرعاة حيث أنهم لا يرغبون فى أن يتشكك أحد فى مشاعرهم. وبحكم التجربة فى كافة نواحى الخدمة، علينا أن نتذكر أن الوحيد الذى تستطيع أن تبنى عليه الثقة هو أنت، والوحيد الذى لا يجب أن تربت على كتفه هو أنت.

الإشارة إلى نفسك بطريقة غير ملائمة:

ستظهر أنك تربت على ظهر نفسك إذا كنت البطل الذى كثيراً ما يظهر فى قصصك، أو محط تركيز الكثير منها. فمثل هذه القصص التوضيحية تبدو أنها لخدمة أغراض شخصية وتضعف ثقة الجمهور بأن الراعى يضع نصب عينه على صالحه الشخصى فى كل قصصه. وبعض المعلمين من أجيال سابقة يمنعون الوعاظ من عمل أية إشارات شخصية فى العظات. وقد أدى رد الفعل هذا إلى التحفظ فى الوعظ الأمر الذى حرم الناس من معرفة حقيقة الناحية الإنسانية فى راعيهم. أما الوعظ المعاصر فقد استرد التعليم الكتابى الحيوى حتى يتمكن السامعون من التمثل بالواعظ إن اعتقدوا أن العظة لها معنى بالنسبة لحقائق حياتهم (انظر ١كو ٩:٢٢-٢٣ , ١تس ٢:٨). لكنه حين يكون الوعاظ هم أبطال قصصهم، فإن تمثل الشعب بهم يصبح مستحيلاً.

فلا يريد أحد أن يتمثل بشخص استعراضى. سمعت خادماً ذات مرة

يستهل قصته التوضيحية بقوله: "كما تعرفون، لقد قررت ألا أذهب لفراشي إطلاقاً دون أن أشهد لنفسٍ ضالة في ذلك اليوم". ولم يكد ينطق بهذا القول إلا وهمس رجل كان يجلس خلفي قائلاً: "انتصار آخر لشجيع السينما وايت إيرب". لأنه وبحسب مفهوم هذا الرجل يعد استخدام المنبر لإذاعة أعمال الراعي التقوية لا تزيد من تقدير الشعب له، بل تنزل به إلى مستوى بطل الفيلم الذي يختال ببندقيته. فالوعاظ الذين يريدون الحديث عن نجاح روحي شخصي يجب أن يكونوا على حذر بأن يعترفوا بأن النجاح كان نتيجة عمل الروح القدس الذي كان يعمل وراء ضعفاتهم. ويمكن أن يسيء تركيز الواعظ على شخصه أكثر من اللازم إلى القصص التي يستخدمها، كما يسيء إلى الواعظ الذي يستخدمها. ويعد التباهي بمعرفة الشخصيات البارزة في القصص التوضيحية وسيلة حمقاء لجذب الانتباه. كما أن ذكر الواعظ لإنجازاته، ودرجاته العلمية، أو إنجازاته الأدبية سيضعف مكانته ولن يقويها. وهكذا الوعاظ الذين يجعلون من هواياتهم واهتماماتهم الشخصية، أو عائلاتهم موضوعاً متكرراً لقصصهم التوضيحية. وقد كتب (ليهمان): "إذا كان الواعظ يخدم نفس المجموعة من الناس، ودأب التحدث باستمرار عن نفسه، وزوجته وأولاده، ووالديه، وأصحابه، ربما يثير الامتعاض، ويسمع من يقول: "ألا يتحدث إطلاقاً عن أي شيء سوى نفسه وعائلته؟". وكما سبق أن أشرنا سابقاً، فإن

الكتاب المقدس، والتاريخ، والأخبار، واختبارات الآخرين، والاختبار الشخصى، كلها تعد مصادر رائعة للقصص التوضيحية. فى حين أن قصص الاختبارات الشخصية تحمل عادة أقوى السمات التى يمكن التعرف على شعب الكنيسة من خلالها، إلا أن مثل هذه القصص التوضيحية يجب موازنتها بمادة من مصادر أخرى لتفادى الاتهام باهتمام الناس بذواتهم. وليس كل عظة فى حاجة إلى هذا التوازن، ولكن مجال الخدمة هو الذى يحتاجه.

وثمة نمط آخر من الإشارة إلى الذات بطريقة غير مناسبة يأتى حين يشرع الواعظ فى استخدام المنبر للاعترافات الشخصية. حيث يتحدث الراعى من آونة لأخرى عن ضعفاته بكل ثقة ويقدم نفسه فى مواقف كان يواجه فيها الصعوبات، والحرج، ويقنعهم بأن الإنجيل ليس قاصراً على موسى وعائلته. ولم يسبق أن شعرت بالإخفاق كخادم أكثر مما شعرت به حين قامت إحدى الأمهات تصلى من أجل زوجتى ومن أجلى فى أحد اجتماعات الصلاة طالبة من الرب أن يباركنا قائلة "على الرغم من أنهما ليس بهما مشاكل مثل بقيتنا". فقد عرفت عندئذ أن الصورة التى كنت أقدمها لها كانت صورة الكمال الشخصى التى جعلت الإنجيل بعيداً عنها. فكون الواعظ إنساناً كالآخرين يشكل جزءاً من الرسالة التى يجب أن توصلها القصص التوضيحية، غير أنه إذا استمر الواعظ بصفة دائمة

يتحدث عن خطيته الشخصية وما ينتابه من ضعف وشك، هنا يصبح الإنجيل نفسه موضع شك. ويتساءل الناس، ما فائدة الإنجيل إذا كان عاجزاً حتى عن مساعدة الواعظ نفسه؟ فالقصص التى تتحدث عن ضعفات الواعظ، يجب أن تشير على الأقل إلى الانتصار الذى يقدمه الإنجيل.

وكما هو الحال بالنسبة لملامح كثيرة من الخدمة، فإن التوازن هو سبيل الإشارة إلى الذات بفاعلية. فما يتحدث به الواعظ عن نفسه من على المنبر يجب أن يكشف عن شخص متوازن. ومثل هذا الشخص معروف تماماً لدى الشعب بأنه لا يركز على مصلحته الشخصية فحسب، ولا تنحصر أفكاره فى نفسه، بل هو على دراية كافية بالحياة ومن ثم يعترف بالكفاح الشخصى، وعلى معرفة كافية بالإنجيل ليشير إلى كيف أنه يمكن أن يساعد الآخرين كما ساعد الواعظ نفسه.

صورة مبالغ فيها:

كثيرا ما تكون القصص التوضيحية مدخلاً تنفذ منه الصور والتعبيرات المثيرة، إلى العظة، ولأن الوعاظ على استعداد لأن يقولوا أى شىء تقريباً ليكسبوا انتباه الحاضرين. وتزيل ثقافتنا المفتوحة وصورها الترفيهية حساسية الكثيرين بالنسبة لما لا يزال حساساً. فأمر عادى أن يدخل

الزوجان اليوم إلى غرفة الولادة معاً، غير أنه وفى حين أن الوصف الحى لعمليات الولادة يُعد من المحادثات المقبولة لمن هم تحت الثلاثين، إلا أنه مسىء للغاية لمن هم فوق الخمسين، كما أنه يثير خوف الأطفال.

إن الوعاظ الشبان، قد تتحجر قلوبهم نتيجة العنف الذى تتضمنه الأفلام السينمائية الحديثة حتى إنهم لا يدركون مدى ما تكون عليه الأوصاف التوضيحية التى يضمنونها قصصهم من بشاعة تدعو إلى الاشمئزاز. فنادراً ما يكون للدم والأحشاء مكاناً على المنبر، وذلك فقط إذا ما صيغ الوصف بدقة وإلى درجة تقلل من اللجوء إلى الموضوعات المثيرة، وتدافع عن حساسيات الشباب، والكبار. ونفس الأمر ينطبق على القصص ذات المضمون الجنسى. فالقصص فى حاجة إلى أن تُقدم بشكل مختلف، وفى مواقف مختلفة بغض النظر عن مصدرها. فقصة خطية داود مع بثشبع، على سبيل المثال، يجب ألا تُقال بطريقة يُساء فهمها. وأحياناً تكون مصادر هذه القصص فى حد ذاتها موضع جدل. وفى حين أن بعض الناس قد يتسامحون مع قصة من فيلم للكبار فقط، فإن آخرين (ولاسيما الوالدين) من المفهوم أنه سيسؤهما أن يشارك راعيهم فى نفس الشىء الذى يحذران أولادهما منه. فعلى الوعاظ أن يكونوا دائماً يقظين بالنسبة لما يؤيدونه أو يكشفونه عن غير عمد فى قصصهم.

تبادل الثقة:

ولا تكشف القصص التوضيحية عن أعمق أفكارك ونشاطاتك فحسب، فإنك لو لم تكن حريصاً للغاية، فقد تكشف عن أعمق أفكار وأنشطة أولئك الذين يأتونك طلباً للمشورة. فالخدمة يمكن أن تنهار في دقائق نتيجة الكشف عن أمور قيلت في إطار من السرية والثقة، وتشجب (دايان كيمبر) هذا بكل قوة إذ تقول:

"من بين الثوابت القليلة بالنسبة للوعاظ، لا يجب أن تُطرح من على المنبر قصص مأخوذة من خدمة الراعي في المشورة. وحتى وإن كان الحدث يرجع إلى سنوات كثيرة سابقة، ويخص أبروشية تقع على بعد مئات من الأميال، لأنه حتى مع تغيير الأسماء والتفاصيل، فإن المستمعين سيرون في ذلك إشارات إلى أشخاص (حقيقيين أو وهميين) في الكنيسة أو في المجتمع، وسيقولون لأنفسهم (وبعد ذلك لآخرين): "أنا أعرف من هو هذا الشخص". وحتى في حالة عدم استنتاج أية دلالات (وهم لا يتوقفون عن ذلك) فإن الواعظ الذي يتحدث عن اختبارات تتعلق بنشاطه في تقديم المشورة سيجد أعضاء الكنيسة يرفضون طلب المشورة من شخص من المحتمل أن يحول حالاتهم إلى قصص توضيحية في العظة القادمة".

لقد تأملت هذه النصيحة جيداً، ووجدتها قيّمة جداً فيما عدا أن مطاليبها

جاءت مطلقة. وقد أكون مخطئاً (لأن هذه موضوعات بالغة الحساسية)، لكني أعتقد أنه بمقدورك عند الضرورة أن تشير إلى مواقف تتعلق بالمشورة إذا ما تمت حماية شخصية الأفراد التي كانت هذه المشورة تتعلق بهم، وأوضحت لشعب الكنيسة أنك تحمي مثل هؤلاء الأشخاص. ولاسيما إذا ما بينت القصة التوضيحية كيف أن شخصاً ما قد استفاد من مشورة روحية. فقد يرى آخرون ممن يختبرون مشاكل مماثلة في ذلك سبباً للرجاء، ومن ثم يطلبون مشورة. وإذا ما أشرت بنفس الطريقة التي تسرد بها القصة أن الأسرار لن تفشي، فلسوف يعرف من يريدون المشورة في هذه الحالة أنه ليس لديهم أي تخوف من جهة علاقة مشكلاتهم بالوعظ.

ومن بين الطرق التي أُشير بها بين الحين والآخر إلى مواقف تتعلق بالمشورة، أن أستهل القصص التوضيحية بعبارة مثل: "جاء رجل إلى مكتبي منذ سنوات قليلة مضت- وسوف أدعوه (بيل)". وبقولي "سوف أدعوه (بيل)"، فإني أعلن لشعب الكنيسة بطريقة ضمنية أن اسمه ليس (بيل)، ولكن من أجل الحفاظ على السرية، أريدكم أن تعرفوا أني سأشير إليه بذلك الاسم في هذه القصة.

ونفس الأسلوب يمكن اتباعه عند الإشارة إلى التفاصيل الأخرى الخاصة بالمكان والزمان والمشكلة. وبعد إضافة هذا الشرط، فإني أتفق مع (كيمبر) أن القصص التوضيحية المأخوذة من موضوعات تخص المشورة والتي

تقدم تفاصيل كافية بحيث توضح هوية الأشخاص ستضر بدرجة كبيرة بخدمتنا وبحياة الآخرين أيضاً.

صرف الانتباه:

يجب أن تعزز القصص التوضيحية رسالة العظة، لا أن تصرف الانتباه عنها. وقد كتب (سانجستر) يقول: "ولو أن ذلك قد يبدو غريباً، إلا أن بعض القصص التوضيحية، يجب أن ينبذها أى شخص يكون متمكناً من هذه المهارة. فمن الممكن أن تكون القصة مثيرة للغاية، ومثيرة فى حد ذاتها. والقصة الجيدة تحقق غايتها وتستنفد عملها بإتيانها ذلك. وملاحظة بعض الخطوط الإرشادية القليلة سوف يحفظ القصة أمينة لغرضها. ويحذر (سبرجن) من القصص التى يُراد بها "إبهار" المستمعين، بالكثير من التشبيهات المجازية. ويقدم (دوسون برايان) مقطوعة مجانية ودية بسيطة معقباً على النصيحة التى قدمها (سبرجن) قائلاً:

"بالنسبة للقصص المجازية، قال (سبرجن): "يجب ألا تكون عديدة.. ويبدو أن البعض لا يشبعون أبداً من التشبيهات المجازية، فكل عبارة من عباراتهم يجب أن تكون زهرة. وهم يطوفون البحر والبر ليعثروا على قطعة جديدة من زجاج ملون من أجل نوافذهم.. والزهور فوق المائدة فى وليمة تُعد أمراً طيباً للغاية، ولكن بالنظر إلى أنه ما من أحد بمقدوره أن

يعيش على الولائم، فإنها ستصبح موضع احتقار إذا ما وُضعت أمامنا بدلاً من الأطعمة الأساسية. والفرق بين قليل من الملح مع قطعة اللحم، وأن تُجبر على تفريغ مخزن الملح أمر جلى للجميع". نجد هنا أبرع تشبيهات مجازية جاءت متلاحقة وبشكل وثيق لتوضيح مبدأ الاعتدال فى استخدام التبشيهات البلاغية".

ويكفى القول بأن أفضل القصص التوضيحية ليست هى التى تكون غاصة بأزهار اللغة التى تغطى على الموضوع الذى قُصد بها أن تجمله.

وكلمات القصة قد تكون طنانة، أو عديدة جداً. والتفاصيل الحيوية مطلوبة، أما التفاصيل الغريبة الدخيلة فلا حاجة إليها. والقصة التوضيحية يمكن أن تكون قصيرة أكثر من اللازم، إذا ما حرمناها من البناء القصصى لتمييزها عن المثل، أو الاقتراح، أو الأقوال المأثورة، غير أنه لا يجب على الواعظ أن يضفى الصبغة الشعرية على ما يمكن قوله بشكل واضح جلى. فالقصة التوضيحية التى تتكرر فى فقرتين أو ثلاث تبدأ فى التغطية على النقطة المراد توضيحها أو تسلب منها الاهتمام بها. ومن المفضل أن تكون القصص موجزة. وعليك أن تصوغها بعبارات رئيسية من الشرح الكتابى، وتمزجها بطريقة توصل المستمع إلى نفس النتيجة التى توده أن يصل إليها.

وإذا ما أهملت القصة العبارات الرئيسية للشرح، واستبدلتها بأخرى، فلسوف يتساءل المستمعون ما هى على وجه التحديد النقطة التي تريد إيضاحها. وعليك أن تتذكر أن المستمعين يأخذون قصتك على أنها تتعلق بآخر شىء قيل قبل أن يبدأ التوضيح. ولا يتوقعون أن تكون القصة التوضيحية عن أشياء قيلت قبل ذلك بفقرتين، أو حتى بعبارتين. فإن أذن المستمع تختلف عن عينى القارىء اللتين تستطيعان أن تغوصا بدقة مادة سبق تقديمها. ويجب أن تعمل عبارات القصة كشعاع من نور يضىء آخر شىء قيل قبل تقديم القصة التوضيحية بدل أن تجعل المستمع يتحسس طريقه خلال مفاهيم فى النور المنتشر على مادة متسعة أو سابقة.

وتقود القصص التوضيحية الإنسان فى بعض الأحيان بعيداً عن الموضوع، لأن الواعظ تستغرقه القصة التوضيحية ويهمل النقطة الأساسية الجارى تفسيرها. وحين يجب على الواعظ استخدام قصة بهدف توضيحها فهنا يسود الغموض. وقد كتب (إيان ماكفيرسون) يقول: "إن المصباح الذى يضىء بنور خافت حتى يتطلب الأمر مصباحاً آخر لرؤيته يُعد أداة إنارة يُرثى لها". فالمستمعون فى كثير من الأحيان يتلقون إرشاداً سيىء التوضيح، وذلك حين يعرف الواعظ أنه حان الوقت لتقديم قصة توضيحية، لكن لا تتوافر له قصة يوضح بها هذه النقطة المطروحة. وفى غمرة يأسه

هذا، يختار قصة توضيحية قديمة قريبة من الموضوع، ونتيجة لذلك، يتمتع المستمعون برواية شيقة ليس لها علاقة بالرسالة. إن عدم التوضيح في حالة كهذه أفضل كثيراً من أن تأخذ المستمعين بعيداً جداً عن الموضوع. فإن تلجأ لتفسير لا تدعمه تفاصيل القصة التوضيحية معناه إحباط المستمعين وتشكيكهم فى قدرتك.

والقصة التوضيحية قد تصرف الانتباه عن النقطة الأساسية ما لم تدرك أنها تتضمن مشاكل بالنسبة للمستمعين تعوق انتباههم بدل أن تؤدى بهم إلى فهم الموضوع. وقد تتبنى مصدراً أو تضع أفراداً فى وضع إيجابى ممن كانوا يسيئون كثيراً إلى شعب الكنيسة. فالشيوخ الذين كافحوا فى سبيل قضية دينية أو اجتماعية معينة لعدة سنوات قد يستاءون من واعظهم إذ يذكر مادة من مجلة معارضة دون أن يعلق عليها.

وما لم يكن قصد الراعى أن يتحدى آراء الأشخاص بالتوضيح الذى يقدمه، يجب إذن الأخذ فى الاعتبار مشاعر الحاضرين. كان قس شاب يعظ فى برمنجهام منذ فترة، ولكنه دمر كل احتمال لسماع عظته، وذلك حين قدم قصة توضيحية بقوله: "حين قهرنا قوات الشر فى الحرب الأهلية...". وثمة راعٍ آخر تحدث عن أنه إذ كان "متلهفاً للغاية للوصول إلى فلوريدا فى عطلة حتى إنه قاد سيارته بسرعة تسعين ميلاً فى الساعة ولمدة ساعتين متواصلتين"، وبذلك فقد من يستمعون إلى النقطة

الأساسية التى كان يحاول شرحها. وحتى إن كانت القصة التوضيحية تتضمن مفاهيم مثيرة للجدل يمكن الدفاع عنها، فإن لم تتناول العظة هذه المفاهيم مباشرة، فإنه يكون من الشجاعة أن تؤجل ذكر الموضوع. وإنه لمن الحكمة ألا تثير حيّات فى القصة بأكثر من العصى التى توفرها العظة لقتلها. فالشجاعة لا تعنى أن يقول المرء أشياء بطريقة لا يمكن معها سماعها.

إن المستمعين يجدون صعوبة فى تتبع العظة حين تُترك القصص التوضيحية دون حل. تحدثت منذ سنوات قليلة عن زيارة شاب فى السجن كان قد حُكم عليه فى جريمة قتل فى مشاجرة نجمت عن مشاكل متعلقة بالمخدرات. وعرفت أنه صار مؤمناً بسبب متاعبه، لكننى حين تحدثت إليه صار من الواضح أن تجدده كان حيلة قانونية أكثر منه التزاماً شخصياً. وقد قال لى: "حاولت أن أجرب أمور هذه الديانة لفترة ما، ولكنها لم تنفعنى فى شىء. ولذا تخليت عنها". وبعد أن ذكرت ما قاله هذا الرجل، شرحت الحاجة إلى إنكار الذات والالتزام للمسيح، إذا كان لنا أن نعرف الفوائد الحقيقية للإيمان. واعتقدت أن العظة كانت جيدة إلى وقت المصافحة عند الباب، وأجبت على السؤال الذى كان يتردد على لسان كل شخص: "وما الذى حدث لذلك الشاب الذى تكلمت معه فى السجن؟ اتضح أننى لم أكمل حبكة القصة التى قدمتها، ومن ثم تركت كل واحد يركز على

هذه المسألة وليس على موضوع العظة. ولعله، بتركى الموضوع دون حسم، ستلاحظون كيف أن الافتقار إلى هذا الحسم كان يجهد ذهن الحاضرين.

قصص بالية:

ينصح معظم أساتذة القصة بعدم استخدام كتب القصص البالية. وقد قامت اهتماماتهم على أسس جيدة. فالقصص التى نأخذها من مصادر ميتة أو عتيقة نادراً ما يتوافر لها التوقيت والصياغة، أو تفاصيل عالم اليوم التى تجعلها بالطبيعة جديدة، تفرض نفسها. والواعظ الحديث الذى لا يبدو قادراً على التوضيح إلا من خلال القصص المهجورة التى تتحدث عن دكان الحداد، والآلات التجارية، إنما تشكل مزحة تمثل مفارقة تاريخية. وقد علق (ماكفيرسون) على ذلك فقال:

"إن الحكايات القديمة بجميع نوعياتها يجب تركها تماماً، فبعد أن خدمت يومها وجيلها، جاء الوقت الذى يجب فيه أن نبحث عن غيرها... وحينما تلجأ، فى غفلة من عمرها الطويل ومعرفة الناس المفرطة بها، بأن تسرد إحداها من على المنبر، يبدأ المستمعون فى الضجر والاكتئاب والاشمئزاز.

فالوعظ ليس مجرد تقليد واقتباس. ولم يدعو الله الرعاة المعاصرين إلا إلى تجارب معاصرة، ومنابر معاصرة. ولو كان الله قد أراد أن يدعو

شخصاً من زمان ومكان آخر إلى منبركم، لفعل ذلك. ويجب على وعاظ اليوم أن يدركوا ميزة تفرد دعوتهم الخاصة ويكرموها باستخدام عقولهم وخبراتهم. ومثل الواعظ القديم مازال قائماً: "إن علاج الضجر ليس التألق، بل الواقعية". ولا يمكن تحقيق الواقعية إذا اختفت حقائق الحاضر من المشهد.

ولكن هذا لا يعنى عدم استخدام القصص القديمة إطلاقاً، فبعض القصص التوضيحية القديمة تعاود الظهور جيلاً بعد جيل لأنها مناسبة جداً. وفى الوقت الذى لا يجب أن تسود القصص القديمة الخدمة، ولكن ليس معنى هذا أن يكون مبرراً لنبذ كتب القصص القديمة بشكل مطلق. فالواعظ الذى يجب عليه أن يعظ كل أسبوع صباح الأحد ومسائه، ويعلّم فى مدارس الأحد، ويقود دراسة الكتاب المقدس مرة فى الأسبوع، ويقود مراسم الجنازات والزواج، وبعض المهام الخاصة الأخرى، يجب ألا يشعر بخجل لاستعماله موسوعة قصصية كمصدر له قيمته فى تحضير العظات الجيدة. واستخدام المجلات الدورية، وعظات مشاهير الوعاظ وكتاباتهم، وأى مصدر متاح آخر يساعد على إمداد النبع الذى يتدفق دائماً بالقصص التى يحتاج الأمر إليها.

إن أفضل الوعاظ يستخدمون المجموعات القصصية كأدوات وليس كمصادر مباشرة. وبدلاً من الاستشهاد مباشرة برواية عتيقة يستخدم

هؤلاء الوعاظ المتمكنون القصص القديمة كمحفزات لفكرهم الخاص. وهم يستخدمون خبرتهم لتحديث اللغة، وإضفاء الطابع العصرى على الأحداث، ووضعها فى السياق المناسب لها، وحذف التفاصيل غير المناسبة، وتكثيف الموضوع، وتقويته. وتعاد بين وقت وآخر صياغة القصة الأصلية ويُعاد بناؤها بشكل مناسب. والوعاظ المتمكنون يجب أن يهتموا بتاريخ وخلفية القصة مما يساعد العظات على أن تشعل القلوب الأخرى حين تمس قلب وعقل ذاك الذى يلقيها.

ويمكن إضافة تحذيرات أخرى. غير أن هذا الفصل الذى يتناول التحذيرات لا يمكن أن يشمل كل شىء بحيث يلغى كل خطأ نجم عن طيش، أو سوء تقدير، أو كسل أو خطية. ويكفى تذكّر أن القلب الطيب، والعقل السديد، والروح النبيلة، والالتزام الأصيل بالحق سوف يغطى كثرة من الخطايا ويخلق قصصاً توضيحية رائعة.

الفصل التاسع

العثور على القصص وحفظها

كما سبق وعرفنا، يحصل الوعاظ على القصص من مصادر أساسية عديدة منها الخبرات الشخصية (التى قرأوا عنها، أو سمعوها من الآخرين، أو عاشوها بأنفسهم)، وروايات الأخبار، والقصص التاريخية، والكتابات الأدبية، والخيال، والكتاب المقدس. أما كيف يحصل الواعظ على القصص فهذا أمر سهل، ولكنه يتطلب بعض النظام. وكما ذكرنا فى الفصل الخامس، فإن خبرة الواعظ اليومية بكل هذه المصادر تخلق مجموعة من القصص، حتى وإن كانت غير واضحة للآخرين. ومثل هذه العين (عين الواعظ) تنمو كلما وعظت أكثر، وكلما أصبح وجودك اليومى موجهاً بالأكثر نحو الخدمة. ورؤية القصص من حولك يشكل تحدياً مستمراً حتى يصبح أسلوب حياة. وكما يحدث التغير من فرد عادى فى الكنيسة يستهلك العظات، إلى خادم للمنبر يعد العظات، فمن الطبيعى أنه ستتولد فيك مهارة رؤية القصص إذا كنت مقتنعاً بأهميتها.

والعثور على القصص يماثل العثور على "الجيود"[1] فى قاع جدول والصخور تحيطه من كل جانب، غير أن الأمر يتطلب أن تجد بنفسك قليلاً من البلّورات قبل أن تبدأ عينك فى التعرف على شكل وبنية الصخور التى تخفى الكنز المتلألىء. وما لم تنزل إلى قاع الجدول للعثور على الجيود، فإن كل ما تراه فى قاع أى جدول هو حصى لا حصر له، عديم

(١) الجيود: حجر ذو تجويف مبطن ببلورات. المترجم

الشكل؟ ولا نفع منه. غير أنه ما أن تدرب عينك، إلا وترى كنوزاً جميلة وافرة فى هذا العالم الذى يألفه الجميع. والكنوز متاحة ومكشوفة لكل العيون التى تبصر، لكن العيون المدربة وحدها هى التى تراها. وبعد قليل من الخبرة يكتشف معظم الوعاظ فرحة العثور على كنوز قصصية، قريبة جداً من شعبهم. وتزداد الأحجار الكريمة قيمة على أى حال حين تأتى من مكان كان بوسع الجميع أن يروها، ولكنهم لم يروا. يتذوق الشعب هذه القصص التوضيحية لأنها تساعدهم على معرفة الجمال والمعنى المتوافر فى عالمهم. حقاً إن عين الواعظ عين خبيرة. فإنها ترى ما لا يراه الآخرون، فإن رؤيتك تمكن الناس من زيادة تقديرهم لعالمهم نتيجة الحقائق الكتابية التى تكشفها لهم.

حفظها

كثيراً ما تخطر القصص التوضيحية على الذهن وأنت تعد العظة. وإذا ما حددت موضوع الرسالة، فإن تأثير الحق كثيراً ما يعطى توهج ذهنى على الذاكرة، أو على اختبار حديث، وهنا تومض القصة فى الحال وتضىء. ومع ذلك، فإن معظم الوعاظ سيكونون عاجزين إذا ما اتكلوا فقط على الإلهام الفورى للحصول على قصص توضيحية لعظاتهم. وكثيرون منا يكتشفون أنه ينبغى علينا أن نجمع بين القصص التى نخزّنها للاستعمال وتلك التى تخطر على ذهننا أثناء إعدادنا للعظات.

وعبر قرون من التعليم الوعظى، تم وضع عدد من "النظم" لمساعدة الوعاظ على حفظ القصص التوضيحية التى يعثرون عليها واستردادها. إن برامج الكمبيوتر، ونظام الاشتراك فى المجلات، هى أفكار جديدة فى حقل نام إلى درجة كبيرة. ولا يُوجد نظام واحد صالح لكل واحد، وبدل تجربة كل النظم المستخدمة، فلربما تكفى بعض الخطوط الإرشادية لمساعدتك على إيجاد طريقة مناسبة:

اعمل شيئاً:

إن أى نظام لجمع القصص التوضيحية وحفظها سيكون أفضل من عدم وجود أى نظام على الإطلاق. ويتطلب حفظ القصص قدراً من النظام. وإذا كنت لا تستطيع أن تحفظ قصصك فى غضون ثوانٍ فستصاب بالإرهاق والارتباك. وعلى صعيد آخر، إن لم يكن لديك نظام تخزين واسترداد قوى، كثيراً ما ستجد نفسك تبحث عن القصص، أو تعود لقصص سبق استخدامها فى عظات سابقة. ونتيجة لذلك من المحتمل أن تبدأ عظاتك بطريقة عقيمة ومملة.

عليك أن تعدها مبكراً:

وليس هناك نظام حفظ أكثر أهمية وضرورة من أن تعرف جيداً ومقدماً ما سيكون عليه الموضوع أو النص المطلوب. ووجود نص العظة معك قبل

استخدامه بعدة أسابيع، تصبح معه وكأن لديك مغناطيس قوى للأفكار والقصص المناسبة. وهذا لا يعنى أنه يجب أن تتوافر لديك العظة كلها قبل وعظها بعدة أسابيع. لأن هذا غير ممكن بالنسبة لمعظمنا، وحتى إذا كان ذلك ممكناً، فإن هذا الإجراء قد يسلب العظات حماسة تلقائيتها، لكن معرفة الواعظ عموماً بموضوع عظته، يتيح له القدرة على أن يبدأ فى جمع القصص وتصنيفها وتقييمها قبل استخدامها بمدة طويلة.

ويحتفظ الوعاظ غالباً ببعض الأوراق كما يخصصون ملفاً منفصلاً لكل عظة تم وضعها للأسابيع أو الشهور القادمة. وبعد ذلك، حين تطرأ على بالهم قصة، أو يصادفهم مقال يتناول نفس الموضوع، ما عليهم سوى أن يضعوا المادة فى الملف المناسب، وبذلك يتكون لديهم مستودع جيد للأفكار الجاهزة. ولن تجد العظات طريقها إلى مثل هذا الملف فحسب، بل إن الخطوط العريضة للعظة، والاكتشافات التفسيرية، والأفكار التطبيقية، والآراء التفسيرية، كل هذه إنما توضع فى هذا الملف. ومن المؤكد أنه ليس عليك أن تستعمل كل المادة التى جُمعت فى هذا الملف. فكثيراً ما تكون هناك مواد أكثر مما تستطيع استعمالها. لكن إذا استعملت قليلاً جداً مما فى الملف لعظة معينة، فإنه مما لا شك فيه، أن مثل هذا النظام سينمى خدمة ذات عظات من مستوى أرفع من كل الأقوال النمطية.

ويشكل ملف ما قبل العظة أهم أسلوب أساسى لحفظ العظات

واستردادها. ومن الأفضل وجود دولاب مخصص لحفظ الملفات، أو قاعدة معلومات للكمبيوتر، وذلك لحفظ العظات حسب الحروف الأبجدية، حيث ترتب بحسب موضوعها، لكن يبدو أن وعاظاً قليلين هم الذين لديهم وقت بالفعل لوضع مثل هذه النظم واتباعها. كما يعد ملف ما قبل العظة مرجعاً سهلاً بالنسبة لأى واعظ تقريباً. وهذا النظام لا يستغرق إلا أقل قدر من الجهد والوقت، ويتيح للواعظ أن يسترد عظات من مصادر غير كتيبات الحكايات، ويتلافى خطأ الذاكرة تحت الضغوط المختلفة، ويساعد على تحسين مستوى العظة.

اكتبها- الآن:

لن ينجح أى نظام حفظ ما لم يتوافر لك ما تضعه فيه. فمن المهم حين تعثر على عظة أن تكتبها فوراً. وإنه لمن المهم بنفس القدر أن تكتبها بتفاصيل كافية تمكنك من أن تتذكر موضوعها. وكل واعظ واجه محدودية الذاكرة فى لحظات أليمة مثل: "كانت لدىَّ عظة عظيمة لهذا بالأمس، ولكن ماذا كانت هذه العظة". ومعظم الوعاظ الذين يقررون "أن يكتبوها فيما بعد" فإنهم بكل بساطة يعرضون أنفسهم لنسيان ٩٠٪ من عظاتهم.

وهناك مفكرون عظماء كثيرون عوّدوا أنفسهم على أن يكون فى جيبهم مفكرة لكى يسجلوا فيا بشكل فورى القصص والأفكار التى لها

صلة بعظاتهم. ومن الطبيعي أنه لن تكون فائدة من حمل مثل هذه المفكرة، إذا اكتشفت بعد ذلك بشهر، أو حينما تكون متأهباً لإضافة القصة إلى الملف، أن المذكرة موجزة للغاية حتى إنك لا تستطيع أن تتذكر القصة. في هذه السنوات الأخيرة كنت أحتفظ في محفظتي بمجموعة صغيرة من ورق الكتابة، وبهذه الطريقة كان يتوافر لي دائماً ورق لأدوّن عليه القصة في عجالة. وكنت أكتب القصة وموضوعها بشكل كامل، حتى أني بدلاً من أنسخ هذه المذكرات على بطاقة أخرى، كنت ألصق المذكرة على بطاقة صغيرة وأحفظها في ملف مناسب لحفظ مواد ما قبل العظة أو أي ملف آخر. وما أن أكون قد كتبتها بهذه الطريقة، إلا وتجدني لست في حاجة إلى أن أجاهد كي أتذكر قصة صادفتها منذ أيام مضت، بل ولا أكون في حاجة إلى أن أقلق من ناحية الوقت الذي يُتاح لي فيه تحويل المذكرات التي أودعتها محفظتي إلى شكل أكثر ملاءمة للحفظ.

وإذا استطعت أن أوفر على نفسي عناء تدوين أي شيء، فلسوف أفعل هذا. ولقد أصرت عائلتي منذ فترة طويلة عي أن أكون آخر من يقرأ الصحيفة اليومية، لأنني حينما أقرأها، تتعرض أقسام كثيرة منها لمقصي. لأني أقرأ المجلات ومقصي في يدي، والكتب ومعي آلة تصوير. وما لا أستطيع أن أقصه أقوم بتصويره. أو أدون معلومات كافية في ورق المذكرات الذي أحتفظ به في محفظتي، حتى يكون بوسعي أن أتذكر

وأسترد القصة عند الحاجة إليها. وبعد ذلك أحتفظ بماقمت بقصه، أو الصور الفوتوغرافية، أو مذكرات محفظتى مع القصص الأخرى. وملفات حفظ قصصى قد لا تكون جميلة الشكل، ولكن لا أحاول كشفها، وأنا الوحيد الذى يطلّع عليها. وإنى أعرف أنه إذا ما جعلت عملى صعباً دون داعٍ، فمن غير المحتمل أن أستمر فيه.

حفظها فى ملفات:

ما الذى تفعله بالنسبة للقصص الجيدة التى ليس لها مكان فى ملف "ما قبل العظة" الخاص بك؟ أو تلك التى سبق استعمالها؟ عليك أن تحفظها.

وإذا كان إعدادها بصفة مبدئية أمر يبعث على الضيق، فإن ملفات القصص لها قيمة عظيمة بالنسبة للوعاظ الذين يحتاجون إلى مادة لعظاتهم الأسبوعية. ومثل هذه الملفات يمكنها أن توفر للوعاظ كمية كبيرة من الوقت والجهد، وفى نفس الوقت تحسّن نوعية عظاتهم إلى درجة كبيرة.

ملفات الحفظ بحسب الموضوع:

فى حين أن بعض الوعاظ قد يفضلون وضع نظام حفظ الموضوعات الخاصة بهم لفهرسة قصصهم، إلا أنه يمكنك أن توفر على نفسك كثيراً من الجهد، وذلك بشراء إحدى الفهارس الجيدة التى تباع فى المكتبات.

وبوسعك دائماً أن تضيف وتلغى نوعيات طبقاً لخياراتك الشخصية، واهتماماتك، دون الحاجة إلى إعادة اختراع نظام فهرسة شامل. وبعض الوعاظ يقومون بكل بساطة بترتيب قصصهم بحسب الحروف الأبجدية. وآخرون يتبعون فى فهرستهم تصنيف (ديوى) العشرى. وفى الوقت الحاضر، أفضل أن أحفظ قصصى بنظام بطاقات صغيرة. والملف يسهل أن يوضع فيه مذكرات الجيب السابق الإشارة إليها، وبسهولة أستطيع تغيير نظام الحفظ بحسب الموضوع بأن أضع أو ألغى بطاقات الجدولة، وإذا كنت متردداً من ناحية نوعية الموضوع الذى تناسبه عظة ما على أفضل وجه، أو إذ كنت أعتقد أنها تناسب بشكل جيد عدداً من النوعيات، أقوم بعمل صور فوتوغرافية وأحفظ القصة فى كل من النوعيات المماثلة.

وتعد نظم الفهرسة بالكمبيوتر مناسباً جداً. والقصص التى تُحفظ بنظام نموذجى عن طريق الكمبيوتر، يمكن وضعها مباشرة فى مخطوطة عظة باستخدام شرائط خاصة بذلك. والصعوبة الوحيدة للفهرسة بالكمبيوتر تتمثل فى الوقت الذى نحتاجه لإدخال القصص التى لا تشكل جزءاً من المجموعة الأصلية. ومع ذلك، فإنه من الأسهل حفظ نسخ مكررة من القصة فى الموضوعات المكررة، وفى النوعيات المحفوظة بحسب النص باستعمال الكمبيوتر. وإذا لم أكن أعتمد إلى حد كبير على مفكرتى، فقد أفضل نظام فهرسة الكمبيوتر. وعليك أن تقيّم ممارساتك، واحتياجاتك،

وميزانيتك، لأن من شأن هذا أن يساعد على تحديد النظام الذى يخدم احتياجاتك الشخصية وأسلوبك على أفضل وجه.

ويوجد نظامان كثيراً ما يستعملهما الرعاة: إما لصق القصص فى كتب، أو تكديسها فى صناديق كرتونية صغيرة، دون استخدام أي نظام موضوعى، وهذا لا جدوى منه، فما أن تكبر المجموعة، إلا وتجد نفسك مطالباً بقراءة الكثير جداً، للعثور على القصة التوضيحية المناسبة. وسرعان ما يكتشف الوعاظ أنه لا يتوافر لهم الوقت لاستخدام ملفاتهم. فالنظام الذى يفتقر إلى كثير من التنظيم يولد الإحباط، شأنه فى ذلك شأن النظام المعقد أيضاً.

وهناك تحذيران آخران يمكن ذكرهما بإيجاز. ففى كثير من الأحيان لا تتضمن الفهارس الموضوعية النوعيات المتعلقة بالمناسبات الخاصة، كتقويم الكنيسة، والعطلات الرسمية. ولأنه يجب على الواعظ وضع عظات كثيرة تتناسب مع هذه الأحداث فمن المهم ألا نضيف هذه النوعيات لكل ملف خاص بالقصص. وبعد ذلك، عليك أن تتذكر أن الملف الخاص بالقصة ليس هو ملف الموضوعات الوحيد الذى يتعين عليك الاحتفاظ به. وينصح (هارن روبنسون) بحكمة عمل ملف للموضوعات أو النصوص التى ستحتاج إليها كثيراً. وتحفظ فى هذا الملف المذكرات، والكتيبات، والملاحظات، والمقالات، والعظات السابقة، أو الرسائل التى بعث بها آخرون، والنسخ

الفوتوغرافية، وكثير من المعلومات الأخرى.

ملفات حفظ النصوص:

إن بعض موسوعات القصص التوضيحية التى تُباع، تطبع قوائم بالنصوص الكتابية التى قد تتناسب مع بعض قصصهم القديمة. وعلى الرغم من أن صلاحيتها تبدو ممتدة، إلا أن الإقبال الجماهيرى على هذه النوعية من الفهرسة، يشير إلى مدى نفعه، بأن يجد الوعاظ قصصهم وقد رُبطت بنصوص وموضوعات ونظام ما يمكن إنجازه بعمل ملحوظة فى دفتر النصوص حين تُوضع قصص مناسبة فى ملف حفظ البطاقات، أو بشراء برنامج كمبيوتر يسمح بذكر النصوص التى قدمت بقصص معينة وذلك حين يتم إدخالها قاعدة المعلومات.

بل إن بعض الوعاظ يحتفظون بملف مفهرس منفصل طبقاً للنصوص ويودعون فيه القصص مباشرة. ويصف (ليزلى فلين) ملفه المخصص للنصوص قائلاً:

"إن الملف الثانى فى القسم الخاص بالملفات الكبرى هو الدرج الخاص بالنصوص أو الخاص بالموضوعات الكتابية. ولدىَّ ملف لكل سفر صغير من أسفار العهد القديم، وعدة ملفات أخرى. وبالنسبة لسفر التكوين فقد جعلت ملفاً لكل أصحاح.

أما بالنسبة للعهد الجديد فخصصت ملفاً لكل أصحاح من سفر الأعمال حتى سفر الرؤيا. وأية قصة توضيحية تشير إلى قصة سجن فيلبى كنت أضعها في ملف خاص بالأصحاح السادس عشر من سفر أعمال الرسل.

ولكنى تعاملت مع الأناجيل متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا، بشكل مختلف. كنت أتبع كتاب (روبرتسون) "اتفاق البشيرين" مع تصنيفه المنظم زمنياً والذى بلغ ١٨٤ قسماً. وهذا أتاح لى أن أجمع فى مكان واحد كل مادة خاصة بأى حدث سُجل فى أكثر من إنجيل.

والسبب فى ضرورة عمل ملف للنصوص بشكل ما يجب أن يكون واضحاً. فبعض الشركات تسوّق تفاسير مع وعد بأن معها قصة توضيحية لكل نص كبير. وهذايجعلك تفكر سريعاً فى تطوير الملف الذى يحتوى على قصص توضيحية كثيرة للنص قبل أن تبدأ فى إعداد موعظتك.

اعمل هذا فحسب:

لا يجادل أى شخص ضد وجود ملف جيد للقصص التوضيحية، وكل واحد تقريباً؛ يناضل لكى ينشىء مثل هذا الملف ويحافظ عليه، وإذا كانت المحاولة صعبة جداً، هنا، يتعين على الوعاظ أن ينشئوا على الأقل ملفاً لما قبل العظة. والبعض قد يتمنون لو أنهم كانوا قد عملوا نظام حفظ أفضل لقصصهم منذ سنوات مضت. أما الآن فهم يشعرون أن الأمر

يتطلب جهداً كبيراً مقابل عائد بسيط لكى يتبعوا هذا النظام. ومع ذلك، فإنك إذا بدأت بمنتج اقتصادى فى السوق، وعدلته بإضافة نوعيات قليلة، ثم أضفت قصتين توضيحيتين فقط كل أسبوع، فسرعان ما يتكون لديك ملفاً شخصياً مفيداً لأقصى درجة. نعم، إن عمل ملف للقصص التوضيحية ذى طابع شخصى وموسّع، سيستغرق بعض الوقت. ولكن، على الرغم من أن أفضل وقت تكون قد اتبعت هذا النظام فيه كان منذ خمس وعشرين سنة مضت، إلا أن أفضل وقت ثان هو الآن فلتبدأ.

خاتمة

فن إلقاء القصة

يُحكي أنه كان هناك واعظ اعتاد أن يسافر إلى كثير من الكنائس فى جميع أنحاء وطنه يحدثهم عن الرب يسوع وكلمته. ولقد أبدى المستمعون تقديراً عظيماً لهذا الواعظ حين يتكلم فى كنائسهم. وقالوا: "نحن نفهم ما يقوله. ولكنه ليس له إلمام بالكتاب المقدس. ويبدو كما لو أنه يعرف ما نواجهه كل يوم، وهو يبين لنا كيف ينطبق الكتاب المقدس بالفعل على حياتنا". وفيما ازداد تقدير الناس له، ازدادت شهرته. وهذا بالطبع حمل الوعاظ الآخرين على محاولة معرفة ما الذى يجعل هذا الرجل على هذا النحو من الفاعلية والتأثير. ومن ثم دعا هؤلاء الخدام الواعظ المتجول إلى اجتماع ليعلمهم "أسلوبه". وجاء الواعظ إلى الاجتماع، ولكنه بدل أن يعلم شيئاً جديداً، تحدث إلى الخدام عن أسلوب الرب يسوع فى تعليم الحقائق بأمثال. وبقصة أو اثنتين من قصصه، شجع الواعظ الخدام الآخرين على أن يتكلموا كى يُسمعوا ويُفهموا، بدلاً من الكفاح فى سبيل أن يكونوا خطباء عظماء. وقال لهم: "أن تُفهم الرسالة خير من أن يُبجل الرسول".

وفى الفترة المخصصة فى الاجتماع للإجابة على الأسئلة، وقف أحد

الخدام ليطرح سؤالاً، وقال بارتباك حقيقي:

"لقد ذهبت إلى ندوة معك. وأعرف أنك رجل ذو ذكاء عظيم، وأنك تعرف الحقائق العميقة التي لا أعرفها. لكن يبدو أنك لم تكن عادلاً مع مواهبك، حين تركز بهذا الشكل الكبير على القصص. فأنت تعظ دائماً بالقصص. لماذا لا تقتصر ببساطة على ذكر ما يعلّم به الكتاب المقدس؟ ألا يجب علينا أن نقدم الحق بكل بساطة؟

فكّر الواعظ لمدة دقيقة قبل أن يرد، ثم ابتسم قائلاً: "للإجابة على سؤالك. دعني أقص عليك قصة".

وابتدأ قائلاً: "في ذات يوم دخل "الحق الصريح" إلى المدينة ماشياً. وما اضطُر أن يقوله كان مهماً للغاية، لكنه بدا مخيفاً بعضلاته البارزة وعظام مفاصله القوية. وتذكر بعض الناس أنه سبق أن جرحهم قبل ذلك. ونتيجة لهذا، دخل معظم الناس بيوتهم حتى ينهي الحق الصريح عمله. وأقوى رجال المدينة فقط هم الذين لم يعبأوا بزيارات الحق الصريح.

وفي اليوم التالي جاء "المَثَل" إلى المدينة. وكان يشبه معظم سكان المدينة، وكان يرتدي ملابس عادية، ولكنه تحدث عن كل الأماكن التي زارها والمناظر التي رآها. وكل الناس أحبوا الافتقاد مع "المَثَل". وقد خرجوا لتحيته، ودعوه لزيارتهم في بيوتهم. وكثيرون دعوه قائلين: "تفضل

بالدخول وتناول فنجان قهوة وقطعة من الفطير".

ولكن الحق الصريح ساءه أن يلقى "المَثَل" استقبالاً على النقيض من الاستقبال الذى قُوبل به هو. فذهب إلى المدينة الأخرى زائراً وقال: "أخبرنى يا مثل، لماذا يحييك الناس بهذه الحرارة، فى حين أننى "الحق" الذى يجب أن يسمعوا له؟

وبدلاً من أن يجيب على هذا السؤال، خلع "المَثَل" قبعته وسترته ووضعهما على "الحق الصريح". وهنا تغير "الحق" وكان ما يزال قوياً. وما يزال هو الحق. ولكن الناس رأوه بشكل مختلف تماماً. فحين ارتدى ملابس "المَثَل"، أظهر الحق أنه كان بالفعل مهتماً بأن يسمعه الناس. وحين عرف الناس أن الحق كان يهتم بهم لدرجة أنه أراد أن يعرف ما الذى يحتاج إلى عمله كى يحملهم على الاستماع له، فمن ثم أنصتوا إليه باهتمام متزايد. ونفس الناس الذين دعوا "المَثَل" لتناول القهوة والحلوى، قاموا الآن بدعوة "الحق" أيضاً".

وإلى يومنا هذا، كلما كان للحق عمل فى المدينة، كان يرتدى ملابس المَثَل، حى يسمعه الناس، ويتعاملوا معه".

ملحق:

إسهامات نظرية الاتصالات

تأثير القصة

إن القصص القائمة على مواقف حياتية عادة ما تكون موجزة، فمن ثم نحن في حاجة إلى مزيد من التفكير في كيفية توصيل القصص للمعاني والقيم. وقد أشارت البحوث المتزايدة إلى أن المجتمعات بجميع نوعياتها تتطلب مشاركة الأفراد في القصص للتواصل وللعمل معاً كوحدة اجتماعية. وبدون هذه القصص، يتغير معنى الكلمات سريعاً، بل ويتجزأ أو يتفسخ. فالقصص تدعم الاتصال بين الناس وتحافظ على مدى قابليته للتطبيق وعلى فعاليته أيضاً. والواقع أن هذه الفعالية لم تكن للاتصالات العامة فحسب، بل ولتوصيل الموضوعات الروحية أيضاً.

وسواء عرفنا ذلك أم لا، فكلنا بالطبيعة نشجع الآخرين على أن "يختبروا" المعاني حينما نريدهم أن يفهموا كلامنا. وعلى سبيل المثال، حين يسألنا أحد أطفالنا عن معنى "السرقة"، فمن غير المحتمل أن نلجأ إلى قاموس، مع أننا نستطيع أن نجد فيه تعريفات دقيقة. بل من المرجح بالأكثر أن نفسر الأمر عن طريق قصة. فنقول له: "إذا كانت لديك دراجة جديدة، وجاء ولد غير صالح وأخذها وهرب، فستكون هذه سرقة". والحكاية

بسيطة، ولكنها مفهومة. فالقصة تتضمن تحديداً منطقياً، لكننا بالسماح للطفل أن يختبر الحقيقة الواقعة لهذا المفهوم، فقد أتحنا له أيضاً أن يفهم على مستوى لا يمكن أن يصل إليه مجرد تعريف مجرد. وقد قامت القصة بدور قاموس اختبارى لتحدد معنى الكلمة. وواقعية الاختبار الخيالى تتيح للطفل أن يفهم فى إطار عالمه. وفى حين أن معنى هذا المفهوم لم يُكشف عنه تماماً بالقصة الموجزة، إلا أن القصة تعمل كأساس يمكن أن تُبنى عليه المعانى، وتُفهم، وتُوجد العلاقات المتبادلة بينها.

وما نعتبره بداهة اتصالاً فعالاً للأطفال يمكن أن يكون نموذجاً لمن يخدم كاتصال فعال بالنسبة لكل شخص. وبالنظر إلى أن الاختبارات المعاشة تترجم المعانى للأفراد، فإن تشكيل هذه الاختبارات فى قصص يعطى الآخرين فرصة الوصول إلى نفس المعنى. أى أن القصص أكثر من مجرد أداة تسلية، فهى وسيلة توصيل للحق بطريقة يمكن فهمها بشكل أكمل.

فالوعاظ الذين يفهمون فعالية هذه القصص تتوفر لهم ميزة تحويل لغة المنبر إلى الكلمة الحية بين شعب الله بواسطة القصة. وهم يدركون أنه قبل أن يفهم مستمعوهم بشكل تام ما يحاولون توضيحه فى عظاتهم، يجب على المستمعين أن يساهموا فى نفس نوعية الاختبار الذى أوصل المعنى أساساً إلى المتكلم. وهذا هو السبب فى أنه يجب أن يشتمل الوعظ على

قصص. وفى العظة، تكون هناك بداية ونهاية لأوصاف هذه الاختبارات، وهى تأتى فى حينه، أو يكون لها مدى ما، وتتطلب إشراك الأفراد، إما كمساهمين أو كمتلقين، وذلك فى إطار إشارات مكانية، وتتطلب تنمية الأشياء، أو الأشخاص- أى، أن لها بناء قصصياً ضمنياً.

الاستعمالات التاريخية للقصة

غالباً ما بحثت بعض الدراسات التقليدية لاختزال تواصل الأفكار والمعلومات وتبادلها، إلى أساسها اللغوى. ولكن معظم أصحاب النظريات يعترفون الآن بأن التواصل لا يمكن اختزاله إلى مجرد كلمات أو افتراضات أو عبارات، أو صيغ. فالمكان، والزمان، وفعاليات العلاقات تساهم دائماً فى توصيل المعنى. وتعمل هذه التكوينات مع الكلمات والصيغ لتشكل القصة التى تؤدى إلى التواصل.

فاعليات القصة:

إن مفهوم صعوبة اختزال تواصل الأفكار وتبادلها إلى قواعد لغة، وتعريفات، وصيغ، إنما هو مفهوم قديم. وهذا الفكر كان بارزاً حتى فى اليونان القديمة. وقد كتب أرسطو يقول: "نحن مقتنعون بشدة أنه حين نفترض أى شيء فبذلك نكون قد أوضحنا أنفسنا". ويعكس مفهومه عن "الإيضاح" نوعيات متباينة من البراهين، لكننا نجد فى نموذج أرسطو

للتواصل الافتراض الأساسي للبحث الخاص بالتواصل، وهو أن أي مفهوم للتواصل لابد أن تتوافر فيه المعقولية، والقوة، والإقناع، لأن المستمع يدرك صحته باختباره. وهذا ما نراه واضحاً حين يستخدم المتكلم "مثالاً". فالأمثلة تعمل مثل الشهود كما يقول (أرسطو). بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الاستقراء (أي استخدام أمثلة لدعم النتائج المنطقية) هو أساس كل تفكير. وبالنسبة لهذا الفيلسوف الذي يُعد من أكثر واضعي النظريات المتعلقة بهذا الموضوع أهمية، فإن تجميع عناصر خبرة الإنسان وإضافتها مع المنطق تثبت كل فكر مشترك.

ويولي الوعاظ اهتماماً خاصاً ببحث أرسطو عن الكيفية التي على المتكلمين أن يتبعوها في الإقناع عند تقديم أمور ليس لها أدلة منطقية مطلقة. وفي حالات كهذه، يقول (أرسطو): "إن الفعاليات الاختبارية تلعب دوراً أكثر حسماً. فالمتكلمون يطرحون "المقدمات" على المستمعين الذين يصلون إلى نتائج قائمة على كل ما لديهم من خبرة بأفكار أو أحداث مماثلة. فالمستمعون يستخدمون ماضيهم لخلق مغزى، أو نسبة معان للكلمات والحجج التي يستخدمها المتكلم. وكنتيجة لهذا، فالمتكلمون الذين لديهم فعالية يستخدمون مقدمات تفترض أو تقدم للمستمعين خبرة مرتبطة بهم. وبهذه الطريقة يكون بوسع المستمعين (١) معرفة احتمالية المقدمة، (٢) الربط بين الفرضية وأية موضوعات ذات علاقة

فى اختبار سابق، (٣) التعرف على الفرضية بأمثلة تاريخية أو مخترعة، (٤) يستنتجون استقرائياً نتائج عامة من هذه المفردات. وبتعبير آخر، فيما لا يكون الوعاظ قادرين أن يوضحوا بشكل قاطع أن الزنا يدمر العائلات، أو أن المادية تؤدى إلى اليأس، إلا أنه بوسعهم توضيح هذا عن طريق القصص، إذ يعرفون أن المستمعين من المحتمل بالأكثر أن يتقبلوا النتائج باستخدام مرجعيتهم الخاصة. وتتحمل القصص عبء الإقناع فى هذه العظات.

وحتى عندما تركز دراسة علم الاتصال على كلمات فى حد ذاتها، فإنه لا يمكن تجاهل فاعلية القصة. فالرابطة بين الخبرة والمعنى فى هذا الشأن واضحة بصفة خاصة فى المجاز والاستعارة، وهى أساسيات أية لغة. كما يجعل المجاز الشيء مفهوماً بأن ينسب إليه خصائص شيء معروف. وإذا كان عنصرى التشبيه المجازى معروفين، يكون التركيز على العلاقة بينهما. وبغض النظر عن آلية المقارنة هذه، فإن التشبيه لا يمكن أن ينجح إذا لم يكن أحد عناصره مألوفاً للمستمع من قبل، أى أن الطريق إلى الفهم يعود بنا ثانية إلى الاختبار. ويُوصل المعنى بمصفوفة الأحداث، والمشاعر، والأشخاص- أي القصة- التى تشكل الكلمات مرجعيتها.

فاعليات القصة القديمة- المعاصرة

إن المعتقدات الاختبارية التى تشكل أساس نظريات الاتصال القديمة عادت إلى الظهور، وتم صقلها مع بداية القرن العشرين. وفى كتابه "سياق نظرية المعنى" كتب ريتشارد يقول إن معنى أى كلمة يُحدد بطريقتين: الوضع والسياق. فالكلمات المحيطة بالكلمة والطرق التى يستخدم فيها الناس الكلمة (أى البناء والاستعمال) تشكل "وضعها". لكن الأكثر أهمية للوعظ، هو فكر (ريتشارد) عن المصدر الثانى للمعنى. فهو يقول إن كل الكلمات والتعبيرات تعطى المعنى من خلال عملية ذهنية يفحص فيها الشخص الاختبارات السابقة لارتباطات تشكل "سياق" الكلمات. وبتعريف السياق هذا يؤكد (ريتشارد) فكر (أرسطو) ويتعداه.

وإذا اعتمدت كل طرق الاتصال على المقارنات الحاضرة بالأحداث السابقة، تموت فى هذه الحالة القوة المفترضة أنها كامنة فى الكلمات ذاتها. وتتحلل الأفكار التقليدية للمنطق اللغوى والتواصل من خلال الافتراض الموجه. فالكلمات وحدها تعطى إشارات للخبرات، ولكن معناها فى تكييف الكلمات فى سياق الحياة التى تشكل أمثلتها مرجعيات لهذه الكلمات. وهكذا فالكلمات ليست وحدات فكر مستقلة، ولكنها ارتبطت لغوياً لتعطى معنى فحسب، بل هى أجزاء من سياقات تستخرج عند استعمالها اعتبارات للخبرات التى تتضمن المعنى.

ولا يعمل السياق كمجال يُوجد فيه معنى الكلمة فحسب، بل هو يحدد أفاق المعانى التى يستطيع الفرد أن يتأملها. وكلما كان المفهوم أقل ألفة أو واقعية، زاد وجوب الاعتماد على السياقات لتحديد آفاقها. وهكذا، كلما كان المفهوم مجرداً ازدادت ضرورة إضافة السياقات لتحديد معنى معين. وقد قال (ريتشارد): "وكلما زادت صحة ذلك، زادت قوة الفلسفة وتجريدها. فكلما ازدادت تجريداً، يزداد تفكيرنا من خلال التشبيهات والاستفسارات التى ندّعى أننا لا نعتمد عليها."

وقد يعتقد الوعاظ أنه بالنظر إلى أن ما يقولونه عميقاً من الناحية العقيدية فإنه يحتاج إلى قليل من المرجعية الاختبارية. والواقع أنه كلما كانت التعبيرات ضخمة، زادت ضرورة اخفاتها لكى يكون لها معنى حقيقى. فالمثاليات تتطلب سياقات اختبارية أكثر من تلك المثاليات التى يرتبط معناها بشكل وثيق بالاختبار العادى. والعظات البسيطة لها تشبيهات اختبارية، أما العظات الصعبة فتحتاج إليها، فالقصص التى تحتوى على هذه المرجعيات الاختبارية وتخلقها تكون دائماً ذات صلة بالموضوع.

الاستعمالات الحديثة للقصة

يكشف (كينيث بيرك) عن الأسس الاختبارية لتوصيل المعلومات.

وقد أدى عمله -أكثر من أي عمل آخر- بالباحثين اللاحقين أن يتأملوا في هياكل القصة، مؤيدين كل ما نقوله. ويرى أن العلاقات المفككة بين معنى الكلمة والقصة المستخلصة من افتراضات أصحاب النظريات قد تم الجمع بينهما، حتى إن مغزى القصة أصبح واضحاً.

ومن الأفكار الرئيسية (لبيرك) أن الكلمات والرموز تُحدد بشكل تلقائي بما هو نقيضها- كل شيء هو "الآخر". وقد استخلص هذه النتيجة بالملاحظة الفطرية بأن الأشياء تُحدد بجوهرها. وفي تحليل فعلي "للتورية"، أوضح (بيرك) أنه من الناحية الحرفية المحضة" أن جوهر الشيء، هو الذي يؤكده إذا كان شيئاً أو شخصاً. وبالتالي فإن هذا التحليل يضع المعنى في سياق الشيء، وليس في الشيء نفسه. والكلمة أو الرمز يُحدد بنفس عملية الإشارة إلى الأشياء الخارجة عن نفسها. ومن ثم فإن أية كلمة أو رمز لابد وأن يكون بالضرورة "مجازاً مرسلاً" (أي الجزء الذي يمثل السياق كله).

القصة المسرحية:

وبحسب تفكير (بيرك)، وعلى غرار تحليل (ريتشارد)، تُحدد أية عبارة عن طريق "سياقات المواقع" التي تُوجد فيها. ومع ذلك يدعم (بيرك) التحليل بتعريف تلك العناصر التي تكون سياقات المواقع: "فما

عُمل (عمل)، متى وأين عُمل (مشهد) ومن عملها (الوسيط)، وكيف عمله (الوسيلة)، ولماذا (الغرض). وتعبيره لاستعمال هذا التحليل المسرحى لسياقات التواصل، إنما هو "مسرحة". والمسرحة تقول بأنه يتوجب علينا أن نتصيد المعنى من تفاعل الأشخاص، الأمكنة، والأحداث التى تمتزج داخل أى تعبير أو خارجه. ولم يكن اختيار (بيرك) أن يصف هذا التحليل بأنه "ناحية قصصية" بل "مسرحة". وهكذا يردد صدى ملامح قصة لم تستطع فعالياتها أن تساعد، بل تبرز الآلية القصصية العاملة فى عملية التواصل هذه. فالقول يوصل بواسطة ملامح القصة التى تحيط بتعبيره وتنفذ خلالها. والمعنى يُوصل ليس بمجرد مقارنات بالسياقات الماضية، بل بفعاليات -المسرحية- الموقف الحالى.

إن قصة أى تعبير تعطى معناه. والكلمات تشير إلى السياقات، والمواقف والشخصيات التى وراءها، فهى مطمورة فى قصة الأحداث التى حولها. وهكذا، لا يمكن تجنب القصة فى أى شكل كان حين نعبّر عن أى شىء. فالسياقات القصصية إما أن يقدمها المتكلم، أو يخمنها المستمع حيث يعتبرها كلمات ذات مغزى. وتكشف الكلمات عن قصص.

معنى القصة:

يستخدم (والتر فيشر) ما قاله (بيرك) ليبين كيف أن القصة تنتشر

فى جميع اتصالاتنا ، فيوضح أولاً أن عناصر المسرحة هى ملامح قصصية. وبعدئذ يدمج مفهوم (بيرك) الخاص "بالتعرف" فى نموذج القصص. ويجادل (بيرك) أنه لا يمكن أن يحدث الاتصال إلا إذا أصبح المتكلم والسامع "من نفس المادة"، أى يكونان متماثلين بالمشاركة فى "المشاعر العامة، والمفاهيم، والصور، والأفكار، والمواقف" (انظر ١كو ٩:١٩-٢٢). وحين يرى (فيشر) أننا نوصل المعنى بعناصر قصصية يمكننا نحن والآخرون التعرف عليها ، فمن ثم ينتهى إلى أن الاتصال الفعال لا يأتى إلا من خلال قصص مشتركة.

ولا يجادل (فيشر) بأن القصة هى بكل بساطة وسيلة اتصال أخرى. فالسرد هو "التشبيه المجازى الغالب". وهو يتضمن كل نماذج ووسائل الاتصال الأخرى. والقصة ضرورية ليفهم الإنسان وضعه فى الحياة، ولخلق الوسائل التى يعمل ويفكر الأفراد من خلالها فى إطار من التناغم. ويطبق (فيشر) هذا الافتراض على الاختبار العادى، بل وحتى الاتصال الذى يتسم بطبيعة تقنية عالية، والأخلاقيات بمختلف ضروبها ، والتنظيم الاجتماعى، والسلوك والديانة. والقصص تمكننا من معرفة من نكون، وماذا يقول الآخرون، وما الذى يقوله الله أيضاً.

وسائل القصة:

يشرح (فيشر) ما تعمله القصص، ولكن السؤال الخاص بكيفية استعمالنا لها، يظل قائماً. وبالنسبة لهذه النقطة نعود إلى (رالف ڤون إيكارتسبرج) ففي تنقيبه عن مدخل لأعمق أعماق النفس البشرية، اكتشف هذا العالم النفسي الاجتماعي حاجز الكلمة الذي واجهه علماء التواصل في دراسات مماثلة. والكلمات وحدها لا تكفي لأن تكتشف أو تفصح عن المعاني المحتجبة في النفس، وفي الاختبار السابق، وفي بحثه عن طريق آخر في أعماق عمليات فكر الآخرين، عرف (فون إيكارتسبرج) كيف يستعمل القصة كأداة، وكخريطة أيضاً.

وإذ يردد ما ذكره الآخرون كتب يقول: "أما وأن كياننا متشابك ومتداخل في قصص، فهذا ما يشكل أول اختبار أساسي لواقعنا الاجتماعي. وهو نبع المغزى الاجتماعي. وعلى أساس هذه القصص التي نتشارك فيها أصبحت حياتنا الاجتماعية مفهومة. ولكن، كيف نستخدم هذه المعلومات؟ ويجيب قائلاً: "إذا كان لنا أن نؤكد ونفسر أعمال البناء الثقافي للأفراد، فيتعين علينا أن نجد طريقاً إلى هذه الحقائق ونضفي عليها شكلاً من التعبير أو الوصف. علينا أن نحصل على أوصاف لهذه الأحداث. علينا أن نجمع قصصاً من واقع الحياة. وبالنظر إلى أننا متشابكون ومُشتركون في قصص فمن ثم نفهم أنفسنا، كما يفهم كل منا الآخر، وأن مثل هذه

القصص تعد أدوات اتصال جوهرية. فهى تتيح لنا الوصول إلى الاختبارات التى تكمن فيها المعانى التى مكنتنا من أن نتشارك مع الآخرين. فهذه القصص تشكل نصوصاً حية. وبجمع قصص الآخرين، وسردها "نستطيع أن نتعلم من مثالهم، ومن نجاحهم ومن فشلهم.

ومن خلال هذه القصص التحليلية ليس هناك فقط وسيلة لوصف هياكل التواصل، بل هى أدوات يفهم كل منا الآخر بواسطتها. ومن خلالها تُتاح لنا أفضل فرصة لمعرفة ما تعنيه حياة الآخرين وأقوالهم. ونجد أنفسنا وقد أمسكت بنا وحركتنا أحداث القصة وشخصياتها. فنحن من خلال حياتهم، نعيش معهم فى تناغم ومودة. ويخلق اختبارنا معهم تواصلاً على جانب كبير من الكفاءة والفعالية والدقة.

فالقصص التى نشارك فيها تعمل كمرشد حضارى يقود إلى الفهم الشخصى خلال تحديد قيم المجتمع، وفك رموز التواصل الخاصة به فى إطار قصص. وتثمر هذه الرؤية بالتواصل فى دائرة مكتملة. وعلى مدار عشرين قرناً تقريباً كان التقليد (العرف) الذى جاء من فكر أرسطو يعتقد على أنه يحدد كيف أن للتجربة الإنسانية يمكن أن يقلل من شأنها بسبب وجودها الافتراضى. أما الآن فهناك إجماع متزايد بأن مثل هذا التقليل من التجربة الإنسانية لا يمكن حدوثه أو على الأقل هو ضعيف التأثير. فالنصوص والحوار هما سيخدمان التجربة الإنسانية (بدلاً من محوها)

للوصول إلى تواصل أفضل. وحسب فكرهم أن ما ظنوه فعالاً فى التواصل لم يكن هكذا.

الوعظ يستخدم القصص:

وفى حين أن هذا المنظور لا يستبعد استخدام الأقوال الافتراضية فى الوعظ، إلا أنه لا يسمح بعد بالنظر إلى العناصر القصصية على أنها عناصر مساعدة للافتراضات التى طُرحت. ولذلك فالتعليم واضح: لا تُستخدم القصص فى الإرشاد بشكل ضمنى وراء كل اتصال، بل يجب استعمالها صراحة فى التخاطب. وهذه الفرضية تنطبق على المواقف الحوارية بصفة عامة وعلى الوعظ بنوع خاص.

سد الهوة:

فى عبارات تعكس كلام العلماء يقول (راؤول هاو) بفكر راجح أن عظات الواعظ "ما هى سوى إسهام أولى للعظات التى تكونت فى كل سامع، فيما يستجيب من خلال معانيه إلى معانى الواعظ". ومثل هذا المنظور يزيل فى الحال الفكرة القائلة بأن المستمعين ينتظرون فى سلبية لأن يستقبلوا ويستهلكوا ما يطرحه الواعظ بسخاء. وإذا فهم المستمعون أى شىء، فهذا لأنهم يترجمون بنشاط كلمات الواعظ من خلال تجاربهم. فهم شركاء معه فى عملية الوعظ، وإلا لن يكون هناك تواصل.

وهذه الفعالية تخلق فى الحال مشاكل. وقد كتب (هنرى إيجولد): "كل من الواعظ والمستمع يأتيان إلى العظة بمفهومهما عن تقليدهما الدينى، والحياة المعاصرة. وهنا تكون المتاعب قد برزت بالفعل، لأن فهم الواعظ للدين قد يكون أعمق من فهم العلمانى، وعلى النقيض من ذلك، قد يكون فهم العلمانى للحياة المعاصرة أوسع من فهم الواعظ لها".

وأضف إلى هذه الفعاليات الاختبارية المتفاوتة، الحواجز المقبولة بشكل عام بالنسبة للخطاب الدينى- المثلة فى التفاوت الحادث فى اللغة، والصورة، والنواحى التعليمية والجنسية، والثقافية، والقلق، والتوترات. وتبدو المشاركة الوعظية فى مستوى ضعيف. والمسافة بين المنبر ومقاعد المستمعين فى الكنيسة يبدو أن أفضل تصوير لها هو "الهوة".

ولكى يفهم المستمعون تماماً ما يقصده الوعاظ، يجب أن يصل المستمعون إلى نوع من الإجماع- فيما يتعلق بالمعانى والقيم- مع الوعاظ. والأمر صعب لتحقيق هذه المثالية. والمستمعون فى هذا العالم سوف يختبرون نفس الأشياء التى تشكل فكر الواعظ التى يعوض بها الاختلافات، والتى تجعل فى النهاية فكر كل واحد منفصل. ومثل هذا العالم المثالى لا يمكن تحقيقه، ومع ذلك يمكن للتواصل أن يحدث. كيف؟ بالسماح للمستمعين أن يختبروا نيابياً الأحداث أو القصص التى شكلت فكر الواعظ، أو بصياغة قصة تتيح أرضية مشتركة للفهم. وبرواية القصص

التوضيحية المأخوذة من واقع الحياة يخلق الواعظ البيئة السمعية لفكره، وبهذا ينقل المستمعين إلى ذلك العالم الذى يستطيعون أن يعيشوا فيه معه من خلال المعانى.

غلق الدائرة:

ثمة ميل طبيعى تجاه الشخص الآخر فى التخاطب الفعال، إذا كان موجهاً إليك، فأنت بدورك عليك التركيز علىّ حتى يمكن لكل منا الدخول إلى أفكار الآخر، ويستولى كل منا على كلمات الآخر. وهذه الفعاليات، أحاط بها بمهارة، (موريس نايدنتال) و (تشارلز رايس) فيما ينسبان الوعظ إلى التواصل عن طريق القصة:

"انظر إلى راوى القصة وهو فى وسط دائرة من الناس، إلى جانب البحيرة، أو حول النار، على مائدة العشاء فى مساء يوم ما، كل واحد إلى جانب الآخر، فيما تتكشف القصة أولاً، أثناء طعام الإفطار، وحيث الجرائد مفتوحة، يتذكرون بنتاً صغيرة أو ولداً صغيراً، أو فى رحلة، أو فى البيت فى يوم انهمرت فيه الثلوج حيث كنت مع جدك وجدتك، أو فى لقاء العائلة أو حول مائدة الشركة فى الكنيسة، يختص السطر الاستهلالى بالعبادة، ودعوة الناس للدخول وترك كل شىء يحدث: "فى ذات يوم.."، أو "أتذكر حين..."، أو "لم يسبق لى أن أخبرتكم بهذا، لكن..."، أو

"كان رجل له ابنان...".

أينما حدث هذا، وأياً كانت الصيغة، فنحن نفهمه في الحال، ونبدأ كما قال (جالى) في تتبع القصة، ونتمشى معها ومع الراوى، سواء كانت القصة غير مألوفة لنا، أو كنا قد سمعناها قبل ذلك ألف مرة.

وحين نُعطى الإشارة نعرف- والمعرفة ما هى ببساطة سوى أننا بشر- وأن هذا ليس وقت السؤال، أو وقت تحليل أو علم أى شىء. لقد حان الوقت لأن نميل إلى الأمام، وأن ندخل، وأن نسمح لأنفسنا بالتحرك، وأن نتبع....

ويميل راوى القصة ودائرة المستمعين كلٌ تجاه الآخر. وهناك فى طبيعة سرد القصة وضع خاص. وهذا ينطبق على كل من المستمعين وراوى القصة أيضاً كما لو أنه لا يمكن سرد القصة دون الانثناء بانتباه كل واحد ناحية الآخر.

ويعكس الوعظ الكتابى المبادىء الواضحة فى هذا المشهد. وقد شيدت القصص الكتابية لتلائم إعادة سرد الحقائق لأجيال لا حصر لها. وأولئك الذين يكرزون بالإنجيل لا يجب أن يتجنبوا التعليم الذى يمدنا بها. فالوعظ هو مشاركة القصص- وليس بالضرورة القصص الخيالية، أو الأساطير الخرافية- بل القصص التى تخبرنا بموقعنا فى العالم، والأشياء التى

نقدرها، والأولويات التى يجب أن تحكم علاقاتنا.

الاستعمال الصحيح للقصة:

يريد الوعاظ أن يستمع الناس إليهم ويفهموهم. وبكل بساطة ليس بكافٍ أن تبدو العظة دينية. فالوعاظ يريدون عظات تعبر الهوة الفاصلة بين المنبر ومقاعد المستمعين، وأن تعيش فى أذهان المؤمنين كى تغير قلوبهم. ومثل هذه العظات يجب أن تكون لها مقومات تجعلها مقبولة لمخاطبة الجماهير، وقابلة لأن تترجمها عقولهم. فالقصص تنفرد بأنها مؤهلة لأداء هذين الدورين، لأنها تخدم الاحتياجات التى تشكل أساس الوعظ الفعال، وتشكل الفكر الذى يوصل الفهم. ويحرك المستمعين. وإذا نُظر إلى القصص من هذا الجانب المختص بتواصل المعلومات، فلن تكون رواية القصص مجرد تسلية، أو لإزالة التوتر أثناء الوعظ، بل ستعد وسيلة رئيسية للتفسير والتطبيق. وما لم يكشف الوعاظ عن القصص التى تخاطبنا بالطريقة التى نحيا ونتعلم بها كلنا، يكون هناك خطر فى اتساع الهوة بين المنبر والمقعد.

وهذه النتائج تشير إلى الحاجة إلى وعظ أكثر أصالة، وعظ ينتقل من الافتراضات المجردة، إلى الحوار حول "ما حدث لى الأسبوع الماضى"، أو "ما حدث لشخصٍ مثلنا". ومثل هذا الوعظ قد يبدو أنه أقل فكراً، بل

وأقل ثقافة، غير أنه على الرغم من ذلك، فإنه يلمس الأشخاص كأناس كاملين (وحدة واحدة دونما انفصال) إلى أجزاء، أو كيانات سلوكيـة، لا تمثل حقيقتهم. وأسلوب القصة الذى ظهر فى مواقف حياتية، يلمس الأفراد من الناحية الروحية، وبهذا يتعامل مع الناس بطريقة تجمع الله والإنسان معاً.



الوعظ هو أحد الأركان الهامة فى العبادة المسيحية، والوعظ لكى يعطى فائدة روحية وفكرية للمتعبد، يجب أن يرتكز على قواعد معينة مما يُوجد علاقة بين الواعظ والمستمع، وكيف يتم التفاعل بينهما بأساليب التوضيح المختلفة، وكيفية استخدام الوسائل الحضارية المختلفة فى توصيل فكرة العظة.

وهذا الكتاب يوضح هذه الأسس والوسائل المختلفة.


Bibliotheca Alexandrina
02533882



١٠١٠٣١١٧